موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

# المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي

www.coptology.com

# المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي

دكتور

**جورج حبيب بباوي**

٢٠٠٨

www.coptology.org

# جدول المحتويات

الإهداء..... ٦
مقدمة..... ٧
القسم الأول **تعريفُ اللَّاهوت**..... ٩
**الفصل الأول: نظرة معاصرة إلى "المسيحية بين ديانات العالم"**..... **١٠**
ما هي العقيدة؟..... ١٠
أساس العقيدة..... ١٠
إعلان الله عن نفسه..... ١١
الإنسان صورة الله ومثاله..... ١٢
الإعلان والصورة..... ١٣
نظرة موضوعية إلى ديانات العالم..... ١٣
ما معنى غياب مقياس موضوعي في علم الديانات المقارنة؟..... ١٤
المشروع المسيحي..... ١٥
**الفصل الثاني: ما هو الإيمان؟**..... **١٧**
تمهيد..... ١٧
المبحث الأول: الإيمان ... ماذا يعني في العهد القديم؟..... ١٩
الإيمان والمواعيد .. نموذج في الواقع وليس مجرد مبدأ..... ٢٠
الإيمان والتاريخ..... ٢١
المبحث الثاني: الإيمان ... ماذا يعني في العهد الجديد؟..... ٢٣
ماذا تعني هذه الأفعال في إنجيل يوحنا: يسمع – يؤمن – يقبل – يحب؟..... ٢٥
الخلاصة:..... ٢٦
**الفصل الثالث: العلاقة مع الله من خلال الصلوات والطقوس**..... **٢٧**
سؤال..... ٢٧
العقيدة والصلاة والطقوس..... ٢٩
العقيدة علاقة محبة مع الله..... ٣٠
هل من الممكن أن ننقد المحبة، أي هل يمكن أن ننقد العقيدة المسيحية؟..... ٣١

مستويات المحبة في المسيحية؟ ..... ٣٢
نقد المحبة والتعليم المسيحي الخاص بالله ..... ٣٣
الاختبار هو أداة النقد الصحيح ..... ٣٤
**الفصل الرابع: اللاهوت المسيحي إعلان عن الله ..... ٣٦**
أصل كلمة لاهوت ..... ٣٦
دور العقل في التراث اليوناني الوثني ..... ٣٦
اللاهوت في المسيحية ..... ٣٨
المبحث الأول : اللاهوت عند القديس أكليمنضس السكندري ١٥٠-٢٣٠م ..... ٤٠
المبحث الثاني: اللاهوت عند العلامة أوريجينوس ١٨٥ - ٢٥١م ..... ٤٣
النُّسك واللاهوت ..... ٤٦
بداية الطريق الروحي ..... ٤٧
التطهُّر بالنسك بداية المعرفة اللاهوتية ..... ٤٩
النوع الأول: ..... ٤٩
النوع الثاني: ..... ٥٠
المبحث الثالث: اللاهوت عند القديس أثناسيوس الرسولي ٢٩٦ - ٣٧٣م ..... ٥٢
المعرفة اللاهوتية المغروسة في طبيعة الإنسان ..... ٥٢
التجسد إعلان عن الله والإنسان في وقت واحد ..... ٥٣
المعرفة اللاهوتية لازمة لسعادة الإنسان ..... ٥٤
تجسُّد الكلمة هو بداية اللاهوت الحقيقي ..... ٥٥
دور أثناسيوس البارز ..... ٥٦
الحياة الروحية الصحيحة هي أساس معرفتنا اللاهوتية ..... ٥٨
اللاهوت، أو الثيئولوجيا يُدرك بالمقارنة بالهرطقات ..... ٥٨
الثيئولوجيا تدرُّج في فهم التدبير، والتدرُّج في فهم التدبير يقود إلى الثيئولوجيا ..... ٥٩
**الفصل الخامس: خصائص اللاهوت المسيحي ..... ٦٠**
تمهيد: ..... ٦٠
أولاً: المسيح مركز وقلب اللاهوت ..... ٦١
ثانياً: التجسد إعلان عن شخص الله ..... ٦١
ثالثاً: المعرفة والاختبار وحدة واحدة ..... ٦٣

رابعاً: ديناميكية العقيدة والحياة النسكية ..... ٦٩
قصة الحروف والروح ..... ٧٠
القسم الثاني: **التَّسليم** ..... ٧٣
**الفصل الأول: مصادر اللاهوت في الشرق** ..... **٧٤**
المبحث الأول: علاقة اللاهوت بالتاريخ ..... ٧٥
الغنوسية والاهتمام بالتاريخ ..... ٧٦
الأريوسية والنسطورية ..... ٧٩
التاريخ واللاهوت كوحدة واحدة ..... ٨١
المبحث الثاني: التسليم أو التقليد كمصدر أساسي للاهوت ..... ٨٦
التسليم هو الكلمة اليونانية "ΠΑΡΑΔΟΣΙΣ" ..... ٨٦
التسليم عند الرسول بولس: ..... ٨٩
**الفصل الثاني: الكتاب المقدس والتسليم** ..... **٩٤**
المبحث الأول: الآباء والتسليم ..... ٩٧
المبحث الثاني: حيوية التسليم ..... ١٠٠
التسليم الشفهي أو دور المعلم الكنسي ..... ١٠١
المبحث الثالث: هل يمكننا أن نتعرف على التسليم؟ ..... ١٠٥
نماذج من التسليم الشفوي في كتابات الآباء ..... ١٠٧
**الفصل الثالث: دور التسليم في حياة الكنيسة** ..... **١٠٨**
شمولية التسليم الرسولي ..... ١٠٨
المبحث الأول: التسليم والتفسير الصحيح للكتاب المقدس ..... ١١٠
١- القاعدة الأساسية لفهم الكتاب المقدس عند القديس إيريناوس ..... ١١١
٢- مجال الإيمان أو قاعدة تفسير الكتاب المقدس عند القديس أثناسيوس الرسولي ..... ١١٣
المبحث الثاني: الليتورجية مجال التسليم الرسولي ..... ١١٥
١- كيف يظهر التسليم الرسولي في الليتورجية؟ ..... ١١٦
٢- التسليم غير المكتوب والليتورجية ..... ١١٨
القسم الثالث: **اللَّاهوت في الشرق** ..... ١٢٠
**الفصل الأول: فروع علم اللاهوت في الشرق** ..... **١٢١**

تمهيد ..... ١٢١
تقسيم اللاهوت في الشرق ..... ١٢١
وحدة التدبير والثيئولوجيا ..... ١٢١
المبحث الأول: خصائص التدبير ..... ١٢٣
١- ملامح التدبير ..... ١٢٤
أولاً: لأجلنا ..... ١٢٤
ثانياً: أخلى ذاته ..... ١٢٤
٢- المبادئ التي تفسِّر التدبير ..... ١٢٦
أولاً: المسيح واحد لا ينقسم إلى لاهوت وناسوت، وابن الله وابن الإنسان ..... ١٢٦
ثانياً: المسيح، آدم الثاني أو رأس الإنسانية الجديد ..... ١٢٧
القاعدة الذهبية ..... ١٢٩
المبحث الثاني: المبادئ التي تفسر الثيئولوجيا ..... ١٣١
مثالٌ على علاقة اللاهوت السلبي باللاهوت الإيجابي ..... ١٣٣
**الفصل الثاني: علاقة التدبير بالثيئولوجيا ..... ١٣٤**
الموضوعات الأساسية في التدبير ..... ١٣٥
الأسرار هي أحد دعائم التدبير ..... ١٣٦

# الإهداء

إلى آباء وأساتذة الكلية الإكليريكية الذين سلَّمونا الإيمان الأرثوذكسي، ورحلوا عنا إلى عـــالم النور وانضموا إلى موكب الظافرين:

الأستاذ يسى عبد المسيح – أستاذ اللغة اليونانية والطقوس.

الأستاذ بقطر شحاتة – أستاذ تفسير الكتاب المقدس.

نيافة الأنبا ديوسقوروس أسقف المنوفية – أستاذ التاريخ الكنسي.

نيافة الأنبا صموئيل أسقف الخدمات العامة – أستاذ اللاهوت الرعائي.

لقد كنتم بحق آباء ومعلمين ومثالاً للصدق والأمانة والبذل ورجالاً أوفياء لله والكنيسة والوطن .. وعلى دربكم نسير ...

جورج حبيب بباوي

صدر في ١٥ مايو ١٩٨٢م

٧ بشنس ١٦٦٨ش

أسرة القديس كيرلس عمود الدين الإكليريكية

تذكار نياحة القديس أثناسيوس الرسولي

# مقدمة

نحتاج اليوم أكثر من قبل إلى كتاب عن تاريخ اللاهوت المسيحي، مع شرحٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية في شكلها التاريخي والروحي عبر العصور. ودراسة من هذا النوع تشبه تجديد ذاكرة الإنسان لكي يستعيد ماضيه، ويكتشف بذلك حاضره ومستقبله.

هذه الدراسة ألقيت في شكل محاضرات على طلبة وطالبات الكلية الإكليريكية بالقاهرة وطنطا، فجاءت كمحاولة لوضع الأساس اللاهوتي والتاريخي للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية، وعلى أساس آبائي، وفي إطار التراث الأرثوذكسي المصري الذي يمتد من أكليمنضس السكندري حتى العصر الحديث، فقد ساهم كل جيل في شرح العقيدة الأرثوذكسية وقدم أفضل ما لديه. هذا الشرح المتراكم، أصبحنا في حاجة شديدة إلى عرضه وهضمه، حتى يمكن أن نسهم نحن بدورنا في تقديم أفضل ما لدينا. ولذلك السبب نعرض الشروح المتوفرة عندنا، وحسب أدق المصادر المعترف بها عالمياً وأرثوذكسياً، وهي كتابات آباء الكنيسة الجامعة التي نُشرت في طبعات علمية مختلفة صدرت في باريس ولوفان وفيينا وأُكسفورد وكامبريدج وغيرها من كبرى الجامعات الغربية التي اهتمت بنشر التراث الشرقي، وضعت له جداول ومقدمات وتواريخ وضبطت نصوصه حسب أفضل المخطوطات المتوافرة والمعروفة التي لا يجرؤ أي باحث – يحرص على مستقبله العلمي – أن يعبث فيها بالحذف أو الإضافة أو اختراع نصوص لا وجود لها ... فكل شيء الآن معروف ومحصور وتحت أعين الباحثين الذين يتقنون أكثر من لغة قديمة ولا يملكون فرصة العبث أو التزوير؛ لأن ثمن العبث والتزوير باهظ جداً، ويكلف أي إنسان سمعته العلمية، كما أن هناك أيضاً النقد والمراجعة من الأساتذة والعلماء، فالمحاولة إذن محكوم عليها بالفشل.

وضعنا هذه الدراسة في مستوى القارئ العادي؛ لأنها دراسة تهدف إلى التعريف بالأصول وأقسام اللاهوت في الشرق والغرب. ولذلك لم نتوغل في التفاصيل التاريخية كثيراً، كما لم نعرض بإسهاب واستطراد الكثير من نصوص آباء الكنيسة واكتفينا بما هو منشور ومعروف، فلم نستعن بما ليس معروفاً إلاَّ في أضيق نطاق.

لقد تعوَّدنا في مصر ألاَّ نقرأ مقدمات الكتب وتعودنا ألاَّ نهتم بهدف الباحث، كما تعودنا على إطلاق الإشاعات والأقاويل وهو ما لم يتمكن أي كاتب في عصرنا من أن يفلت منه. وعندي أن الحرص على الحقيقة والمثابرة على تقديمها هو أفضل رد على الذين يملكون اللسان ولا يملكون البحث والقلم وهؤلاء ليس لهم مكان في الحياة وسوف ينساهم التاريخ تماماً.

ليعطِ إلهنا الصالح كل خير وبركة لصاحب النيافة الأنبا يوأنس أسقف الغربية ومـــدير الكليـــة الإكليريكية بطنطا الذي فتح قلبه وإيبارشيته للكلية الإكليريكية ليس كضيف وافد من القاهرة، وإنما في مكانها الطبيعي حيث الاحترام والمحبة والتقدير الذي رأيناه فيه هو أولاً وانعكس على الطلبة والطالبات فأحاطونا بمحبتهم وأعطونا أعز منزلة ليس في قلوبهم فقط، بل في بيوتهم أيضاً.

وإلى هؤلاء قبل غيرهم كتبنا هذه السطور كدين في أعناقنا وكتعبير عن محبتنا وتقديرنا لما رأيناه ولمسناه فيهم.

جورج حبيب بباوي

القسم الأول

# تعريفُ اللَّاهوت

# الفصل الأول

# نظرة معاصرة إلى
# "المسيحية بين ديانات العالم"

## ما هي العقيدة؟

لعل أفضل تعريف للعقيدة المسيحية هو أنَّ "العقيدة المسيحية مجموعة علاقات"، فهي علاقة بين الله والإنسان، وبين الإنسان وغيره من البشر وسائر المخلوقات. هي علاقة حياة بين أشخاص أحياء، وليست تأملاً في أفكار أو نشاطاً ذهنياً.

وإذا كانت المسيحية مجموعة علاقات، فإننا نستطيع أن نفهم العقيدة المسيحية في هذا الإطار، بل نكتشف دورها في الحياة الروحية لا سيما دورها في علاقة الله بالإنسان ودورها في علاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بغيره.

إذا كانت العقيدة مجموعة علاقات، فهذا يشرح لنا بكل وضوح الجانب العملي في العقيدة، وهذا الجانب العملي يؤكد لنا أن العقيدة ليست مجرد آراء أو نظريات، بل هي علاقة، والعلاقة ممارسة، والممارسة عادةً ما تكون بين طرفين، الطرف الأول هو الله والطرف الثاني هو الإنسان.

## أساس العقيدة:

تعتمد العقيدة المسيحية على أساسين هما:

١- إعلان الله عن نفسه.

٢- وجود علاقة كيانية بين الإنسان والله، وهي علاقة بين الأصل والصورة، فالله هو الأصل والإنسان هو الصورة.

وفي الحقيقة أن الأساسين هما واحد. فقد أعلن الله عن نفسه في إطار إمكانيات الإنسان التي أودعها الله فيه عندما خلقه على صورته، ولذلك يجيء هذا الإعلان لكي يرفع الإنسان ويقوده مباشرة إلى شركة مع الله.

## إعلان الله عن نفسه

إعلان الله عن نفسه هو – أصلاً – أساس العقيدة الدينية في كل الديانات، ذلك أن الديانات مهما اختلفت تتفق على حقيقة مؤكدة وهي أن "الإله يكشف عن ذاته"، قد يكون هذا الكشف أو الإعلان في صورة وحي أو صورة ظهورات، أو قد يأخذ أشكالاً أخرى ... ولكن الدين أي دين في جوهره هو علاقة مع الإله الذي يعلن عن ذاته.

وقد يكتفي دينٌ ما بالكلام عن فرائض الله وأحكامه، ويرفض تماماً الكلام عن ظهورات أو إعلانات إلهية، فبعض الأديان ترفض الكلام عن ذات الله، وغالباً ما يدور البحث فيها عن الشريعة فيكون الدين فرائض إلهية معلنة في كتاب يُكلَّف الإنسان بها.

ولذلك علينا ونحن ندرس ديانات العالم أن نتأكد من حقيقة هامة، وهي أن الموقف المسيحي الواضح في مجال العقيدة هو العلاقة بين الله والإنسان، وهي علاقة قائمة على أساس أن الله يكشف ذاته، ومن خلال علاقة شخصية.

وإعلان الله عن ذاته يعتمد بدوره على خصائص في الذات الإلهية، وهي المحبة والصلاح، وكلاهما يجعل الله دائماً مُعلناً عن ذاته للإنسان مقترباً من الحياة المخلوقة التي خلقها هو لكي يحقق الله الغاية من خلقها.

الإعلان عن ذات الله هو سبب وجود الإنسان في الدنيا، فالإنسان موجود لا لكي يعبد الله، وإنما لكي يعرف الله وبعد ذلك يعبده. ويعبِّر القداس القبطي عن هذه الحقيقة في عبارة لاهوتية قوية "لم تكن أنت المحتاج إلى عبوديتي، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك". وحاجة الإنسان إلى ربوبية الخالق هي حاجة أصلية في الإنسان تجعل الإنسان قادراً على أن يتعرف على الله لكي يتمكن من أن يشترك في الحياة الإلهية بالقدر الذي يساعده عليه كيانه كمخلوق. إذن، معرفتنا بالله هي أساس صلواتنا وأساس كل أسرار الكنيسة مثل المعمودية والإفخارستيا. نعرفه، نحبه، ثم نتذوقه على النحو الذي أخبرنا به الرسول يوحنا "نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً" (١يوحنا ٤: ١٩).

وحقاً إن الإنسان يحيا في مجالٍ مخلوق، ولكن لا يوجد تناقض مطلق يمنع العلاقة بين الاثنين. فالله يحفظ الفواصل التي تفصل بينه وبين الإنسان، وعندما يعلن عن ذاته، فهذا الإعلان لا يلغي الفوارق بين الخالق والمخلوق، ولكنه لا يجعلها الأساس الوحيد الذي تقوم عليه العلاقة.

ولو جعل الله الفوارق التي تفصل بينه وبين الإنسان الأساس الوحيد للعلاقة التي يريدها مع الإنسان لأصبح هذا إعلاناً عن الفوارق وليس إعلاناً عن ذات الله. ولذلك نرى في الكتاب المقدس حقيقة هامة مؤكدة، وهي أن الله ليس مثل الإنسان، وأنه ليس بَشر (لحم ودم = مخلوق)، ويكتفي

الكتاب المقدس بهذه الحقيقة الهامة؛ لأنه لا يحدِّث الإنسان عن الفوارق التي تفصل بينه وبين الله، وإنما عن الفرق الجوهري، ولا يجعل هذا الفرق الجوهري الأساس الوحيد للعلاقة لسببٍ واحد، وهو أن الإنسان سوف يكتشف في المستقبل حقيقة هذه الفوارق، ولكن من خلال الشركة لا من خلال الخوف أو الابتعاد عنه.

تعليم المسيحية الواضح يميِّزها عن ديانات العالم وهو يعتمد بشكل أساسي على أن الإنسان قادرٌ بحكم تكوينه على استيعاب الإعلانات الإلهية وإدراكها. ويعبِّر القداس القبطي عن هذه الحقيقة بقوله: "أعطيتني علم معرفتك"، وعلم معرفة الله أو اللاهوت هو اختبار يتذوق فيه الإنسان كيف تدخل معرفة الله في حياة الإنسان وتغيِّر من تكوين الإنسان الداخلي، وتؤهله لكي يتذوق الشركة مع الله "وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إلى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إلى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ" (٢كورنثوس ٣: ١٨).

لقد خلق الله الإنسان على صورته (تكوين ١: ٢٦ – ٢٧) لكي يتمكن الإنسان من أن ينعم برؤية الله ومعرفته، ولكن هذا التنعم برؤية الله قائم بشكل أساسي على اقتراب الله من الإنسان، فالله هو الذي يسعى، ولذلك لا تعرف المسيحية شقاء وشك رحلة التصوُّف وتعبها؛ لأن شقاء وتعب رحلة التصوُّف يتعارض بشكل جذري مع الإيمان بالنعمة.

## الإنسان صورة الله ومثاله

ونحن لن نناقش هذه العقيدة هنا، وإنما نكتفي بتأكيد حقيقة هامة، وهي أن صورة الله ومثاله تعني اقتراب الله من مجال الإنسان وفكره، ونؤكد هنا على أن الإنسان لا يحمل كل ملامح الأصل، فهذا مستحيل؛ لأن الأزلية والقدرة على كل شيء هما فوق طاقة الطبيعة الإنسانية واحتمالها، ويمكننا أن نضيف أيضاً الحكمة والمحبة، فالمحبة الإلهية أمر يفوق كل إمكانيات الطبيعة الإنسانية. فلا يملك الإنسان أن يحب كل الخلائق ويرعاها ويعطيها بشكل دائم، فهذه محبة مطلقة لا يمكن أن يمارسها الإنسان. ولذلك نؤكد دائماً أن الإنسان هو صورة الله بشكل نسبي أو بشكل مخلوق لا مجال فيه بالمرة للمشابهة الكاملة. وهذا يطرح علينا قضية هامة سوف ندرسها في وقتها، وهي الشركة في الطبيعة الإلهية، وعقيدة التبني في اللاهوت المسيحي (٢ بطرس ١: ٤).

وعندما يحمل الإنسان بعض ملامح الله، تظل هذه الملامح قنطرة العبور إلى الشركة مع الله، وبدونها يفقد الإعلان معناه وغايته.

## الإعلان والصورة

الله يدخل دنيا الإنسان، وهي دنيا خلقها الإنسان لنفسه، وحسب تعبير أغسطينوس المشهور: "لقد خلق الله الكون لنا، ولكننا بدورنا نخلقه مسكناً لنا"، فنحن خلقنا اللغة بكل ما فيها من جمال ومشاكل، وخلقنا لأنفسنا الكثير مما نراه في تاريخ الحضارة الإنسانية.

الله ليس بعيداً عن دنيا الإنسان التي خلقها لنفسه، بل هو يتنازل لكي يأخذ حروف الإنسان وكلماته ويصنع منها الوحي، وهذا ما سبق وذكرناه في البداية عندما حددنا أن العقيدة علاقة، وأن العلاقة ممارسة، والممارسة تقوم على ما يمكن أن يتحقق بين اثنين.

يخلق الله الإنسان على صورته، أي قادراً على التعبير والنطق "أعطيتني موهبة النطق"، وما ينطق به الإنسان يتحول إلى مجال يدخله الله ليأخذ منه ما يناسب الإعلان وما يخلق الرؤيا ...

والصورة الإلهية في الإنسان هي وحدها التي تجعل الكلام عن الله أو اللاهوت أمراً حلالاً (بالمعنى الدارج لكلمة حلال). فالكلام عن الله حرام لو كان خَلْق الإنسان يهدف إلى تأكيد الفوارق الإلهية والإبقاء على الهوة التي تفصل بين الخالق والمخلوق، ولكن ظاهرة الوحي في حد ذاتها هي دليل باهر على أن الله يسعى إلى الإنسان ويطلبه.

## نظرة موضوعية إلى ديانات العالم

لعل أول محاولة جادة لوضع دراسات موضوعية عن ديانات العالم كان في المعلومات التي جمعتها طائفة من العلماء، نُشرت تحت اسم موسوعة العقائد والأخلاق "*Encyclopedia of Religion and Ethics*" التي صدرت ابتداءً من عام ١٩٠٨، ثم أُعيد طبعها في عام ١٩٥٥. وهذه المحاولة تَمُتُّ إلى منتصف القرن العشرين، وقبل ذلك كانت كل دراسات الأديان المقارنة لا تعدو كونها مسودات أو محاولات للدراسة.

ومع الاهتمام بجمع المعلومات الدقيقة – كلما أمكن ذلك، ثم افتتاح أقسام لدراسات الأديان المقارنة، بدا من الواضح أن الخطوة الحاسمة هي البحث عن مقياس موضوعي أو عدة مقاييس تساعد الإنسان على أن يدخل مجال المقارنات.

كانت الطريقة القديمة التي سادت قبل القرن العشرين أن يهاجم كل إنسان عقيدة الآخر وديانته انطلاقاً مما يجده في ديانته وما يراه متعارضاً مع ديانته. كانت المقارنة تعني اكتشاف أخطاء الآخرين، لا من خلال دراسة موضوعية، بل من خلال تجريم عقائد الآخرين لمجرد أنها تختلف عن عقائد ديانتهم.

كانت هذه هي طريقة القرون الغابرة، وقد أدَّت دائماً إلى الباب المسدود، أي انعدام الصلة والحوار. ولكن جاء وقت اكتشف فيه الإنسان أن هناك عناصر مشتركة، وأن البحث لا يجب أن يقوم على طريقة التجريم، ذلك أن أحد قواعد أدب الحوار هو البحث عن الأمور الإيجابية واحترام عقائد الآخرين مهما كانت.

وكان من المفيد لكي تستمر الدراسة أن يجري البحث عن مقياس موضوعي، ذلك أن محاولة البحث جعلت مواصلة الدراسة أمر حتمي.

ومع بداية القرن العشرين كان الاتجاه إلى اعتبار أن الله كشخص، هو المقياس الصحيح للكلام عن صحة أية ديانة، غير أن تقدُّم الدراسات الخاصة للشخصانية "*Personalism*" أدَّى إلى عدم الاتفاق، ذلك أن مجال الدراسات الخاصة بالشخصانية هو بدوره متفرع، بل لا زال حتى هذه اللحظة قيد الأبحاث[١].

ونستطيع أن نقرر أن عدم وجود مقياس قد أدَّى بدوره إلى اتساع مجالات الأبحاث وساهم في خلق احترام كامل لعقائد الديانات.

## ما معنى غياب مقياس موضوعي في علم الديانات المقارنة؟

أول ما نراه بكل وضوح أنه علينا أن نأخذ كل ديانة كما هي، ومن خلال مصادرها، وأن نحكم عليها من مصادرها لا باستعمال مقاييس ديانة أخرى.

والأهم من كل هذا أن نرى الأهداف التي تسعى إليها كل ديانة، ففي هذه الأهداف توجد الإمكانية لعقد المقارنات. ولذلك السبب يمكننا أن نقول هنا إنَّ الديانات مشاريع، وإن كل ديانة تقدم مشروعاً قائماً على الله والإنسان.

وإذا حددنا اتجاه البحث في هذا الإطار أمكننا أن نتكلم عن المشروع المسيحي واهتمامه بالله وبالإنسان.

مشروع المسيحية قائم على أن الله هو الأصل، وأن الإنسان هو الصورة، وأن الإنسان يحمل ملامح من الله كما ذكرنا، ولذلك يرتفع المشروع المسيحي بناءً شامخاً يعتمد أول كل شيء على أرض ثابتة وهي الطبيعة الإنسانية كما خلقها الله، ويعتمد على خطة بناء، وهي تنازل الله وتجسده لكي يقيم الإنسان من سقطته ويعيد بناء حياته من جديد، هذه المرة ليس على أساس الطبيعة الإنسانية كما خلقها الله، بل على أساس الطبيعة الإنسانية كما قدَّسها الابن الكلمة.

---

(١) يمكن مراجعة الكتاب الممتاز "نظريات الشخصية" وهو يضم دراسة لواحد وعشرين مفكراً من علماء النفس والفلسفة – (القاهرة ١٩٧٨) ونظرة ممعنة إلى هذا الكتاب تؤكد أن الاتفاق على معنى كلمة "الإله كشخص" أمر مستحيل حالياً.

وكلما وقفنا عند هذه الفكرة البسيطة استطعنا أن نرى بكل وضوح الاتجاه الـــذي يجـــب أن نسلكه في كتاباتنا وفي شرحنا للعقيدة المسيحية.

الديانة المسيحية مشروع يؤهِّلنا – بشكل خاص – لأن ندرك الاتجاهات الروحية التي يجب أن نبتعد عنها وعلى سبيل المثال:

**١**– اتجاهات تؤكد وجود تناقض مطلق لا يمكن لله أو الإنسان عبوره، أي استحالة العلاقـــة، وهذا كوخٌ من الطين يسكنه الإنسان إلى الأبد.

**٢**– اتجاهات تؤكد أن إدراك الله هو عمل إنساني بحت، وهذا مشروع صغير محدود، يجعـــل محصلة سعي الإنسان هو طاقات الإنسان وحدها.

**٣**– اتجاهات تؤكد أن جوهر العلاقة هو الأحكام والفرائض التي تؤهـــل الإنســـان للســـلوك الفاضل في هذه الدنيا، وهذا اكتفاء بالجانب الأخلاقي وإهمال لكيان الإنسان الروحي.

**٤**– اتجاهات تصور علاقة الإنسان بالله على أنها عبودية محضة وبلا مجـــال للتطـــور خـــارج العبودية.

**٥**– اتجاهات تؤكد أن مصير الإنسان النهائي هو الذوبان في الله، وهذا يصور الله مثـــل قـــوة كبرى تلتهم كل الكائنات وتقضي عليها.

هذه الاتجاهات، تقوم على تصور علاقة الإنسان بالله على النحو الذي أشـــرنا إليـــه، وهـــي مشروعات محدودة لا تفتح أي آفاق روحية لتطور علاقة الإنسان بالله.

## المشروع المسيحي

إذا كانت العقيدة علاقة، فمن الواضح أن أقوى علاقة تقوم بين اثنين هـــي أن يحمـــل أحـــد الطرفين بعض صفات الطرف الآخر. وهكذا منذ البدء حمل الإنسان بعض ملامـــح الله كصـــورة لله، ولكنه نال بعد ذلك أعظم منحة من الله عندما تجسَّد الابن، إذ صار الابن إلهاً وإنساناً في شخص واحد، فصار بذلك المقياس الكامل للإلوهة لدى الإنسان، والصورة الكاملة للإنسانية لدى الله، أي الصـــورة الكاملة التي تعبِّر للإنسان عن حقيقة الإنسانية.

وما إتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح إلاَّ الهدف الأساسي للتديُّن الذي يصل فيه المشـــروع المسيحي إلى قمته، وهو أن يتَّحد الإنسان بالله على مثال إتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح "بـــدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"، إذ يظل الإنسان كما هو، والله كما هو.

وهكذا نرى بكل وضوح أن الإنسان في العصر الحديث لا زال في بداية الوعي بما تكوَّن لدى غيره من اتجاهات وعقائد، وأن عدم اكتشاف مقياس موضوعي أو عدم الاتفاق على مقياس موضوعي

تُقاس به صحة العقائد والديانات يقودنا إلى العبارة التي سادت في العصر الوسيط في أوربا وعادت إلى الظهور مرة ثانية في العصر الحديث: "أخبرني عن إلهك الذي تعبده، أخبرك مَن أنت". فالإله – أحياناً – صورة لما تكوَّن في عقل الناس وطموحهم الروحي ومخاوفهم. هذه الصورة أساسية لفهم التطرف الديني والاستغراق في الكسل وعدم العمل ... وهي ليست صورة للإله الحقيقي.

# الفصل الثاني

# ما هو الإيمان؟

## تمهيد

الله هو أكبر موضوع في اللاهوت المسيحي، واليوم مثل الأمس، فإن الإنسان مشغول بالله حتى في بلاد الرأسمالية أو الشيوعية أو دول العالم الثالث التي لم تستقر أنظمتها السياسية وفلسفتها القومية، وفي أعماق الإلحاد يقبع الشعور بغياب الله، أو محاولة التغلب عليه بالفكر والنظريات السياسية.

وفي أعماق الإنسان يقبع فساد التصور والأخطاء والانحرافات التي تستتر وراء الإيمان أو العقيدة مثل الكسل والتراخي، أو أفكار عن حقوق فئة من الناس بدعوى أنهم لا يشاركون الإيمان بالله، ولذلك فإن طريق دراستنا شاق، فعلى اليمين الشكوك، وعلى اليسار التهور وفساد الذوق الديني والصنمية التي أقامها الإنسان بديلاً "للإله الحي"، ولذلك سوف ندرس صور الإيمان ومعناها كما عرفها الإنسان، وكما استسلم لها الآن. إن استسلام الإنسان لصورة دون أخرى هو في الواقع ما نحتاج لدراسته أكثر من غيره، وقد يعشق الإنسان صورة عن قوة الله أو عن غضبه ويصبح من الضروري في مثل هذه الحالة لا أن ندرس معنى القوة الإلهية فقط، بل صورة هذه القوة عند المتديِّنين؛ لأن هذه الصورة كثيراً ما تكشف عن أمراض نفسية أو عُقَد معينة تظهر في الحياة الروحية للإنسان، فهي وحدها المكان والبيئة الصالحة التي تظهر فيها الانحرافات حيث لا خوف من القيود.

وليست هذه الدراسة جديدة تماماً، فقد سبقنا فيها آباء الكنيسة وقدَّموا عبر العصور الكثير من اللآلئ التي لا زال التراب يعلوها في دهاليز المكتبات، شهادةً على الكسل وانعدام التخصص.

ففي ميمر كُتب عندنا في مصر في نهاية القرن الثالث عشر تحت عنوان مثير "سقوط الخدام من الكهنة" يقول واضع الميمر: "ومتى كثر الكلام عن العقاب والدينونة، فاعلم أن الخوف دخل الجماعة، وأن الله لم يعُد مصدرُ فرحٍ للإنسان؛ لأن الإنسان عَدِمَ معرفته، فأصبح يخاف منه كما يخاف المرض والموت ... (ولذلك) فإن الكاهن الساقط الذي بلا معرفة، متى تحدَّث عن الله لا يعرف عنه الرحمة والمحبة بل الغضب، فإذا وصفه، أكثَرَ من استخدام اسم "الديان"، وأسقط الاسم المحبوب من الله نفسه وهو "الآب" ... وإذا قرأ الإنجيل لا يرى أسرار الملكوت لأن عينه مريضة، بل يرى الدينونة مقبلة، وقد

سَمِعتُ خادماً قرأ إنجيل معلمنا يوحنا الحبيب، و لم يُظهِر مِن معناه سوى الدينونة، وما سيحل من عقاب بالذين رذلوا ابن الله، ولما سألته عن الباركليت وتعزية الآب لنا في ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح صَمَتَ ونظر إليَّ بغضب بعد ذلك، وقال إن الدينونة أعظم من التعزية، ومَن لا يتعظ من الدينونة لا يتعظ من التعزية، فقلتُ له إن من يقدِّم نوعاً من الطعام دون غيره يُفسد حياة الخراف الناطقة ويجلب عليهم الهزال والموت، فقال لي إن سيدنا له المجد لم يتحدَّث إلاَّ عن طعام واحد وهو العقاب والدينونة التي تنتظر المخالفين، فقلتُ له إن رسل ربنا يسوع المسيح أخبرونا عن مخلصنا بأنه جاء محبةً ورحمةً. والإنجيل ما قال: "الله عذاب ودينونة"، بل "الله محبة". ولأنه ساقطٌ من درجته لا رجاء له، كان يجب إبطال خدمة هذا الكاهن الساقط إلى أن يعود إلى رجاء البنوة ويعلِّم تعاليم ربنا يسوع المسيح الصحيحة وكلمات التقوى الحقة ...".

وهكذا نرى أن كاتب ذلك الميمر يضع يده على نوعية الكارزين والخدام، وقد سجَّل لنا هذا الحوار كنوع وشهادة على أن الوعظ هو إعلان إيمان الواعظ.

# المبحث الأول

## الإيمان ... ماذا يعني في العهد القديم؟

أول مرة ظهرت فيها كلمة الإيمان ... كانت عن إبراهيم "فآمن إبراهيم بالله.." (رو ٤: ٣)، وكان محور الإيمان – كما هو واضح – الوعد بمجيء اسحق. كان الوعد هو محور الإيمان و لم يكن الإيمان هنا مرتبطاً بالغيبيات، فليس الإيمان والغيبيات من نوعٍ واحد، وليسا موضوعاً واحداً، وإنما العكس هو الصحيح.

فكل ما يقدِّمه العهد القديم من أمثلة أو تصريحات عن الإيمان، يرتبط بشكل مباشر بالوعود التي أعطاها الله وليس لها ارتباط بقوى الغيب مطلقاً، بل بالتاريخ، وهو أحداث يشترك فيها الله مع الإنسان للوصول إلى غاية محددة تبرز بكل وضوح في هذه الحياة وليس في الحياة الأخرى.

الإيمان هو ثقة بما سيحدث وانتظار لما سيفعله الله، أي ما وعد به، ولذلك يقول إشعياء: "وَفِي مُدَّةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً يَنْكَسِرُ أَفْرَايِمُ حَتَّى لاَ يَكُونَ شَعْباً... إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا فَلاَ تَأْمَنُوا" (إشعياء٧: ٨، ٩)، فما معنى الإيمان هنا..؟

النبي يؤكِّد نهاية أفرايم كشعب ويحدد المدة التاريخية، وبالتالي يقول إن لم تثقوا فيما أقول فلن يكون لكم أمان أو قدرة على الاحتمال؛ لأن الله هو مصدر الأمان وليس الشعب. بعد ذلك يقول عن سقوط أورشليم وعن اتكال الشعب على قوتهم العسكرية مؤكداً أنها سوف تُسحق: "هَئَنَذَا أُؤَسِّسُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ امْتِحَانٍ حَجَرَ زَاوِيَةٍ كَرِيماً أَسَاساً مُؤَسَّساً. مَنْ آمَنَ لاَ يَهْرُبُ" (إش ٢٨: ١٦)، وهو نصٌ دخل العهد الجديد بعد ذلك عن المسيح، وصار معنى الكلام عن الإيمان هنا مَن آمن لا يمكنه أن يهرب، بل يظل في أورشليم في انتظار الخلاص.

فليس هذا غيباً، بل ثقةً تتحول إلى عمل، وليس هذا فكراً، بل حياةً وتصرُّف. ويشرح مزمور (٤٠: ١ – ٦) معنى الثقة، فهي انتظار، ولكنه انتظار الاتكال على المواعيد الإلهية: "اِنْتِظَاراً انْتَظَرْتُ الرَّبَّ فَمَالَ إِلَيَّ وَسَمِعَ صُرَاخِي.... وَجَعَلَ فِي فَمِي تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً" (مز ٤٠: ١ – ٣). وهو انتظار الحياة "طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي جَعَلَ الرَّبَّ مُتَّكَلَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الْغَطَارِيسِ (كبرياء الإنسان الباطلة) وَالْمُنْحَرِفِينَ إِلَى الْكَذِبِ" (مز ٤٠: ٤). فمع الانتظار يرى الإنسان تحقيق المواعيد الإلهية دون أن يكون

لديه صورة واضحة عن طريق الخلاص "كَثِيراً مَا جَعَلْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهِي عَجَائِبَكَ وَأَفْكَارَكَ مِنْ جِهَتِنَا. لاَ تُقَوَّمُ لَدَيْكَ. لأُخْبِرَنَّ وَأَتَكَلَّمَنَّ بِهَا. زَادَتْ عَنْ أَنْ تُعَدَّ" (مز ٤٠: ٥ – ٦).

ومزمور ٤٦ هو قطعة فريدة عن الإيمان، فهو يؤكد عدم الخوف بسبب وجود الله في وسط أورشليم، ورغم أن الأمم والشعوب تزمجر ضد المدينة إلاَّ أنها لن تسقط، ولا حتى في هجمة الصباح. ويوجد شبه إجماع على أن المزمور هو نشيد حصار سنحاريب حوالي سنة ٧٠١ ق.م. (٢ ملوك ١٩: ٣٥، إشعياء ١٧: ١٤)، وبالتالي هذا ليس كلاماً غيبياً، بل الوعد الذي قطعه الرب، ولذلك فإن كلمة إيمان تساوي كلمة ثقة، وكلمة ثقة تساوي تحقيق المواعيد، وهذا بدوره يعني أحياناً الانتظار (مزمور ٥٦: ٢ – ٤، مزمور ٩١).

## الإيمان والمواعيد .. نموذج في الواقع وليس مجرد مبدأ

إذا كان الإيمان ثقةً، إذن نحن لا نرى في العهد القديم نظريات أو مبادئ، بل نماذج حية. ونموذج الخلاص الأساسي، بل المقياس الذي تقاس به كل الأمور، هو الخروج من أرض مصر، ولذلك فإن الإيمان والتسبيح أو أغاني الخلاص قائمة على ما يفعله الله "آبَاؤُنَا فِي مِصْرَ لَمْ يَفْهَمُوا عَجَائِبَكَ. لَمْ يَذْكُرُوا كَثْرَةَ مَرَاحِمِكَ فَتَمَرَّدُوا عِنْدَ الْبَحْرِ عِنْدَ بَحْرِ سُوفٍ. فَخَلَّصَهُمْ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ لِيُعَرِّفَ بِجَبَرُوتِهِ. وَانْتَهَرَ بَحْرَ سُوفٍ فَيَبِسَ وَسَيَّرَهُمْ فِي اللُّجَجِ كَالْبَرِّيَّةِ. وَخَلَّصَهُمْ مِنْ يَدِ الْمُبْغِضِ وَفَدَاهُمْ مِنْ يَدِ الْعَدُوِّ. وَغَطَّتِ الْمِيَاهُ مُضَايِقِيهِمْ. وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمْ يَبْقَ. فَآمَنُوا بِكَلاَمِهِ. غَنُّوا بِتَسْبِيحِهِ" (مز ١٠٦: ٧ – ١٢). وما نراه في المزمور نراه يسجَّل بنفس الطريقة في سفر الخروج "فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ.... فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى" (خروج ١٤: ٣٠، ٣١).

ولذلك، ففي كل أوقات الشدائد والخوف يرى شعب الله في أعمال الخلاص التي صنعها الرب العلامة الظاهرة الواضحة على صدق المواعيد الإلهية وعلى حقيقة مؤكدة هي أنه إذا كان الله قد فعل هذا في الماضي، فهو لن يتردد في أن يعمل من جديد مثلما كان يعمل في القديم (مزمور ١١٦).

ويربط الإيمان أحداث الخلاص بالوصايا الإلهية فهي جزء من الميثاق أو العهد[1]، ولذلك فهي ليست مبادئ أخلاقية نافعة لتنظيم الحياة، بل جانب من العهد بين الله والإنسان يلتزم بها الإنسان بسبب ثقته في الله؛ ولأنها تعبير عن طاعته لله وخضوعه لسيادة الله.

---

(1) راجع معنى العهد في دراستنا للقداس الباسيلي، منشور على موقع coptology.com.

## الإيمان والتاريخ

إن من يدقق النظر في العهد القديم يرى بوضوح شديد أن الإيمان يحمله أشخاص مثل إبـــراهيم وإسحق ويعقوب، ثم الملوك مثل داود ثم الأنبياء ...

هؤلاء جميعاً ليسوا مجرد شهود فقط على الإيمان، بل يشتركون في أحداث الخلاص. وكلـــهم يمثلون حلقات مترابطة، تبدأ حلقات صغيرة وهي الوعد لإبراهيم، ثم تكبر الحلقة عند يعقوب، وتصبح أكبر عند موسى وتصل إلى أقصى الاتساع عند داود، ولكن هذه الحلقات ليست قائمة على الإيمـــان بمبادئ، وإنما إيمان بمواعيد تتحقق في التاريخ. ولذلك، فإن العهد القديم ليس سجلاً لأحداث، بل هـــو سجل لتاريخ مترابط قائم على صدق مواعيد الله التي تَّمت، ثم ستتم بشكل آخر أعظم في الزمان الكامل أي العهد الجديد (ملء الزمان).

وكانت الأعياد – لا سيما أكبر عيد وهو عيد الفصح – مناسبات اعتراف بمـــا حـــدث في التاريخ واستعادة للحدث نفسه وبما سيحدث بعد ذلك .. (راجع تثنية ٢٦: ١ – ١١). وهنا يعتـــبر العيد احتفالاً إيمانياً بمواعيد الله، وعلينا أن نلاحظ نفس الشيء بالنسبة للوصايا العشر "«أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي" (خـــروج ٢٠: ٢ – ٣). فالوصية تأتي من واقع الحدث التاريخي الذي يمثل رفض الوثنية كفكرة غير تاريخية. فالإيمان بالإله الواحد هو اختبار تاريخي عاشه الشعب ورآه بعينه، والإله الواحد هنا هو الإله المُخلِّص الذي أخـــرج الشعب من بيت العبودية، فهو ليس مبدأً، بل هو حقيقة واقعة، ولذلك فإن الوصايا العشـــر ليســـت مجموعة أوامر ووصايا أخلاقية فقط، بل حقائق يعيشها الشعب كجماعة مترابطة.

وحتى في محنة الإيمان، وتدهور الشعب إلى السبي يقول حزقيال: "حَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِنِّي بِيَدٍ قَوِيَّةٍ وَبِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ ... وَأُخْرِجُكُمْ مِنْ بَيْنِ الشُّعُوبِ, وَأَجْمَعُكُمْ مِنَ الأَرَاضِي الَّتِي تَفَرَّقْتُمْ فِيهَـــا بِيَدٍ قَوِيَّةٍ وَبِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ ... وَآتِي بِكُمْ إِلى بَرِّيَّةِ الشُّعُوبِ وَأُحَاكِمُكُمْ هُنَاكَ وَجْهـــاً لِوَجْـــهٍ. كَمَـــا حَاكَمْتُ آبَاءَكُمْ فِي بَرِّيَّةِ أَرْضِ مِصْرَ ...." (حز ٢٠: ٣٣ – ٣٦). فالحدث القديم وهو الخروج يصبح نموذج الخلاص الآتي في المستقبل، وهو ما يجعل لغة حادثة الخروج هي اللغة الغالبة في نبوءة إشعياء (ص ٤٥ إلى ٥١)، فالعطاش هم صدى لتجوال البرية .. وذلك يقول إشعياء: "اِسْتَيْقِظِي اسْتَيْقِظِي! الْبِســـي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! اسْتَيْقِظِي كَمَا فِي أَيَّامِ الْقِدَمِ كَمَا فِي الأَدْوَارِ الْقَدِيمَةِ....أَلَسْتِ أَنْتِ هِيَ الْمُنَشِّـــفَةَ الْبَحْرَ مِيَاهَ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ الْجَاعِلَةَ أَعْمَاقَ الْبَحْرِ طَرِيقاً لِعُبُورِ الْمَفْدِيِّينَ؟" (إشعياء ٥١: ٩ – ١٠).

فهل يمكن بعد ذلك أن نقول إن الإيمان هو ثقة بغير المنظور أو الغيب؟ أم أنه إيمان له قاعدة في التاريخ وهي أعمال الله العظيمة؟ .. هذا نراه أيضاً في الإصحاح التاسع من نبوة إشعياء، وهو الـــذي

ينبئ عن مجيء المسيح (إشعياء ٩: ٦ – ٧)، فيضع هزيمة مديان أمام جدعون كحدث تاريخي يشـــرح الوعد بمجيء النور والحياة والخلاص (إشعياء ٩: ٤ – ٥).

من كل هذا نصل إلى الحقيقة، وهي أن الإيمان بالله في العهد القديم هو إيمان قائم على أحداث وليس على مبادئ مجردة بلا لحم ولا عظام ... بل مبادئ متجسدة في الواقع الحي وهذا جانب أساسي علينا أن لا ننساه في خضم الدراسة.

الإيمان قائم على إعلانات الله في التاريخ، وهذه الإعلانات هي مواعيد تتحقق في الحياة علـــى هذه الأرض وبذلك يصبح الإيمان هو جوانب الإنسان على ما عمله ويعمله الله.

## المبحث الثاني

# الإيمان ... ماذا يعني في العهد الجديد؟

الفعل اليوناني يؤمن "πιστευω" يعني يثق ... يتكل ... يصدق أو يؤمن، وعلينا أن نستعرض معاً جوانب الإيمان في العهد الجديد.

إن ما ذُكر بخصوص الإيمان في العهد القديم ينطبق تماماً على العهد الجديد، ذلك أن الاستمرار اللاهوتي بين العهدين هو أمر واضح جداً لمن يدرس بعناية، ومع استمرار الخط اللاهوتي الواحد علينا أن نتذكر دائماً أن العهد الجديد لا يتفق تماماً مع العهد القديم رغم الوحدة التي تربط بينهما وتجعلهما كتاباً واحداً. ورغم الفوارق، إلاَّ أن الإيمان في العهد الجديد قائم بدوره على نموذج في الواقع أي في التاريخ، إنه ليس إعلاناً عن مبادئ عامة، بل تاريخ وأحداث، وأهم الفوارق بين العهدين هي:

**أولاً**: لم يعُد في العهد الجديد نماذج للخلاص، بل نموذج واحد، وهو المسيح الإله المتجسد والمصلوب والقائم من بين الأموات. هذا عنصر جوهري وهام لا يمكن أن ننساه؛ لأن الإنسان المسيحي في كل ما يذكره أو يقوله، إنما لديه النموذج الكامل لما يريده، وهو حياة المسيح، وحياة المسيح أحداث مترابطة يجمعها شخص واحد هو الذي يعطي في شخصه معاني الأحداث وكمثال لذلك:

"التجسد – المعمودية – التجربة على الجبل – المعجزات – الصليب – القيامة"، كل هذه الأحداث لا معنى لأي منها منفرداً، وهي عندما تستخدم في العهد الجديد، إنما تستخدم معاً لتحديد الإيمان كإعلان في التاريخ عن حضور الله المتجسد.

**ثانياً**: يمكننا أن نقول إن التاريخ لا زال هو التاريخ مثل العهد القديم لأن المواعيد تنالها الجماعة أو بعض الأفراد، ولكنها تصبح نافذة أو تتحقق بشكل واضح في الإنسان الداخلي.

فالمسيحي لا يعبر البحر الأحمر، وإنما يعبر المعمودية. وهو لا يعبر الأردن إلى أرض الموعد، وإنما يعبر الأردن الجديد، أي المعمودية لكي يدخل الأرض كلها، وهي تلك التي أشار اليها السيد قبل صعوده: "اذْهَبُوا إلى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا" (مر ١٦: ١٥). ولا يملك المسيحي في أرض كنعان، وإنما في ملك الأمم حيث يقيم الرب كنيسته التي تجمع كل الأمم، ولكن هنا يجب أن

نلاحظ بكل دقة أن مواعيد الإيمان تتم في الكنيسة، في الجماعة التي ليست هي جماعة مجـــردة يجمعهـــا شعار أو رمز غيبي، بل المذبح الواحد، حيث تنسكب حياة المسيح في الجماعة في الإفخارستيا.

**ثالثاً:** تقلُّص دور الكلمة في العهد الجديد عن دورها في العهد القديم، والسبب في ذلك هـــو التجسُّد، فلم تعد الكلمة صاحبة الدور الأول كما نراه في العهد القديم؛ لأن الأسرار جاءت لكي تجعل الإنسان يتذوق بالقول والفعل ما يعلنه الله. لم يكن في العهد القديم أسرار، وإنما جاءت أسرار العهـــد الجديد لا لكي تقضي على الكلمة، بل لكي تُصنع الأسرار بالكلمة، ولكن الإنسان لا يتذوق الأســـرار في الكلمة، وإنما الكلمة في الأسرار، والفرق بين الوضعين هو فرق بين مَن يسمع عن طعـــام جديـــد ويعرف نوعه وطريقة إعداده، هذا هو من يتذوق أسرار الله في الكلمة، وبين مَن يمد يده ويذوق الطعام فعلاً ويعرف أن ما سمعه صحيح، وهذا هو من يتذوق الكلمة في الأسرار. وقد أدى هـــذا إلى ترتيـــب القداس الإلهي على النحو المعروف من بداية عصر الرسل، وهو أن تسبق الكلمةُ (قداس الموعـــوظين) الأسرارَ (قداس المؤمنين)، ومتى تذوق المسيحي أسرار الله عرف أن الكلمة صادقة ومستحقة لكل قبول.

لذلك فإن الإشارة إلى الكتاب أو إلى كلمات الأنبياء في العهد الجديد هي إشارة محـــددة إلى أحداث الخلاص، وليست إشارة إلى فكرة أو مبدأ، والخطأ هو أن يتحول الحدث إلى كلمات، ففـــي العهد الجديد يتحول الحدث إلى "سر" تخدمه الكلمة، لكنها لا تصبح هي جوهر الإيمان في المســـيحية، فالإنسان اليهودي يتغذَّى بالكلمة، أما المسيحي فيتغذَّى بالكلمة التي تصير سراً .. وعلى سبيل المثـــال يذكر إنجيل يوحنا عن التلاميذ أنهم "آمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع" (يوحنا ٢: ٢٢). ولكن متى دققنا في النص نجد أن الإيمان بالكتاب وبالكلام هو "عن هيكل جسده"، فلما قام مـــن الأمـــوات تذكر تلاميذه أنه قال هذا فآمنوا بالكتاب.

وهذا يصحح انحرافاً ساد عندنا ويكاد يجعل الإنجيل مجرد كلام عن المسيح ويحوِّله إلى فكـــر لا علاقة له بالواقع ... بينما الإنجيل هو الأسرار، هو الخبر السار أو الطيب الذي جاء يكـــرز بالحـــدث العظيم الذي وضع نهاية لكل خيال الإنسان عن الله المتعالي.

الكلمةُ صار جسداً، ولذلك فالوحي في المسيحية هو حياة تُعلَن في أسرار الخلاص حيث يمارس روح الوحي دوره في تصحيح الأخطاء وفي كشف الأسرار وإعلانها للإنسان.

لقد وضعنا هذه النقاط الثلاث كتحذير من أخطاءٍ شائعة عندنا، ولذلك فهي لمقاومة انحرافات دون أن تكون هي في حد ذاتها جوانب الإيمان في العهد الجديد، ولأن الإيمان والغيبيات صارا عنـــدنا موضوعاً واحداً، أصبح من اللازم أن نطهِّر عقولنا لكي نتمكن من استيعاب حقيقة الإيمان.

**ماذا تعني هذه الأفعال في إنجيل يوحنا: يسمع – يؤمن – يقبل – يحب؟**

ولأن السمع هام جداً في اللغة العربية، فهي لغة الشعر والخيال، وهي لغة مسموعة أكثر منها مقروءة، ومع الاهتمام بالحفظ – كما يقولون عن ظهر قلب – أصبح من اللازم أن نهتم بتصحيح دقيق لاستخدام فعل يسمع، واخترنا إنجيل يوحنا كمَثل، وهو أكثر الأناجيل تأكيداً لحقيقة التجسُّد، فكيف يمكن أن نفهم السمع والإيمان؟ .. هل هو سمعٌ وإيمانٌ بأمور غيبية؟ ... أم أن الأمر غير ذلك؟:

**أ**- يسمع تعني يَقبَل، ويقبل هي يؤمن، ونرى هذا بوضوح في النصوص الآتية: "يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون" (يوحنا ٥: ٢٥). ونلاحظ أن السمع في (ص ٦) = الإيمان، "فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا إن هذا الكلام صعب .. من يقدر أن يسمعه" (يوحنا ٦: ٦٠). ثم لاحظ بدقة "لماذا لا تفهمون كلامي ... لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي" (يوحنا ٨: ٤٣)، "كلامي لا موضع له فيكم" (يوحنا ٨: ٣٧)، "كل من هو من الحق يسمع صوتي" (يوحنا ١٨: ٣٧).

**ب**- يأتي أو يَقبَل أي يؤمن، يمكن أن نميز هذا بدقة "لستم أنتم تؤمنون به" (يوحنا ٥: ٣٨)، ثم بعدها "ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة" (يوحنا ٥: ٤٠)، "فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة من يقبل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً ... من يقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً" (يوحنا ٦: ٣٥، ٣٧)، ويتأكد المعنى أكثر "لا يقدر أحد أن يقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني" (يوحنا ٦: ٤٤)، ثم وقف يسوع ونادى قائلاً: "إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب من آمن بي ..." (يوحنا ٧: ٣٧، ٣٨).

**ج**- وطبعاً يصبح من الواضح أن يَقبَل = يأتي = يحب، ولعل النقطة الخاصة بالمحبة هي أهم نقطة "لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من عند الله وأتيت" (يوحنا ٨: ٤٢)، وقارن (يوحنا ٨: ٤٢) مع (يوحنا ٨: ٤٣) ثم (يوحنا ١٦: ٢٧).

**د**- وأخيراً قبول كلام المسيح = قبول المسيح نفسه، "وبينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون، فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي" (يوحنا ٨: ٣٠-٣١)، "من رذلني و لم يقبل كلامي فله من يدينه" (يوحنا ١٢: ٤٨).

وطبعاً قبول الكلام = الإيمان، وبشكل ظاهر جداً "لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم وهم قبلوا وعلموا يقيناً أني خرجتُ من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني" (يوحنا ١٧: ٨)، ثم ذلك النص المشهور "وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً ... أي المؤمنون باسمه" (يوحنا ١: ١٢)، ثم قارن مع (يوحنا ٥: ٤٣).

**الخلاصة:**

من هذا نتأكد أن الإيمان ليس سوى قبول المسيح، وقبول المسيح هو قبول كلامه، أمَّا كلامه فهو ما أعلنه وما شهد به عن الآب وعن نفسه.

هذا يخُرِج الإيمان تماماً عن حيز الفكر النظري إلى حيز الفكر الاختباري، والفرق بين الاثنين أشبه بالفرق بين من يرى مسرحية وينفعل بها وينقدها ويقيِّمها ثم ينسى كل شيء بعد ذلك، أمَّا الفكر الاختباري فهو الحياة التي تسعى خلف المسيح لكي تتذوق ما سبق وأعلنه ويلتزم الفكر فيها باختبار صدق إعلانات المسيح وصحتها – ليس بالقياس النظري، بل بإدراك عقلي على ضوء اختبار الحياة نفسها بأن قول الرب صادق وصحيح. وطبعاً سوف نرى في الدراسة القادمة كيف يتقدَّم الإنسان خطوة فخطوة إلى إدراك أسرار الله وتذوُّقها على صعيد الحياة الداخلية لكي يسمع ويَقبَل مستنداً على ما ناله من هبات الله.

فالإيمان يُولد في أحداث الخلاص، وهو خبرة قائمة على لقاء بين الله والإنسان. كان الإيمان قائماً على مواعيد سوف تتحقق في المستقبل، وجاء المستقبل أي العهد الجديد، وصار الإيمان يتطلع إلى كماله في المستقبل أيضاً وهو القيامة وحياة الدهر الآتي.

لكن من الأمور الهامة التي يجب أن نحرص عليها هو أن نرد الإيمان إلى أساسه التاريخي الذي شُيِّد عليه. فالأساس يكشف عن متانة البناء وغايته. والأساس التاريخي هي الأحداث التي حدثت وتؤكد أن طاعة الإيمان عند إبراهيم كانت الخروج من أور الكلدانيين. وطاعة الإيمان عند موسى هي دخول أرض كنعان. أمَّا طاعة الإيمان في العهد الجديد، فهي قبول الصليب شريعة سلوك وحياة. والعودة دائماً إلى الأحداث تشرح ليس فقط أساس الإيمان التاريخي، بل معنى الإيمان وغايته.

# الفصل الثالث

# العلاقة مع الله من خلال الصلوات والطقوس

إذا كان الإيمان مشيداً على أحداثٍ تاريخية، فالطقوس تُصنع من هذه الأحداث. والمثال الواضح هنا هو الحدث العظيم للخروج الذي منه صُنعت طقوس عيد الفصح. وطبعاً من السهل علينا أن نرى كيف صار خبز الفطير والأعشاب المرة وغيرها من التفاصيل المعروفة، أساس الاحتفال الدائم بالخلاص في العهد القديم.

هنا الطقس والإيمان لا يمكن فصلهما مطلقاً مهما حاولنا؛ لأن الإيمان، هو إيمان احتفالي، هو عودة إلى مواعيد الله وأعماله والاحتفال بها.

وما ذكرناه بخصوص العهد القديم، ينطبق على العهد الجديد مع فارق هام وأساسي، وهو أن الطقوس مأخوذة من حياة المسيح نفسه، مثل الماء في المعمودية، والخبز والخمر في الإفخارستيا.

وإن كان اليهودي يحتفل بالخروج من مصر بالخبز والأعشاب المرة والخمر، ويحتفل وهو قائم فعلاً في الأرض التي حلف الله أن يعطيها لإبراهيم، فالمسيحي يحتفل بالخروج من الموت إلى الحياة بقيامة المسيح، والمسيحي يحتفل في العهد الجديد بما تحقق في المسيح يسوع الحاضر دائماً في وسط الجماعة.

## سؤال

**١**- ما هي حقيقة الصلاة وإلى أين تقودنا الطقوس؟

**٢**- هل الصلاة مجرد كلام مع الله أم أنها تحوُّل داخلي في حياة الإنسان؟

**٣**- وهل يمكن فصل الصلاة عن الطقوس؟

ألا نرى أن الصلاة هي جانب جوهري من الاحتفال بأحداث الخلاص. هل يمكن أن تكون المزامير سوى تسبحة شكر على أعمال الله، وهل يمكن أن يكون القُدَّاس غير الاحتفال بما أعطاه المسيح؟

في القداس نحن نتحول من أفراد إلى جماعة واحدة، وهذا هو مدلول هذه العبارة في القداس الباسيلي: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك لكي نكون جسداً واحداً"، أليست هذه حالة تحول؟ وهناك حالة تحول أخرى وصفها المسيح في العظة على الجبل حينما أعطانا صورة

واضحة للآب، وقدَّم بعد ذلك نموذج الصلاة، وهي بدورها حالة تحول داخلي من العبودية إلى البنوة ومن كراهية الناس إلى طلب المغفرة لهم ولنا.

والسؤال الأول هام جداً، ذلك أن المسيحية وحدها هي التي تنفرد بالكلام عن تحوُّل كيان الإنسان، فهو يتحول من فرد إلى شخص، ومن حالة العزلة إلى حالة الشركة في الكنيسة، في الصلاة وفي كلمة الله، وفي الأسرار، فالصلاة والطقوس هي جسم العقيدة.

والسؤال الثاني يجيب بشكل أساسي على السؤال الأول ويحدد حقيقة الصلاة من خلال اكتشاف دورها الفعال في حياة الفرد وفي حياة الكنيسة. هذا الدور يعني بشكل مباشر أن الطقوس ليست علامات أو إشارات خارجية، وإنما هي بكل تأكيد علامات على ما يحدث، وإشارات لما يتحقق فعلاً، ولولا وجود حقيقة روحية حاضرة لما وُجدت الطقوس، فهي تعبير عن التحول الذي يحدث في وسط الجماعة، ومن هذه الزاوية وحدها يمكننا أن ندرس طقوس الكنيسة ونؤمن بأهميتها الروحية.

وإذا درسنا السؤال الثالث اكتشفنا إلى أين تقودنا العقيدة المسيحية، فهي تقودنا إلى البنوة وإلى إدراك حقيقة أبوة الله لنا، ولذلك فإنه لا توجد مواقيت خاصة بالصلاة في المسيحية يجوز فيها الصلاة وأخرى لا تجوز فيها الصلاة مثل العهد القديم، وحتى صلوات السواعي أو الأجبية هي في جوهرها صلوات في مناسبات الخلاص وتقوم على إعلانات المحبة الإلهية في نزول الروح القدس في الساعة الثالثة، أو صلب المسيح وموته في السادسة .. إلخ. ومع ذلك ليست هذه فروض، بمعنى أن يصبح الإنسان مذنباً إذا تجاوز الصلاة و لم يؤدها في ميعادها المطلوب.

إن حقيقة بنوة الإنسان لله قائمة على عقيدة الثالوث، وبدون هذه العقيدة لا يمكن أن نتكلم عن الإنسان كابن لله. هذه الحقيقة هي التي جعلت الصلاة في المسيحية لا تأخذ شكل الفريضة أو الواجب الذي يجب أن يؤدَّى وإلاَّ عاقب الله الإنسان.

ونفس الحقيقة، أي بنوة الإنسان لله، هي التي جعلت المسيحية تخلو من الطقوس الخاصة بتطهير الجسد كما في اليهودية؛ لأن الإنسان وقد نال مرتبة البنوة من الله في المسيح يسوع لا يحتاج إلى اغتسال يقرِّبه من الله ويجعله قادراً على الصلاة، وإنما الذي يجعله قادراً على الصلاة هو موقفه من الله وعلاقته بالله في المسيح يسوع.

هذا كله جعل الصياغات اللفظية للصلوات المسيحية فريدة وخاصة بالمسيحية، مما يجعل اكتشاف الصلوات المسيحية سهلاً وميسوراً لأنها حافلة بمضمون معين ظاهر جداً.

وبنوة الإنسان لله تجعل موضوع التقديس وطلب النعمة الإلهية من الموضوعات الأساسية في الصلوات المسيحية، ولذلك نحن نسأل الله التقديس وهو نعمة الله غير المخلوقة، أي النعمة التي تنحدر منه مباشرة، ولذلك عندما نتقدس بعمل إلهي مباشر يؤكد هذا أن اشتراك الله في حل مشاكلنا الروحية

هو اشتراكٌ مباشر. ولذلك تعبِّر الطقوس عن هذه الحقيقة عندما توجه نظرنا إلى ما يجري أمامنا من انسكاب مباشر لنعمة الله لا سيما في الأسرار الكنسية.

وكأننا يمكننا أن نرى شريحة الصلاة والطقوس، فإذا هي مكونة من التدخل الإلهي في حياتنا وهو التدخل الذي حوَّل الإنسان من عبد إلى ابن. هذا التدخل قائم على حقيقة تنازل الله وتجسده وصلبه وقيامته وحلول الروح القدس، ولذلك تظهر هذه الإعلانات الإلهية كمحور أساسي في الصلاة المسيحية يدور حولها موضوع تحول الفرد والكنيسة. هذا هو لب وجوهر القداس، وهو ما يجعل القداس الصلاة النموذجية أو المثالية في الكنيسة حيث تتجلى وحدة العقيدة والطقوس في الصلاة.

## العقيدة والصلاة والطقوس

مما سبق ندرك أن العقيدة وهي نسيج الحياة مع الله والعلاقة به، هي محور الصلاة والطقوس. هذه العقيدة في جوهرها دعوة لتجديد الإنسان وتغيير كيانه، ولذلك لا نستطيع أن نرى عقيدة من عقائد المسيحية إلاَّ وهي إحدى مكونات الإنجيل (الخبر السار) الذي جاء من عند الآب السماوي. هذه النظرة تمكننا من أن نكتشف وضع المسيحية الفريد ونراه بكل وضوح في أن المسيحية لم تقف عند إعلان أنبياء إسرائيل عن وحدانية الله، بل تقدمت إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو أن الإله الواحد قد دخل في شركة مع الإنسان وصارت هذه الشركة محور الصلاة والطقوس.

التوحيد بالشكل القديم لا يساهم في تكوين صلوات، بل يقف عند مستوى روحي معين، وهو أن يوجه الإنسان صلاته إلى الله وحده، دون أن يساهم هذا في صياغة الصلوات نفسها أو حتى في إضافة قوام روحي لها.

ومن هنا يمكننا أن نطل على العهد القديم بكل شكر على الوضع الممتاز الذي أتت به المسيحية، وسوف نرى في الفصول الآتية أن صعوبة المسيحية قائمة على طريقة العرض وتقسيم العقيدة والحياة الروحية، وهو ما جعل الكثير من العقائد يبدو عندنا غامضاً بينما العقائد هي أناشيد وصلوات لأنها إعلانات المحبة الإلهية، وحقيقة شركة مع الله، وقد عبَّر متصوف قبطي عن هذه الحقيقة في نص صلاة قديم يقول فيه:

**– يا محب البشر يا من قبلتنا إلى الأبد عندما تنازلت وتجسدت، وأخذت طبيعتنا لكي تؤهلنا للإتحاد بك.**

**– في الأردن اعتمدت وأخذت المسحة لكي نأخذ نحن شركة في مسحتك بالروح القدس، ومن خلال معموديتك صار لنا شركة مع الروح القدس.**

**– في البرية سحقت الشيطان لكي تدوس أقدامنا فيك، أي في قدميك، رأس الحية القديمة.**

**– صُلبتَ على الصليب لكي ينفذ الموت فيك فتحوِّل عقوبة العصيان إلى قوة حياة بالقيامة، حقاً قمتَ يا سيد وقهرتَ الفساد لكي تفيض الحياة من القبر بعد أن كان القبر يبتلعها.**

**– وصعدتَ إلى السموات وجلستَ عن يمين الآب لكي تحدد وتُعد لنا طريقاً جديداً لم تسلكه الطبيعة الإنسانية من قبل، ولكننا فيك صعدنا إلى الآب، وفيك جلسنا عن يمينه.**

**– وسكبتَ علينا في الكنيسة المقدسة الروح القدس، هذا الذي يهيئ ويكمل الأسرار المقدسة التي بها نتغذى ونتعلم الحكمة ونراك فيها فنرى الآب.**

**– انجد لك يا محب البشر الثالوث القدوس.**

وهذا النص يشبه إلى حد بعيد صلوات القداس، بل هو متأثر به بشكل ظاهر، وهو مثل القداس يجعل ما عمله الابن لأجلنا محور علاقتنا بالله وأساس كل صلاة عندنا. ولذلك كلما تقدم فهمنا وإدراكنا للعقيدة، كلما تقدمت صلواتنا كثيراً وتحسنت حالتنا الروحية، وهو ما يؤكده الرسول يهوذا "وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ فَابْنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى إِيمَانِكُمُ الأَقْدَسِ، مُصَلِّينَ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ، مُنْتَظِرِينَ رَحْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ" (يهوذا ١: ٢٠، ٢١).

## العقيدة علاقة محبة مع الله

الصلاة تكشف لنا طبيعة الإيمان، وتؤهلنا للكلام عن جوهر التديُّن، وهي شريحة من الديانة كمشروع، وهي بدورها تعلن حقيقة العلاقة بين الإنسان والله، ولكن الصلاة بدورها لا يمكن فصلها عن الطقوس، كعلاقة خارجية تعلن عن تعليم الديانة. وإذا انطبقت حقيقة الصلاة على حقيقة الطقوس، أمكن للإنسان أن يدرك من هذا التطابق أن الصلاة فعلاً عميقةٌ وقوية، وتعلن عن علاقة قوية بين الله والإنسان.

إن تعليم المسيحية الأساسي عن المحبة، ظاهرٌ بكل وضوح في موضوع الصلاة والطقوس. صلاة المسيحية تعلو على كل صور نداء الله أو الحديث أو أو ... إنها لقاء محبة، ولقاء كيان الإنسان المخلوق على صورة الله والذي يتحول بالصلاة وفي الطقوس إلى تحقيق هذه الجوانب الأساسية في كيانه الإنساني أن يكون مثل الله.

نحن لا نستطيع أن نتكلم عن الإنسان دون أن تكون لدينا الجوانب الروحية الواضحة لحقيقة الإنسان، أي حياته الداخلية الروحية. والمحبة أعظم ما يعرفه الإنسان من علاقة، هي هبة الله العظمى للطبيعة الإنسانية، والقوة القاهرة في عالم التوحش والبغضة. هذه القوة القاهرة الساكنة جِنان الإنسان، ليست غريبة عليه، وليست بعيدة عن الله، هي أصل العلاقة وجوهرها، وبدون المحبة لا يمكن مطلقاً أن نتكلم عن الإنسان، وكذلك بدون المحبة لا يمكن أن نتكلم عن الله نفسه. في هذا الإطار يجب أن يكون

لدينا الوعي بأن دعوة المحبة في المسيحية هي دعوة وحدة بين الله والإنسان، بين المحبة في شكلها وجوهرها النقي الفياض المعطاء الذي لا يعرف الحدود، وبين المحبة في شكلها الضعيف المشوه أحياناً، والذي يقف عند حدود الشر ولا يتعدى حدود الذات. هذه هي النقطة الحاسمة في الموضوع كله. فالمحبة التي نراها في الله، هي أصل الصلاة والطقوس في المسيحية.

فالإنسان الذي يصلي، يقف أمام الله، ليس كسيد فقط، بل وخالق أيضاً، فالسيادة والخلق يفقدان معناهما إن لم يكن كليهما تعبير عن المحبة.

ولذلك السبب علينا أن نسأل السؤال الذي يكشف لنا عما يقال عن المحبة. لئلا يتصور إنسانٌ ما أن المحبة فكرة ضعيفة قابلة للنقد أو التشويه:

## هل من الممكن أن ننقد المحبة، أي هل يمكن أن ننقد العقيدة المسيحية؟

ما أكثر ما وجِّه للمسيحية من نقد ... وما أكثر ما سوف يوجَّه إليها، وسوف تظل دائماً هدفاً للنقد، ولكن في مجال النقد نفسه نريد أن ندرس نقطة واحدة هامة، وهي: هل من الممكن أن ننقد المحبة؟ وما هو مقياس النقد؟

لقد حاول البعض أن يجعل من العدل مقياساً لنقد المحبة ... وكان هذا جهلاً بالمحبة؛ لأن المحبة تعني أيضاً محبة العدل. لا يمكن للمحبة أن تقف ضد العدل.

يمكن للعدل أن يكشف عن خطأ معين في ممارسة المحبة، أو أن تشويهاً أصاب المحبة ولكنه لا يستطيع أن يتفوق على المحبة، فهي تحتوي العدل وترفعه إلى مستوى رفيع. أمَّا العدل فهو لا يستطيع أن يحتوي المحبة. العدل محدودٌ؛ لأن قدرته الوحيدة هي تصحيح خطأٍ وقع ضد الإنسان، أو تشويهٍ أصاب المحبة. ولذلك لا يستطيع العدل أن يحتوي المحبة ويتفوق عليها. إن دنيا الشر والخطيئة هي التي أوجبت هذا التحليل والمقارنة، ولكن في دنيا الحق، المحبة والعدل، لا يفترقان ولا يتخاصمان.

المحبة تتقدم على العدل وتفتخر بأنها تغذيه بالحياة؛ لأنها لا تقف عند حد إصلاح الأخطاء، بل تعطي من ذاتها، ولذلك فإن المحبة التي وصفها بولس الرسول بأنها "لا تطلب ما لنفسها" (١كور ١٣: ٥) أقوى بكثير من العدل، حتى في دنيا الحق نفسه.

لذلك السبب نفسه، لا يمكن أن ينقد المحبة إلاَّ المحبة نفسها، أي مستويات المحبة مثل: محبة الوالدين – محبة الوطن – محبة العلوم ... إلخ، هذه كلها مستويات للمحبة، ولذلك يمكن لمن يشاء، أن يأخذ هذه المستويات لكي يكتشف الأفضل والأقوى منها. ويمكن لمن يشاء، أن يرى أن محبة الوالدين تتقدم على محبة الوطن، وفي بعض المواقف يحدث العكس، إن المحبة حياة، ولذلك لا يمكن لمقياس آخر، ولا يمكن لأي فكرة أخرى أن تنقد المحبة. تظل المحبة فوق النقد دائماً ولا تخضع إلاَّ لنقد المحبة.

إذا كان هذا صحيحاً، فما هي قيمة النقد الذي يوجَّه لديانة تدعونا إلى اعتبار المحبة كمحور وأساس لكل شيء في الحياة.

كيف نستطيع أن ننقد هذه الديانة؟ في اعتقادي توجد طريقة واحدة، وهي أن نرى ما هو مستوى المحبة في المسيحية وما هو مستوى المحبة في غيرها، وعند ذلك نستطيع أن ندرك أين تقف المسيحية وما هو موقعها في حياة الإنسان، وإلى أين تقوده؟

## مستويات المحبة في المسيحية؟

على الرغم من أن اللاهوت المسيحي لا يعرف إلاَّ مستوى واحداً منه تنبع المستويات الأخرى، بل هو المستوى الوحيد الذي تعيش عليه كل مستويات المحبة، وهو مستوى المحبة الإلهية نفسه، إلاَّ أننا سوف نسمح لأنفسنا بالكلام عن مستويات المحبة.

الله هو أصل المحبة، ويعبِّر الرسول بولس عن هذا بقوله: "الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ" (أف ٣: ١٥). فهو مصدر المحبة ونموذج الأبوة الكامل: في العطاء أعطى أفضل ما لديه إذ جاء الابن الوحيد، في الاحتمال احتمل كل شيء لكي يرفع الإنسان إلى مرتبة ابنه، في الصبر لا زال يصبر على ضعفات الكنيسة حتى "يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً، لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ (شيخوخة)" (أف ٥: ٢٧). وهناك مستويات أخرى سوف نراها؛ لأننا نحن الآن أولاد الله و لم يظهر بعد ماذا سنكون كأولاد الله، ولكن متى ظهر ابن الله في مجده سنكون مثله لأننا عندما نراه في مجده سوف تحولنا هذه الرؤيا إلى ذات مجد الابن المتجسد (راجع ١ يوحنا ٣: ٢). وأينما توجَّهنا نرى المحبة حاضرة في المعمودية تعطينا التبني، وحاضرة في الإفخارستيا تعطي ذاتها، حياةً جديدةً لكل من يتناول، وهذا ما يعبِّر عنه الرسول بولس "محبة المسيح تحصرنا" (٢ كور ٥: ١٤). فإذا كانت محبة المسيح تحصرنا وفي أي اتجاه ذهبنا، فإن نقد المسيحية يصبح عملاً شاقاً، بل مستحيلاً، وهذا ما لم يلتفت إليه النقاد الذين انصرفوا إلى محاولة اكتشاف تناقض في الأناجيل أو ثغرات في رسائل بولس أو إلخ، لكنهم لم يفهموا أن المطلوب هو جوهر الرسالة وقلبها، هل هو صحيح أم خطأ، هل يمكن توجيه النقد إليه، أم توجيه النقد مستحيل. هذه الحقيقة تقلب موازين النقد؛ لأننا نرى في رسالة المسيحية بناءً أو نسيجاً سداه ولحمته المحبة، وهو بذلك نسيجٌ خاص لا يمكن لنا أن نصنع مثله أو حتى أن نقلده؛ لأن المحبة لا يمكن أن تكون مثل أي شيء ويستحيل تقليدها، فالمحبة هي الإله الحي الحقيقي.

## نقد المحبة والتعليم المسيحي الخاص بالله

"الله محبة"، هذه هي المسيحية في أقصر صيغة إيمانية عرفتها الكنيسة، ولكن الرسول يوحنا لم يقف عند هذه الصيغة، بل أضاف "من لا يحب لم يعرف الله"، وبعد ذلك حدد السبب "لأن الله محبة" (١يوحنا ٤: ٨). والعلاقة واضحة، من يحب يمكنه أن يكتشف الله في الإنجيل ويراه، لأن المحبة تعلم الإنسان حقيقة الله، وأمَّا من لا يحب لا يمكنه أن يعرف الله، بل قد تاه عن الله تماماً. فقده لأنه لم يصدق بأن الله محبة، أو فقده لأنه ظن أن الله شيء آخر.

في هذا الإطار وحده يمكننا أن نفهم التوحيد والتثليث، وأن ندرك أننا إزاء إعلان محبة، وأن الإعلان عن المحبة صعب، وفي أغلب الأحيان معقد جداً. المحبة ليست نزهة أو عملية مسلية أو أغنية رقيقة حالمة زاخرة بالعواطف والأحلام ... المحبة فوق كل هذا، فهي عطاء وهي تعطي ذاتها، وتطلب الوحدة وتسعى إليها ولا تقبل الفواصل ولا ترضى بالقيود. محبة الله ترى الهوة بين الخالق والمخلوق وتعبرها بكل فرح؛ لأن المحبة لا يمكنها أن تقبل بما هو موجود من عوائق. تبقى العوائق كما هي، ولكن المحبة تتخطاها. لقد ظل الله هو الله، ولكنه عبَر إلى الإنسان وتجسَّد وعبر العوائق دون أن يحطمها، ولذلك ظل الناسوت الذي أخذه ناسوتاً لم يفقد طبيعته الإنسانية. هذا ما نعنيه بعبور العوائق دون تحطيم العوائق.

والإتحاد، وهو غاية المحبة لا يفقد فيه الإنسان كيانه الإنساني، فهو لا يذوب كما في حالة النرفانا في البوذية، وإنما يظل الله هو الله ويظل الإنسان إنساناً. الوحدة ليست اختفاء للإنسان وليست ضياعاً للكيان الإنساني، وإنما الوحدة هي بقاء الاثنين معاً في وحدة. يظل الله هو الله ويظل الإنسان هو الإنسان. هذه الحقيقة ليست قائمة على ما حدث في التجسد فقط عندما اتحد اللاهوت بالناسوت "بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"، بل قائمة على أساس الثالوث أيضاً؛ لأن أقانيم الثالوث ثلاثة في جوهر واحد لا تذوب ولا تختفي، وإنما يظل كل أقنوم كما هو ولكن في وحدة الجوهر. ووحدة الذات أو الجوهر هي أساسية جداً لفهم المحبة الإلهية ذلك أن محبة الله بلا وجود إذا لم يوجد الجوهر الواحد الذي يجمع الأقانيم. ويمكننا أن ندرك أهمية الجوهر الواحد لو تذكرنا أن الابن الوحيد الذي هو واحد مع الآب جاء لكي يردنا إلى شركة الآب، فلو كان الابن من جوهر آخر غير جوهر الآب لما استطعنا أن نفكر ولو لمدة ثانية واحدة في محبة الله. بل لكان الرسول يوحنا سيعجز عن كتابة ذلك الكلام الخالد "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يوحنا ٣: ١٦).

وحدة الجوهر تحدد لنا محبة الله، ولكن تعدد الأقانيم هو الإعلان عن هذه المحبة، وعن مصدرها والطريقة التي تصل بها إلينا، وكيف ترفعنا المحبة إلى المحبة الفائقة التي مصدرها الآب، ولكنها تخلق

لنفسها صلة بنا عندما تعبر هوة الخالق والمخلوق بالتجسُّد. والتجسُّد هو قناة المحبة التي تعبِّر عن نفسها بمشاركة الإنسان محنة الموت وتعطيه هبة الحياة في القيامة وشركة الروح القدس للحياة الأبدية.

المحبة في جوهرها واحدة، ولكن الإعلان عنها لا يمكن أن يفهم إلاَّ بالتعدد، وهكذا يعبِّر الرسول يوحنا: "أنظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله" (١يو ٣: ١). لو حذفنا كلمة "الآب" لاستحال علينا أن نكتب "أولاد الله"، ذلك لأن أبوة الله وحدها أي أقنوم الآب هي السبب الوحيد الصالح لأن يؤهلنا للكلام عن أولاد الله الذين اتخذهم لنفسه في الابن "وأمَّا كل الذين قبلوه (المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله" (يو ١: ١٢).

والوحدة (في الجوهر)، والتعدد[١] (في الأقانيم) هي الصيغة الوحيدة التي تعبِّر عن المحبة وهي تعمل، ذلك أن المحبة لا تقبل السكون والبقاء بلا عطاء. لقد قلنا إن المحبة لا يمكن أن ننقدها إلاَّ بالمحبة، وصيغة المحبة في اللاهوت المسيحي هي صيغة تعبِّر عن المحبة كما هي، وعن المحبة وهي تعلن عن ذاتها في عطاء لمن تراه أهلاً للحياة الأبدية. والمحبة كما هي أي في حقيقتها هي الله الواحد في الثالوث، والمحبة وهي تعلن عن ذاتها، تكشف الوحدة والتعدد مثل "أنا في الآب والآب فيَّ"، ولكن أيضاً "أنا والآب واحد". وهذه الوحدة ليست وحدة الثالوث فقط، بل هي الوحدة التي يَعبُر فيها الثالوث إلينا ويجعلنا واحداً فيه "أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" (يوحنا ١٧: ٢١)، وحدة تتجلى في التاريخ، وحدة صارت هاجس الكنيسة الدائم عبر العصور في مواجهة الانقسام.

## الاختبار هو أداة النقد الصحيح

نحن لا نقصد بالنقد اكتشاف الأخطاء، فهو ليس المقصود بكلمة نقد، وإنما النقد هو أيضاً اكتشاف الجوانب الإيجابية لأيٍ من الأمور.

ونقد المحبة بشكل عقلي نظري لا يجدي، وإنما نقد المحبة بشكل عقلي مبني على الاختبار يؤهلنا لإدراك حقيقة المحبة. وهذا يعني بشكل أساسي أن تعليم المسيحية عن اختبار الإيمان وتذوق الحياة مع الله، هو أصلاً يصاغ بهذا الشكل كتعبير عن حقيقة محبة الله. فلأن الله محبة، فمن الضروري أن نبلغ هذه المحبة بوعي وإدراك، ولكن من خلال الاختبار لحقيقة الله الفائقة. والكلام عن محبة الله أو الله محبة لا يجعل الله تحت الحواس أو يجعل الله يفقد شيئاً من إلوهيته، وإنما العكس هو الصحيح، فالله هو كذلك في المحبة فقط، وليست المحبة مبدأً يجعل الله صغيراً، بل العكس إنه مبدأ يجعل الله عظيماً "هكذا أحب الله العالم ..."، أو "انظروا أية محبة أعطانا الآب ..". وفي الحقيقة إن إدراك محبة الله يجعل الله رهيباً جداً

---

(١) استخدمنا كلمة تعدد بمعنى تثليث كما هو واضح، وكلمة تعدد تعطي العمق المطلوب لفهم المحبة، لأن الوحدة تعني أكثر من واحد في وحدة.

بالنسبة لنا؛ لأنه مهما كان اختبارنا وتذوقنا لمحبة الله، يظل الله فوق كل إدراك، بعيداً جداً عن متناول دائرة محبتنا. نظل على شركة معه، لكنه في محبته يظل بعيداً عن دائرة إدراكنا.

ودينونة الله قائمة على المحبة، وهذا ما يجعلنا ندرك أن الدينونة هي اقتراب أو ابتعاد عن دائرة المحبة، وهذا أيضاً رهيبٌ جداً بالنسبة لنا؛ لأنه يجعل اختبارنا ونمو حياتنا في المحبة هو نفسه قاعدة الاقتراب أو الابتعاد عن الله.

إذن المحبة ليست رحلة حالمة، إنها تقود إلى الدينونة أو إلى الحياة، وليس هذا استنتاجاً، بل هو تعبير مباشر صريح "نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الأخوة. من لا يحب أخاه يبقى في الموت" (١يوحنا ٣: ١٤). وهذا بدوره يطرح علينا عدة أسئلة يجب أن تُدرس بعناية عندما يحين وقت الكلام عن الأخلاق المسيحية، ولكن السؤال الهام الآن هو: إذا كانت المحبة هي قاعدة الحياة والموت، فما هو أساس الأخلاق في المسيحية؟ وطبعاً لا أساس سوى المحبة، أي الإيمان بالله المحبة، وبشكل مباشر تصبح الأخلاقيات تعبيراً عن هذه الحقيقة الهامة، وهو بدوره ما يحدد لنا ضرورة تغيير نظرتنا إلى الأخلاق؛ لأن الأخلاق المسيحية هي في جوهرها نظرة عقائدية قائمة على إعلان محبة الله في المسيح يسوع.

# الفصل الرابع

# اللاهوت المسيحي إعلان عن الله

## أصل كلمة لاهوت

كلمة لاهوت من أصل سرياني، فهي بالسريانية "لاهوثا"، واستخدام الكلمة السريانية يؤكد انتماء الكلمة إلى التراث المسيحي السامي "*Semitic*" أو الشرقي. ولكن نفس الكلمة معروفة أيضاً في اليونانية القديمة قبل المسيحية فهي "Θεολογια" وهي مكونة من كلمتين "Θεος" و"λογια" أي الكلام أو الحديث أو معرفة الله. ومن اللغة اليونانية دخلت الكلمة إلى اللاتينية، ثم اللغات الأوروبية، ثم أصبحت في الإنجليزية "*Theology*". والإنسان الذي يتحدث عن الله هو "θεολογος" "اللاهوتي"، أو حسب التعريف السائد في الكتب الطقسية الناطق بالإلهيات، أو ثيئولوغوس.

وهناك فرق ضخم بين استخدام كلمة "θεολογια" عند آباء الكنيسة، وفي كتب الفلاسفة اليونانيين. ذلك أن كلمة ثيئولوجيا يختلف معناها في الفلسفة عن معناها في المصادر المسيحية. كل كلام عن الله أو اللاهوت في الوثنية يعني الحديث عن الكون وشئون الحياة في إطار الأساطير وخرافات الحوريات أو الجنيات "*Nymphs*" على جبل الأُليموس "*Olympus*".

فاللاهوتي هو الشاعر مثل: أورفيوس "*Orpheus*" وهوميروس "*Homer*" وهزيود "*Hesiod*" وطبعاً كان هؤلاء الشعراء يتحدثون عن أحوال الآلهة ومغامراتهم وميلادهم وظهورهم، وهؤلاء الشعراء ليسوا لاهوتيين "*Theologians*" من وجهة نظر المسيحية. فاللاهوت في المسيحية ليس القصص الشعبية، وإنما الإعلان عن الله الذي يقدِّمه الله. هذه ميزة أساسية في المسيحية.

## دور العقل في التراث اليوناني الوثني

عندما تخطت البشرية مرحلة الأساطير واتجهت جهود العقل الإنساني إلى البحث الموضوعي العقلي، ظهرت المدارس الفلسفية في الشرق، وكانت بداية دور العقل في التمييز الذي بدأه أرسطو بين ما كتبه الشعراء من أساطير وروايات عن العالم والإنسان، وبين ما يفكر فيه الفلاسفة، ولذلك اعتبر أرسطو أن الفلاسفة "*Philosophers*" هم طبقة مميزة عن اللاهوتيين "*Theologians*". هؤلاء

الفلاسفة مثل طاليس "*Tales*" وأنكسيمندر "*Anaximander*" هم دعاة لنظريات متكاملة عقلية لا علاقة لها مع الأساطير، لكن الكلام عن الله لم ينشأ في الفلسفة بشكل عقلي منظم قبل أفلاطون، فهو أول من استخدم كلمة ثيئولوجيا "θεολογια" في معناها المعروف في كتابه الجمهورية (Republic:379A)، ولذلك يسمي أتباع الأفلاطونية المحدثة "*Neoplatonists*" أفلاطون باللاهوتي "*Theologian*" وإلى أفلاطون يعود الفضل في استخلاص مبادئ سامية عن الله وعن الكون من الأساطير، وتقديم فكر متكامل عن الله وعن الكون، قائم على البحث العقلي في إطار فلسفي دقيق. ولكن نشوء التصوف على يد أفلوطين هو الذي حوَّل البحث العقلي الفلسفي إلى بحث صوفي عقلاني.

كانت بداية فصل اللاهوت "*Theology*" عن الفلسفة عند أرسطو، وقد قال أرسطو بكل وضوح في كتابه ما بعد الطبيعة "*Metaphysics*": "لابد وأن يكون لدينا وضوح في التمييز بين أركان الفلسفة الثلاثة وهي: ما بعد الطبيعة، والطبيعة، والرياضة "*Mathematics*"، وما نسميه باللاهوت "*Theology*". ومع أن اللاهوت حاضر في كل شيء وفي كل أركان المعرفة لأن العلم العالي هو الذي يدرس الكائنات العليا" (1026:A19:22).

هذا النص بالذات يؤكد أن الأساطير أياً كانت لم تكن شيئاً استخف به الفلاسفة، بل كانت تحتوي على معرفة بالكائنات الإلهية، وكان على الفيلسوف أن يصل إلى معرفة هذه الكائنات، وقد سمى أرسطو هذه المعرفة بالفلسفة الأولى، أي ما بعد الطبيعة "*Metaphysics*"، وهي المعرفة غير الحسية التي تؤدي إلى معرفة الله. ولكن الكلام المفهوم الواضح عن الله، وهو اللاهوت الذي لا أثر للأساطير بالمرة على موضوعاته، لم يتحدد قبل زينون الرواقي (٣٣٤-٢٦٤ ق.م) الذي قسَّم موضوعات المعرفة أو الفلسفة إلى المنطق "*Logic*"، علم الأخلاق "*Ethics*" وعلوم الطبيعة "*Physics*". وبعد وفاة زينون جاء كليناتس "*Cleanthes*" وقسَّم كل قسم من الأقسام الثلاثة السابقة إلى قسمين ثم قسَّم الطبيعة إلى الطبيعة واللاهوت.

قبل نهاية القرن الثاني أسس بنايتوس "*Panaetius*" الذي من جزيرة رودس مدرسة رومانية في روما ١٨٠-١١٠ ق.م. وميَّز بين ثلاثة أنواع من اللاهوت، وقال في نص مشهور عرفه فيما بعد العلامة ترتليان ونقله عن ترتليان، أو ربما عن فارو "*Varro*" (١١٦-٢٧ ق.م) أغسطينوس، الذي يقول في كتابه "مدينة الله" نقلاً عن بنايتوس:

*[Theology, or the systematic treatment of the divine, may be divided into three parts, of which the first is called mythical, the second physical, and the third political] (bk 5:5).*

[اللاهوت أي الدراسة المنظمة للإلوهة، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يسمى الأساطير، والثاني الطبيعة، والثالث المعاملات أو الطقوس].

ومن عند الفلاسفة اليونانيين دخل الفصل بين اللاهوت والأخلاق، وهو ما نراه بعد ذلك عند أغسطينوس بشكل خاص، ومنه سيدخل هذا في التراث الغربي المسيحي لا سيما مع بداية العصور الوسطى. على أي حال استقرت هذه الزوايا الثلاثة في التراث اليوناني:

**١**- الزاوية الشعرية "*Poetic*" وفيها يستعين اللاهوتي بالأساطير "*Mythology*".

**٢**- الزاوية الخاصة بالمعرفة العقلية، أو علم الطبيعة حيث يستخدم اللاهوت النظريات الفلسفية "*Philosophical*"، وقد سمى فارو "*Varro*" هذا النوع من اللاهوت باسم " *Natural Theology*" لأن كل ما يخص الآلهة في الأساطير سوف يقاس على أساس فلسفي لأن الآلهة هي مظاهر الطبيعة، وبالتالي فكل ما في الطبيعة يخضع للبحث العقلي المحض.

**٣**- الزاوية الطقسية "*Ritual*"، وهو ما يجب أن نفهمه من كلمة "*Political*"؛ لأن هذه الكلمة بالذات تعني المدينة، والطقوس الشائعة في المدن الرومانية واليونانية هي ذات شأن كبير وتعكس الكثير من المفاهيم القانونية والإنسانية وتحدد بذلك الممارسة الدينية.

في هذه المرحلة المبكرة وُلِدَت كلمة "لاهوت"، وطرح الفلاسفة اليونانيون برنامج البحث في إطار التراث اليوناني، وما استقر في الفلسفة من نظريات عن الله والكون والإنسان، ساهمت بشكل واضح في تطور الوعي الديني.

لكن لم يصل الفكر الديني اليوناني الوثني إلى المستوى المسيحي لعدة أسباب أهمها:

**١**- كان الكلام عن الله هو كلام عن قوة ونظام بلا علاقة شخصية مع الإنسان، فهو كلام عقلاني محض.

**٢**- كان البحث يرتكز على مظاهر الألوهة في الطبيعة، مما يجعل هذا علماً من علوم الطبيعة وليس لاهوتاً (مدينة الله ك ١٦ ف ٨).

**٣**- كان البحث عن الله خاضعاً بشكل مباشر لفكر الإنسان فقط، دون أن يكون لهذا البحث أي روافد تغذية وتصحح من اتجاهه، أي الوحي وإعلانات الله عن نفسه.

## اللاهوت في المسيحية

عندما استخدمت المسيحية كلمة لاهوت، فقد كانت حريصة منذ البداية على أن تفصل بين المعنى الشائع في اللغة اليونانية، وهي لغة الثقافة في تلك الفترة، والمعنى المسيحي الدقيق لكلمة شائعة يعرفها كل الناس. فأهم ما يشكل البنية المسيحية هو الإعلان الإلهي المرحلي في العهد القديم، ثم الإعلان الكامل والنهائي في العهد الجديد في يسوع المسيح. وإذا شئنا أن نختار نصاً يعبِّر عن مضمون اللاهوت المسيحي، فإن افتتاحية الرسالة إلى العبرانيين هي أفضل النصوص: "اللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً،

بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ. كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ ... " (عبرانيين ١: ١، ٢) ويصبح الكلام عن الله، أو النطق بالإلهيات، أو اللاهوت المسيحي هو التأمل في أقوال الله كما جاءت في العهد القديم إلى أن جاء الله نفسه وتجسَّد في العهد الجديد، فأعلن بحضوره وبتجسُّده وبكلماته عن ذاته.

اللاهوت المسيحي يبحث عن سر الله "*The Mystery of God*" الـذي أُعلـن في الآب والابن والروح القدس. وهو بحث غير نظري[1] لأن سر الثالوث في الإعلان المرحلي أي العهد القديم لم يكن كلاماً عن الله، وإنما كان ظهورات وإعلانات عن حضور الله وأحداث تاريخية تعطي معنى حضور الله ليس في الكون، فالله لا يحتاج لأن يعلن عن ذاته للكون، وإنما للإنسان، فالأساس هـو الإعـلان والهدف هو الإنسان. ولذلك ليس في اللاهوت المسيحي بحث عقلي طبيعي بالمعنى الذي جـاء عنـد أرسطو، أي ليس لدينا "*Physical Theology*" أو "*Natural Theology*" أي لاهـوت يـبني عقائده على قوة الله وعظمته في الطبيعة؛ لأن الطبيعة وإن كانت تعلن عن قـوة الله وعظمتـه، إلاَّ أن الطبيعة بكل ما فيها من جبال أو وديان أو بحار ليست المجال الذي يعلن فيه الله عن ذاته كشخص. قد تعلن الطبيعة عن الله، ولكن هذا ليس هو اللاهوت المسيحي، فالطبيعة قد تعلن عن بعض صـفات الله، ولكنها لا تعلن عن ذات الله، فالله وحده هو الذي يعلن عن ذاته وبحضوره الشخصي.

ومع هذا ليس لنا أن نرفض اللاهـوت الطبيعـي "*Natural Or Physical Theology*" لمجرد أنه بحث عن الله في إطار مظاهر صفاته وحضوره في الكون، فهو موضوع لا يمكن فصـله عـن اللاهوت المسيحي، ولكن يجب أن يخضع للمبادئ الأساسية التي تقوم عليها عقائد المسيحية. كما يجب أن نؤكد أن اللاهوت الطبيعي ليس أحد مصادر العقيدة المسيحية، وإن كان من الجائز استخدامه لفهم العقيدة المسيحية وشرحها.

---

(١) بمعنى غير قائم أصلاً على ما وصل إليه العقل، فالعقل لم يصل إلى عقيدة الثالوث، وإنما أُعلنت في الله لا سيما في تجسد الابن الكلمة.

# المبحث الأول

## اللاهوت عند القديس أكليمنضس السكندري
## ١٥٠-٢٣٠م

من الضروري أن نقدم هنا – في عجالة سريعة – بداية الفكر اللاهوتي المسيحي. هذه البداية – تاريخياً – هي كتابات آباء الكنيسة. وهي بداية تحدد لنا بشكل واضح ما رفضه الآباء في التراث اليوناني الفلسفي، وهو رفض مبني على أساس عقيدي واضح. فالله أعلن عن نفسه في يسوع المسيح، ولهذا الإعلان يجب أن تخضع كل المعارف والعلوم وتساهم في شرحه.

وفي مجال الكلام عن اللاهوت عند الآباء، نجد أن البداية كانت في الإسكندرية وعلى يد أكليمنضس "*Clement*"، فهو أول من كتب يشرح العقيدة المسيحية في الكنيسة الجامعة على وجه الإطلاق. وعندما كان يكتب للوثنيين، فإنه كان لا يتردد في استخدام كلمة ثيئولوجيا في معناها الواسع المعروف لدى الوثنيين، أي معرفة الله، لسبب واضح عنده، هو أن المسيحية تُعلِّم بأن اللوغوس، أي الكلمة، هو النور الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم (يوحنا ١: ٩). فاللوغوس، أو الابن يعمل في كل الخليقة والبشر. وحتى شعراء وفلاسفة الوثنية كانوا خطوة أساسية في تقدم الإنسانية في معرفة الله.

ويقول أكليمنضس في كتابه (المتنوعات): "كانت الفلسفة ضرورية من أجل اليونانيين لتقدُّمهم في البر إلى أن يأتي الرب، وهي الآن تساعد على التقوى الحقيقية، وهي تمهيد وتدريب لكل الذين يصلون إلى الإيمان عن طريق البراهين العقلية، ولقد قال الكتاب المقدس إن "قدميك لن تعثر" (مز ٩١: ١٢)، وإذا كانت العناية الإلهية هي مصدر كل الصلاح في اليونانيين أو فينا، فهي التي تعمل في الفلسفة للإيمان؛ لأن الله هو مصدر الصلاح كله، وهو يعلن عن نفسه بطريق مباشر في العهد القديم والجديد، أو بطريق غير مباشر في الفلسفة التي استفادت من الكتاب المقدس بعهديه. ولكن يمكن أن نقول إن الفلسفة أُعطيت لليونانيين مباشرةً من الله إلى أن يتجسد الرب ويدعوهم لقبول الإيمان، وعلى ذلك تصبح الفلسفة هي المهذِّب أو المدرِّس الذي يساعد العقل اليوناني على قبول المسيح، تماماً مثل الناموس الذي قاد العبرانيين إلى المسيح. ولهذا كانت الفلسفة هي التمهيد الذي يهيئ الطريق للكمال في المسيح". (المتنوعات ٥: ٢٨).

فالمعرفة الإنسانية ليست بعيدة عن مجال عمل الكلمة أو اللوغوس. فهو ينير الإنسان لكي يتقدم في معرفته بالله، ولكنه يظل يحتاج إلى الأسفار المقدسة، وهو ما جعل أكليمنضس يعتبر أن الفلاسفة استفادوا من الأسفار العبرانية وتعلَّموا منها الكثير من الحقائق (المتنوعات ٥: ١٤). وأن الشعراء والفلاسفة مثل هوميروس، هم رجال حكماء، بل تعلموا اللاهوت "*Theology*" من الأساطير بعدما جردوها من الجوانب الحسية. هنا الثيئولوجيا ليست المعرفة الإنسانية وحدها، وإنما المعرفة الإنسانية التي استفادت من اللوغوس. فالعقل البشري عبرانياً أم يونانياً احتاج لعمل اللوغوس، وهيَّأ البشر لقبول ظهور الله وإعلانه عن نفسه في المسيح.

يقول أكليمنضس بكل وضوح: "الفلسفة إذا كانت بربرية أو يونانية أو عبرانية كانت تسعى إلى الحق دون الاعتماد على أسطورة ديونسيوس، وإنما بالاعتماد على اللاهوت الذي يأتي من اللوغوس مباشرة" (المتنوعات ١: ١٣). فإذن بجانب الاستعمال المعروف لكلمة لاهوت أو ثيئولوجيا يوجد لاهوت من اللوغوس أي الابن، وهذا اللاهوت هو اللاهوت الحقيقي الذي يأتي من الله مباشرة.

وفي مقدمة رسالته إلى الوثنيين يقول أكليمنضس: "اللوغوس هو قيثارة الله المقدسة ... كان اللوغوس في البدء وهو لا يزال المصدر الإلهي لكل الأشياء، ولكن الآن صار له اسم المسيح ... لأنه هو نفسه تجسَّد وظهر كإنسان، وهو وحده الإله والإنسان معاً ... معيننا هو الرب الذي في البدء أعطى الإعلانات ... ولكنه الآن يدعونا جهراً للخلاص، هو المعلِّم الذي منه تتلقى التعليم".

وقد خصص أكليمنضس كتاباً عن "المؤدِّب" "*Paedagogus*"، أي اللوغوس، شرح فيه التجسُّد وعمل اللوغوس في الكشف عن الله الآب للكل. ولذلك كل من يقرأ الفلسفة أياً كانت هذه الفلسفة عليه أن يصل إلى المعرفة الحقيقية التي أُعلنت في المسيح، وهي كما يحددها أكليمنضس "المعرفة الحقيقية التي تنمو حسب قانون الكنيسة" (المتنوعات ٧: ٧)، وكلمة "قانون" كما شرحها أكليمنضس تعني "قواعد الإيمان الخاصة بالعقيدة" (راجع المتنوعات ٦: ١٥). ولكن أكليمنضس يعني أن المعرفة الإنسانية يجب أن تخضع في النهاية للمعرفة الحقيقية أي اللاهوت الحقيقي الذي أعلنه الله نفسه في يسوع المسيح، ولذلك يقول أكليمنضس: "الإيمان هو قاعدة المعرفة" (المتنوعات ٦: ١٤). والمسيحي يصلي لا لأنه يبحث عقلياً عن الله، "إنه يصلي دائماً لأن الصلاة هي شركتنا مع الله" (المتنوعات ٧: ٧)، "والصلاة تقوي المحبة التي هي الطريق الملوكي الذي أعلنه الابن؛ لأنه كلما أحب الإنسان الله تعمق في الشركة مع الله" (من هو الغني الذي يخلص: ٢٧).

فاللاهوت الحقيقي، ليس مجرد معرفة، وإنما معرفة تنمو بالصلاة والمحبة. اللاهوت اختبار حقيقي في يسوع المسيح، يقود الإنسان إلى شركة مع الله. فالإعلان عن الله في المسيح ليس تقديم معرفة فقط، وإنما تطوير الحياة الإنسانية نفسها، وهو ما يجعلنا نختم هذه الفقرة بعبارة من أكليمنضس جاءت في

مقدمة كتابه المربي: "اللوغوس صار إنساناً حتى ما تتعلم أنت من إنسان كيف يمكن في أي وقـــت أن يصبح أي إنسان إلهاً" (المربي ١: ١٢). وتطور الحياة الإنسانية لكي تصل إلى فهم وإدراك الله، هو قائم على الشركة في الله، أو أن يصبح الإنسان إلهاً، أي بلا فساد وبلا موت أو ألم نامياً في معرفة الله كابن له.

## المبحث الثاني

# اللاهوت عند العلامة أوريجينوس

# ١٨٥ – ٢٥١م

إذا كان عمل اللوغوس في الخلق وفي الإنسان هو أحد مفاتيح اللاهوت المسيحي عامة والسكندري خاصة، فإن أهم ما يجب أن نراعيه في دراستنا للعلامة أوريجينوس هو منهجه اللاهوتي القائم على دراسة الطبيعة الإنسانية نفسها، فهي تتفاوت من إنسان لآخر، وهذا يعني أن مجال فهم الأسفار المقدسة نفسه هو مجالٌ شَرَحَهُ العلامة العظيم على أن الذين يقرأون الكتاب المقدس ينبغي عليهم أن يميِّزوا بين ثلاثة مستويات هي: المستوى الحسي "*Somatic*" أو الحرفي "*Litteral*"، ثم الأخلاقي "*Moral*"، أما الثالث فهو الروحي "*Pneumatic*" وهو أعظمها (راجع كتاب المبادئ ٤: ٩ – الرد على كلسوس ٣: ٣٥، ٤: ٩).

وبالطبع يأخذ البسطاء النص كما هو في معناه الحرفي أو الحسي؛ لأن إيمانهم بسيط ولا يعتمد مطلقاً على البراهين. ولذلك عندما يفكرون في معاملة الله لهم لا يتورعون أحياناً أن ينسبوا إليه عدم العدالة (المبادئ ٤: ٨ – الرد على كلسوس ٦: ٢٦ – ٥: ١٦). هؤلاء الذين يربطهم تماماً بالمعنى الحرفي، هو الخوف من الوقوع في الخطأ أو الدينونة، أما المسيحي الناضج (يستخدم أوريجينوس كلمة مثقف، وهو يعني بذلك المسيحي الذي تدرَّب عقلياً على التفكير) فهو يبحث في معاني كلمات الأسفار كما قال المسيح: "فتشوا الكتب" وأن يجد معناها الروحي العميق الذي لا يمكن الوصول إليه إلاَّ بالبحث الشاق عما وراء النص، وهذا المسيحي وحده هو الذي يستطيع أن يكون لاهوتياً بالحق؛ لأنه يبحث عن الله وعن أغوار الثالوث (عظة ١٣: ٣ على سفر اللاويين، والرد على الفيلسوف الوثني كلسوس ٢: ٥ – ٣: ٧٩ – ٤: ٧١).

فاللاهوت الحقيقي هو البحث عن الله وعن كل ما يخص الثالوث. وعندما يتأمل المسيحي الناضج في موت المسيح، فإنه لا يفكر في موت المسيح وحده، بل في موته هو مع المسيح (الرد على كلسوس ٢: ٦٩). إنه يقف مع المسيح وهو يشفي الأبرص ليرى المعجزة، ولكنه بكل تأكيد يصعد إلى جبل التجلي مع التلاميذ ليشاهد الرب (الرد على كلسوس ٣: ٢١). لأنه على الجبل يحيا مع المسيح لا

كطبيب يشفي أمراض الناس، بل مع اللوغوس كمعلم، فالمسيحي الناضج هو الذي لا يرى في المسيح مجرد طبيب يشفي، بل اللوغوس. ويقول أوريجينوس: "إن اللوغوس الإلهي جاء ليكون طبيباً للخطاة ولكنه يصبح معلماً للأسرار الإلهية للذين كفوا عن الخطية وصاروا أنقياء" (الرد على كلسوس ٣: ٢١). فاللاهوت ليس نظرة عابرة على التعاليم، إنه تذوق داخلي لأسرار الله، وهو ما يجعل نقاوة القلب أساسية للعلاقة مع الله.

ويحدد أوريجينوس بكل وضوح أن الطريق إلى الله يمكن أن يبدأ بالخوف من الدينونة، ولكن الإيمان وحده، وليس الخوف هو الذي يكمِّل الطريق. وأوريجينوس حريص جداً مثل أكليمنضس على هذه النقطة، فالمسيحي الذي يبدأ بالخوف من الدينونة لا يمكنه أن يتقدم أكثر إلى الأمام إلاَّ بواسطة المعرفة الخالصة التي لا تقوم على المعنى الحسي لنص الكتاب المقدس (مقالة على الصلاة: ٢٧). إذن دراسة اللاهوت تعني تحرير الإنسان من المخاوف وانطلاق في ثقة الإيمان إلى أجواء المعرفة.

ويميِّز أوريجينوس بين المسيحية والفلسفة في رده على الفيلسوف الوثني كلسوس بأن المسيحية هي ديانة البسطاء والفلاسفة معاً، أمَّا الفلسفة فهي للمتعلمين فقط، لكن البسطاء والفلاسفة معاً يجدون في المسيحية حياة التقوى. والأهم من كل هذا يجدون الخلاص في المسيح يسوع (الرد على كلسوس ٣: ٥٣ – ٧: ٦٠). فإذا كانت معرفة الكتاب أساسية جداً بالنسبة للمسيحي سواء كان هذا المسيحي بسيطاً أم مثقفاً، فإنه من المؤكد أن أوريجينوس هو رجل الكنيسة الذي يحرص على دور التسليم الرسولي في شرح الكتاب المقدس، وهو ما يجعله يؤكد في بداية كتابه المبادئ أن الرسل يؤكدون مبادئ وقواعد ثابتة معروفة، بل عقائد صيغت في عبارات محددة – ويكتبها أوريجينوس – بينما هناك أسئلة أخرى لم يحدد لها التقليد الرسولي إجابات بالمرة، ولذلك على اللاهوتي أن يبحث عن إجابات لها في ضوء الكتاب المقدس، وما استقر في الكنيسة من تسليم.

ولقد بحث أوريجينوس في الكتاب الأول من كتابه المبادئ عن إجابات لبعض الأسئلة، و لم يعجب هذا البحث بعض لاهوتي الكنيسة، ونشأ ما يُعرف بالمشكلة الأوريجانية. فإذا كانت معرفة الكتاب المقدس أساسية لمعرفة الله، أو هي أساس اللاهوت المسيحي، فإن كل المعارف الأخرى يجب أن تخضع لهذه المعرفة، وما فاتحة كتاب "المبادئ"، وهي بكل يقين بقلم أوريجينوس، إلاَّ تأكيداً على خط فاصل قاطع بين ما تُعلم به الكنيسة، أي قاعدة الإيمان "*Rule of Faith*" وما يمكن أن نفكر فيه من موضوعات أخرى ليست مرتبطة بقاعدة الإيمان بالمرة. وعن هذه الموضوعات يقول أوريجينوس إنه يمكن الاستعانة بما يتوفر لدينا من معرفة حتى من الفلسفة اليونانية (مقدمة المبادئ: فقرة ١٠).

وفي الحقيقة كان أوريجينوس هو أول من عالج موضوعات اللاهوت بطريقة مفصَّلة منتظمة، فقد خصص كتاب "المبادئ" لكل عقائد الكنيسة، وللموضوعات التي كان له رأي خاص فيها. وقسَّم

كتاب "المبادئ" على هذا النحو: الكتاب الأول عن الله الآب، الكتاب الثاني عن اللوغوس، الكتاب الثالث عن حرية الإرادة، والكتاب الرابع عن قواعد تفسير الكتاب المقدس. وفي الحقيقة أن هذه الأجزاء هي أول ما كُتب في تاريخ اللاهوت المسيحي ولا تزال المصدر الأساسي للتعرف على عقيدة الكنيسة في القرن الثالث.

ولكن أوريجينوس لا يمكن أن يكون مجرد فيلسوف أو رجل يبحث عن فروع المعرفة التي تؤدي إلى الله، فاللاهوت أي معرفة الله هي "حياة التأمل"، وكان أوريجينوس هو أول من اتخذ مرثا رمزاً لحياة العمل ومريم رمزاً لحياة التأمل (شذرة رقم ٨٠ في تفسير إنجيل يوحنا). ولذلك يقف الذين يمارسون حياة العمل وحدها في الدار الخارجية في الهيكل، أمَّا الذين يتأملون، فهم يدخلون إلى قدس الأقداس (تفسير مزمور ١٣٣ – مجلد ١٢: ١٦٥٢). وأقسام هيكل العهد القديم هي مثل مراحل الحياة أو مراحل معرفتنا بالله، ولذلك الأبواب التي تفصل الهيكل عن الدار الخارجية هي أبواب المعرفة، وإذا تذكرنا ما قلناه سابقاً عن منهج أوريجينوس في تفسير أو فهم الكتاب، فإن الدار الخارجية هي تأمل المعنى الحسي، أمَّا دخول قدس الأقداس فهي معرفة الله (تفسير مزمور ١١٧ – مجلد ١٢: ١٥٨١) وهذه المعرفة يجب أن يصل إليها الإنسان على هذا النحو:

أولاً: عن طريق التوبة وهدوء العقل وضبط الحواس للوصول إلى "عدم الهوى" "απαθεια" وفي هذه المرحلة يصل الإنسان إلى أولى درجات التأمل أو تأمل الكائنات المختلفة لمعرفة أسرار الخلق "الثاؤريا" "θεορια φυσικη"، أما معرفة الله عن طريق اللوغوس أو مشاهدة الله في اللوغوس فهي "ثيولوجيا" "θεολογια". ولأن أوريجينوس هو رجل الكتاب المقدس، فهو يحدد مراحل المعرفة على هذا النحو: في مرحلة تطهير الإنسان والتوبة يجب أن يقرأ الإنسان كتاب الأمثال؛ لأنه يتضمن القواعد الأخلاقية التي تضبط الإنسان. وفي المرحلة الثانية، وهي إدراك أسرار الخليقة عليه أن يقرأ الجامعة ليدرك أن كل ما في العالم عاجز عن تقديم معرفة سليمة عن الله (هنا يرفض أوريجينوس بكل يقين الفلسفة اليونانية). أمَّا في المرحلة الثالثة، فعليه أن يقرأ نشيد الأناشيد؛ لأنه سفر الزواج بين النفس واللوغوس. وهو طريق تأمل الله ذاته. وهكذا، اللاهوت هو معرفة اللوغوس الذي يعلن لنا الآب.

ثانياً: إذا كان أوريجينوس قد اهتم تماماً بوضع كل معرفة الإنسان وخبرته في ضوء الحقائق التي أعلنها الكتاب المقدس، فإنه إذن يرى في الكتاب المقدس، الكتاب اللاهوتي الأول الذي يجمع بين دفتيه حقائق الحياة الأبدية والتي سوف نراها تماماً وبكل وضوح في الأبدية، حتى تلك التي حدثت في العهد القديم. وفي نص فريد (في العظة ٢٣: ٤ على سفر يشوع بن نون) يقول: "من المؤكد أن الأسرار السمائية قد أُعلنت وفُهِمَت تماماً بواسطة الإنسان الذي أُختطف إلى السماء الثالثة، والذي عندما وجد نفسه في السماء رأى أورشليم الحقيقية، مدينة الله، ورأى أيضاً حبرون وكل المدن المبعثرة هنا وهناك

والتي تحدث عنها الكتاب المقدس، ولكنه فهم بالروح أسرار كل ظهورات الله في هذه المدن ... هذه الأسرار الإلهية التي لن نفهمها إلاَّ إذا وُجِد لدينا استعداد للسهر، ولحياة الفضيلة التي تقودنا إلى الفهم؛ لأننا إذا فهمنا هذه الأسرار واستحققنا أن ندرك أعماق هذه الأسرار، فإننا ندركها بالكمال في الحياة الأبدية السمائية" (مجلد ١١: ٩٣٨ ب). فاللاهوت هو رؤيا، والرؤيا هي خاتمة مطاف المعرفة. فالإنسان لا يعرف لأنه يريد أن يعرف، بل عليه أن يصل إلى خاتمة المعرفة وهي تذوق الحياة الآتية عن طريق المشاهدة الروحية.

ثالثاً: ولا يفصل أوريجينوس بين اللاهوت والتاريخ المقدس أي العهد القديم، فالأحداث الحقيقية حدثت في العالم المادي والمنظور وهي ظهورات الله في العالم للإنسان، هذه الظهورات في حبرون لإبراهيم أو على جبل سيناء لموسى يمكن لرجل مثل بولس الرسول أن يفهمها، بكل حقائقها وأسرارها عندما يُختطف إلى السماء وإلى مدينة الله الحقيقية أورشليم، وهناك في أورشليم التي هي مسكن الله مع الملائكة والقديسين يمكن للنفس أن تدرك كل أبعاد حقيقة علاقة الله بالإنسان كما حدث في التاريخ وكما تكمل في السماء. فالرؤيا ليست رؤيا ذاتية فيها شطحات الخيال، وإنما قائمة على عقيدة وتاريخ يتشارك فيه البشر.

وأوريجينوس يريد من كل إنسان أن يكون لاهوتياً بالحق أي أن يتمتع بكل ما في الإعلان الإلهي – في الكتاب المقدس – من حقائق لأنه سوف يدركها كاملة في الدهر الآتي إذا كان يريد هذا، ولكن عليه أن يبدأ هنا على هذه الأرض.

وإذا كان أوريجينوس يطلب أن يكون للنفس استعداد ورغبة بالسهر والنسك، فإنه يطلب من الإنسان أن يكون مستعداً للحياة التي تليق أي حياة النسك، ولذلك يلزمنا أن نقف قليلاً عند ارتباط النسك باللاهوت في هذه المرحلة المبكرة من حياة الكنيسة، فالعَالِم العظيم هو مؤسس التيار الروحي النسكي في الكنيسة الجامعة.

## النُّسك واللاهوت

قلائل جداً في هذا الجيل أُتيحت لهم فرصة اكتشاف العلاقة بين مدرسة الإسكندرية اللاهوتية والرهبنة القبطية. وقلائل من الذين نجحوا في الحياة النسكية أدركوا أن النسك هو قدمي اللاهوت، به يسعى إلى أعلى درجات المعرفة، وأنه لا تناقض بالمرة بين اللاهوت والنسك، أو العقيدة والرهبنة، ولسوف نرى كيف أن أوريجينوس يُعتبر أول من دوَّن لنا الأصول اللاهوتية للحياة النسكية. وهي أصول تظهر بعد ذلك في رسائل أنطونيوس وكتابات كل النساك، وبشكل خاص في العظات الروحية لمكاريوس المصري. والنسك هو الطريق للوصول إلى المعرفة الروحية.

يقول أوريجينوس في تفسير يوحنا (ك ١٠: ف ٤٣): "إن هناك إيماناً بسيطاً وإيماناً ناضجاً، والإيمان البسيط هو ذلك النوع من الإيمان الذي لا يتحول إلى تذوق واختبار، إنه ليس إيماناً ميتاً، بل فيه تسليم وقبول، ولكنه يتوقف عن النمو، أمَّا الإيمان الناضج، فإنه يتأمل الله أي يتذوقه، وهذا التذوق لا يأتي إلى النفس بدون استعداد؛ لأنه يقتضي الصراع الروحي الذي لا يمكن للإنسان أن ينتصر فيه إلا بالنسك، (أي بحياة التجرد والصوم)".

في العظة (٢٧) على سفر العدد يحدد أوريجينوس طريق النفس للوصول إلى الله: "إنه النمو الدائم في خلع قوة العالم وفكر العالم، إنه خلع النفس من العالم لأن النفس دُفنت تحت أفكار العالم وعاداته، وهذه كلها جعلت النفس الإنسانية تتشكل بصورة الأنانية. وعلى النفس أن تصارع ضد الأرواح الشريرة التي تحاول أن تستغل الخبرات القديمة قبل أن تنفصل عن العالم. أمَّا نحن فعلينا أن نتعلم من الخبرات القديمة، أي قبل أن ننفصل عن العالم، من الأخطاء التي ارتكبتها النفس والآثار التي تركتها هذه الأخطاء فيها، حتى بالصراع ضدها، ننال الشفاء. ولكن الصراع ليس مجرد نضال ذاتي في الإنسان، إنه اشتراك في حياة المسيح، وهذا هو معنى الصراع الروحي، إنه تشبه واشتراك في حياة المسيح، فالنسك هو تحول إلى المسيح، وهذا هو الطريق اللاهوتي الحقيقي، فالإنسان لا يشترك قط في حياة المسيح إلاَّ به، وأيضاً هذا هو الطريق الرسولي الأصيل ..."[١].

## بداية الطريق الروحي

طريق النسك هو رحلة خروج من أرض مصر إلى أرض الموعد أي ملكوت الله، وقائد هذه الرحلة هو الكلمة المتجسد. يقول أوريجينوس: "كان بنو إسرائيل في مصر يعملون في خدمة فرعون مصر الذي أعطاهم القش والطين، كانوا يعملون حتى بدأ الأنين، وصرخوا إلى الرب الذي عندما سمع صراخهم، أرسل كلمته بواسطة موسى الذي استطاع أن يخرجهم من مصر. ونحن كنا في مصر أي في جهالات هذا العالم وفي ظلام الجهل عندما كنا نعمل في خدمة الشيطان أي في إتمام الرغبات الجسدية والخضوع للأهواء، ولكن الرب تحنن علينا وعلى أنيننا وأرسل اللوغوس ابنه الوحيد لكي ينقذنا من الجهل والخطايا ويقودنا إلى نور ناموسه الإلهي، وقد عبَّر موسى عن ذلك بكل دقة عندما قال إن بني إسرائيل سوف يخرجون من مصر بكل قواتهم (عدد ٣٣: ١)، وما هي قوتهم إن لم تكن المسيح "قوة الله" (١كورنثوس ١: ٢٤)، الذي عندما صعد إلى فوق، إنما كان يمهِّد لصعودنا نحن، وهو جاء ليس من أجل احتياج خاص به، بل من أجل رحمته لكي يتم القول: "والذي نزل هو نفسه الذي صعد إلى

---

(١) لاحظ أن الكنيسة تصلي من أجل هذا في القداس: "يا رب المعرفة ورازق الحكمة .. من قبل صلاحك ودعوت بولس هذا ... وكما نتشبه بك أنت يا رئيس الحياة هكذا نحن أيضاً اجعلنا مستحقين أن نكون متشبهين في العمل والإيمان".

فوق" (أفسس ٤: ١٠)، هكذا نزل إلينا اللوغوس لكي نصعد نحن معه، وهذا يتحقق فينا نحن عندما تنتهي علاقتنا بعالم الخطية الشرير القاسي الذي كنا فيه نخدم أهداف الشيطان أي أهدافاً أخرى غير الله".

وهكذا يشرح أوريجينوس رحلة بني إسرائيل: "لقد كتب موسى رحلاتهم وتحركاتهم من أجل كلمة الله المسيح (عدد ٣٣: ١) حتى عندما نقرأ عن الأماكن التي توقفوا فيها نعرف ما الذي يعيق النفس عن التقدم، وعندما نقرأ عن المراحل التي مروا بها نعرف ما الذي ينتظرنا في رحلتنا نحو الملكوت حتى ما نستعد للطريق، وعندما نرى الطريق لا نهدر الوقت في الكسل والتراخي ونضيِّع حياتنا كلها لأنه لا يجب أن نتأخر بسبب أباطيل العالم، أو أن نجد سعادة في الأشياء التي تُرى أو التي تُسمع أو التي تُلمس أو التي تُشم أو التي لها طعم حتى لا تمر الأيام في اختبار كل هذه الأشياء وحتى لا يمر الوقت بدون أن نسرع لكي نقطع المسافة ونكمل الرحلة، ولكي لا نفشل في الطريق أو نشارك مصير أولئك الذين لم يكملوا الرحلة الذين سقطوا في البرية (عبرانيين ٣: ١٧). نحن في رحلة، ولقد جئنا إلى العالم لكي نمر من اختبار إلى اختبار، ومن قوة إلى قوة، ولا نبقى على الأرض لكي نتذوق الأشياء الأرضية فقط مثل الذي قال: "أهدم مخازني وأبني مخازن أكبر منها وأقول لنفسي: يا نفسي كل وأشربي لك خيرات كثيرة لسنين عديدة"، يا ليت الرب لا يقول لنا كما قال لذلك الإنسان: "يا غبي في هذه الليلة تؤخذ نفسك منك" وهو لم يقل في هذا النهار، بل في هذه الليلة؛ لأن هذا الإنسان قد صُرع ليلاً مع أبكار المصريين لأنه أحب العالم واشترك في حياة رؤساء هذا الدهر على ظلمة العالم (لوقا ١٢: ١٨-٢٠، أفسس ٦: ١٢). وهذا العالم يقال له الظلمة والليل؛ لأن الذين يعيشون فيه إنما يعيشون في ظلام الجهل ولا يتقبلون نور الحق، والذين لا يبدأون في رعمسيس لا يصلون إلى سكوت. أهـ ..".

والرحلة بكل ما فيها من أخطار وصعوبات هي رحلة المسيحي وليست رحلة بني إسرائيل وحدهم؛ لأنها لو كانت كذلك لما كُتبت في الكتاب المقدس، ولذلك يمزج أوريجينوس بين يشوع ويسوع وهما في العبرانية واليونانية ذات الاسم، بل ذات النطق. يقول اوريجينوس: "ها أنتم ترون جموع القوات المعادية والشياطين الشريرة التي تقاوم يشوع وجيش إسرائيل. كل هذه الشياطين قبل مجيء ربنا ومخلصنا امتلكت نفوس البشر وسادت على العقول والأجساد، ولكن عندما ظهرت رحمة الله ومخلصنا يسوع على الأرض (تيطس ٢: ١١) معلمةً إيانا أن نحيا في عفاف وقداسة في العالم مبتعدين عن دنس الخطية وذلك لكي تعود كل نفس وتملك من جديد حريتها وصورة الله التي خُلقت عليها في البدء، هنا تبدأ المعارك مع الأرواح الشريرة الذين قبل ذلك امتلكوا نفوس البشر. وفي البداية هذه الأرواح الشرير تنهزم، عند ذلك تهب أرواح أخرى شريرة لمساعدتها على حربنا وتتآمر معها على الشر وهم يهربون

من الصلاح، فإذا هُزموا مرة أخرى، فإنه يقوم معهم لنصرتهم عدد أكبر، وكلما نما شعب الله، ازداد تجمع الأرواح النجسة للحرب" (عظة ١٤: ٣ على سفر العدد).

والصراع ضد الشياطين معناه أن تصل النفس إلى النقاء، وفي النهاية إلى الملكوت، ولكنه ليس صراع الفرد ضد الأرواح الشريرة، إنه صراع المسيح نفسه ومعه كل الكنيسة، وهذا هو معنى الصليب "كل الذين صُلبوا مع المسيح يُشهرون الرؤساء والقوات ويفضحونهم جهاراً ظافرين بهم على الصليب، بالحري المسيح يكمل هذا فيهم" (عظة ٨: ٣ على سفر يشوع).

## التطهُّر بالنسك بداية المعرفة اللاهوتية

فاللاهوت ليس تأملات مجردة، نظاماً فلسفياً عقيماً، اللاهوت هو منهج الحياة، بل هو صراع من أجل الوصول إلى الله. ولذلك يؤكد أوريجينوس أن معرفتنا بالله هو "ثاؤريا" أي رؤيا "*Vision*"، وليست نوعاً من التدريب العقلي الذي يعتمد على قدرات الإنسان وذكائه. اللاهوت المبني على ذكاء الإنسان كله تخمين وإثارة، ولكن اللاهوت الذي يبدأ بالخروج من مصر هو اللاهوت الحقيقي الذي فيه صراع البرية وحرارتها ولكنه يؤدي إلى "الثاؤريا" (الرؤيا). وقد حدد المعلم العظيم نوعين من الرؤيا:

### النوع الأول:

هو هبة وتشجيع للنفس ودفع الرجاء في القلب لكي يتابع الإنسان رحلته، وهو اهتمام الإنسان بالمعرفة الروحية كعطية من الله، يقول أوريجينوس: "نبدأ بالفعل في ملاحظة كيف ننمو وكيف يولد فينا الرجاء، وكيف ننمو قليلاً قليلاً ونحن نتغذى بالرجاء دون أن نتعب بسبب نضالنا. هذه المرحلة هي مثل وقوف بني إسرائيل "بمجد ألوم"، وهي تعني "العظمة"؛ لأن النفس تصعد إلى فوق لمراقبة عظمة الأشياء العتيدة التي تمر أمامنا وتراها النفس، فتتجدد وتتغذى بهذا الرجاء العظيم وهي لا تزال في طريقها دون أن تستقر في حياة الكمال" (عظة ٢٧ على الإصحاح ٩ من سفر العدد).

هذه الرؤيا الروحية ليست إعلانات واضحة تماماً؛ لأنه بينما النفس في طريقها لاكتشاف الإسرار الإلهية، فإنها تتعرض لإغراء الشياطين ولخداع الأرواح النجسة، ولذلك فإن النفس يجب أن تطلب نعمة "التمييز" ... أي تميز الأرواح حتى لا تخدعها الشياطين. ومما لا شك فيه أن موهبة تمييز الأرواح هي عمل الروح القدس في النفس، يقول أوريجينوس: "لقد عبروا البحر الأحمر ثم نصبوا خيامهم في برية "سين" "*Sin*"، "سين" تعني العليقة والتجربة، هنا بعد العبور يشرق رجاء خيرات الدهر الآتي. ولكن من أين يأتي رجاء الخيرات الأبدية؟ من العليقة حيث ظهر الرب وتحدث مع موسى، وكان هذا أول ظهور لبني إسرائيل. ولكن ليس بدون سبب أن "سين" تترجم التجربة، ذلك لأن ملاك الظلمة يحول نفسه إلى ملاك نور (٢كورنثوس ١١: ١٤) ولا يجب أن نثق في أنفسنا وأن نحترس لكي نستطيع

أن نميِّز الأرواح وأن نتعرف على طبيعة الرؤيا نفسها لأنها قد تحتوي على تجربة مستترة؛ لأن يشوع بن نون عندما رأى الرؤيا سأل الشخص الذي ظهر له "هل أنت لنا أو لأعدائنا" (يشوع ٥: ١٣)، لذلك فالنفس التي تنمو تصل إلى تمييز الرؤيا وتبرهن بهذا على أنها "روحية" في تمييز كل الأشياء (١كورنثوس ٢: ١٥) ولذلك ضمن المواهب الروحية "تمييز الأرواح" كعطية من عطايا الروح القدس" (العظة ٢٧ على إصحاح ١١ من سفر العدد). فالمعرفة اللاهوتية ليست جمع أكبر قدر من المعلومات. إنها اقتناء التمييز الذي بدونه يمكن أن تضل النفس وتفقد معرفتها بالحق، فالصراع الروحي يعتمد ليس على معرفة مجردة، وإنما على اقتناء التمييز. والذين درسوا النسك والرهبنة يعرفون لماذا حدد النساك عطية التمييز كأفضل ما يناله الإنسان من الله. فبدون التمييز لا رجاء في معرفة روحية سليمة.

**النوع الثاني:**

يختلف تماماً عن النوع الأول، إنها ليست رؤى للتشجيع وغرس الرجاء، بل كما يقول أوريجينوس: "ونصل إلى "راثما أو فارما" "وراثما" "*Rathma*" هي الرؤيا المجيدة المستترة، إنها الرؤيا الكاملة، أمَّا "فارما" فهي تعني "الوجه المنظور". ولماذا لا تنمو النفس وتصل إلى عدم الاهتمام بآلام الجسد؟ لأنها لم تحصل على رؤيا كاملة، ولأنها لا تفهم المعنى الحقيقي لكل الأشياء. إنها تعرف بكل كمال عمق وحقيقة أسباب تجسد اللوغوس ابن الله والأشكال التي تغلف تدبير هذا السر. ولكن ذلك لا يكفي، بل على الإنسان أن ينمو لكي يرى وجه الله المشرق" (عظة ١٢ على سفر العدد).

ومما لا شك فيه أننا نرى هنا حقيقة الاتجاه السكندري في اللاهوت كما يعبِّر عنه أوريجينوس (اللاهوت – ثيئولوجيا – رؤية الله وإدراك أسباب التجسد والرموز التي تغلف تدبير التجسد). إن نمو النفس عبَّر عنه أوريجينوس بكلمة أخرى، وهي صعود النفس أي الارتفاع عن الأرضيات. لكن كل هذا لا يتحقق بدون الأتعاب والتجارب، ولذلك يعلق أوريجينوس على مرحلة من مراحل رحلة الخروج قائلاً: "وغادروا المياه المرة ونصبوا خيامهم عند "إيليم" حيث توجد ١٢ ينبوعاً من الماء و٧٠ نخلة، وهنا نرى أنه بعد المرارة والأتعاب والتجارب ما أرحب الأماكن التي ستصل إليها، وأنت لا تصل إلى النخيل إلاَّ بعد أن تتحمل التجارب المرة، ولا إلى الينابيع العذبة إلاَّ بعد أن تنتصر على الأحزان والمصاعب، ولكن ليست هذه هي نهاية الرحلة وتمام كل الأشياء، ولكن الله الذي يسود على كل التدابير للنفوس يضع في برنامج الرحلة، ومن وقت لآخر إنعاش النفس، ويجعل النفس تشكر لأنها وُهِبت قوة حياة وأنعشت وأصبحت قادرة على أن تعود إلى النضال ومواصلة بقية الرحلة" (عظة ١١ على إصحاح ١١ من سفر العدد).

نهاية الرحلة هو أن نصل إلى معرفة لاهوتية يقينية قائمة على الرؤيا. ولذلك لا يمكن أن نضع أوريجينوس بين المفكرين العقليين الذين فصلوا المعرفة عن الحياة أو الذين فصلوا بين اللاهوت والحياة النسكية. على العكس إنه يمثل قوة التسليم الرسولي السكندري الذي عبَّر عنه بكل أمانة ودقة لفظية نراها واضحة عنده أولاً، وبعد ذلك في كتابات النساك مثل إيفاجريوس ومكاريوس وقبل الكل عند أنطونيوس.

لقد شرحنا دور أوريجينوس لا لكي ندفع عنه الاتهامات التي وُجِّهت إليه بعد موته، ولكن لأن كثيراً مما تركه أوريجينوس في كتاباته هو جدير بالاهتمام والدراسة، فهو منهج سكندري لم يضعه هو، بل عبَّر عنه وسجَّله لنا، وقد كشفت الدراسات المعاصرة إن ما كُتب بعد ذلك لا يختلف عما سجله أوريجينوس، وبشكل خاص عن إتحاد النفس بالله في مراحل التطهر بالنسك. هذا كله دون التغاضي عن الأخطاء التي وردت في بعض كتاباته.

المبحث الثالث

# اللاهوت عند القديس أثناسيوس الرسولي
# ٢٩٦ – ٣٧٣م

## المعرفة اللاهوتية المغروسة في طبيعة الإنسان

إذا كان العلامة أوريجينوس قد اهتم بشرح رحلة النفس في لحظة خروجها من برية العالم ودخولها أرض الراحة أو أرض الموعد "الكنيسة" فقد اهتم القديس أثناسيوس بشرح أسباب تدنُّس الإنسان عبر الحضارة الإنسانية، كما اهتم بشرح الأسباب التي أدت إلى انحراف الإنسان ووقوعه في الوثنية، وهي خبرة متطرفة أساءت إلى الحياة الروحية الإنسانية وجعلت الطريق الروحي محفوف بالمخاطر والضلال. وقد أسهب أثناسيوس في شرح حقيقة الإيمان المسيحي، وكيف يعبِّر هذا الإيمان عن الحياة الإنسانية الحقيقية. فهو ليس دعوة لاعتناق أفكار خيالية لا جذور لها في الكيان الإنساني، بل العكس، إن معرفة الإنسان بالمسيح مبنية على جذور عميقة مدفونة في النفس تحتاج إلى تجديد ولإعادة خلق. فالمعرفة اللاهوتية ليست افتراضات أو تخميناً، بل هي انتباه إلى حقيقة كون الإنسان مخلوقاً على صورة الله. وتأكيد هذه الحقيقة الهامة مصدره الأساسي:

**١**– انتشار المسيحية في الوسط الوثني الذي يملك من القصص والعقائد ما يجعله ينافس أي ديانة وليس المسيحية فقط. لكن الخيال شيء، والعودة إلى حقيقة قدرات النفس المخلوقة على صورة الله موضوع آخر مختلف، فالإنسان في الوسط الوثني عليه أن يُقيِّم الوثنية تقييماً لاهوتياً صحيحاً، لكي يدرك الفرق الحقيقي بين المسيحية والوثنية.

**٢**– والعقيدة المسيحية ليست صياغة خيالية مصدرها خيال الإنسان مثل الفولكلور الشعبي الوثني، بل هي كشف عن حقيقة ما هو كائن في النفس الإنسانية عندما خُلقت، فأعطاها الخالق ملامح منه تمكنها من التعرف على خالقها.

فالإنسان المسيحي ليس إنساناً يعيش في أوهام الخيال، وإنما هو إنسان يعود إلى إدراك، حقيقة كيانه الذي أعلنه تجسد ابن الله، وهنا نصل إلى أهم ملامح المدرسة الإسكندرية، وهي أن دراسة العقيدة

المسيحية هي دراسة لحياة الإنسان وتطوره في نفس الوقت. هي دراسة لكيفية صيرورة الإنسان إلهاً، أي أن يعيش حسب صورة الله.

## التجسد إعلان عن الله والإنسان في وقت واحد

يعتبر كتاب "تجسُّد الكلمة" لأثناسيوس أخطر وأهم كتاب وضعته كنيسة الإسكندرية في تلك الحقبة الهامة. لقد شرح أثناسيوس أسباب التجسد، وعاد على الفور إلى أسباب خلق الإنسان، وإلى حقيقة هي أن الإنسان قادر على أن يعرف الله لأسباب واضحة، وهي أنه مخلوق على صورة الله.

يقول أثناسيوس: "عند التحدُّث عن ظهور المخلص بيننا يتحتم علينا التحدُّث عن أصل البشر لكي نعلم أن نزوله إلينا كان بسببنا وأن عصياننا استدعى تعطف الكلمة لكي يسرع الرب في إغاثتنا والظهور بين البشر" (٤: ٢).

وسوف نرى أن أثناسيوس وهو يتحدث عن مميزات المسيحية وخلاصة اللاهوت المسيحي، يؤكد لنا أن موضوع اللاهوت هو "معرفة الإنسان بالله". ويؤكد أثناسيوس أن هذه المعرفة هي هبة الله للإنسان. يقول أثناسيوس: "هل كان من الضروري أن ينال الإنسان إدراكاً عقلياً عن الله عندما خُلق؟ فإن كان هو غير أهل بعد السقوط لأن ينال هذه المعرفة، فكان الأولى ألا تُعطى له في البداية (عندما خُلق)" (١٣: ٣). فالإنسان وُهِبَ أصلاً أن يعرف الله، أو غُرسَت فيه هذه المعرفة عندما خُلِقَ على صورة الله. فالصورة الإلهية هي منحة من الله الذي منح "نعمةً أخرى، فإنه لم يكتف بمجرد خلقهم كما فعل بباقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض. بل خلقهم على صورته ومثاله وأعطاهم نصيباً في قوة كلمته، لكي ينالوا هذه القوة كما لو كانت انعكاساً للكلمة ويصبحوا بفضلها عاقلين" (٣: ٣)[1].

فاللاهوت، أي معرفة الله هو هبة الله للإنسان مُنحت له عندما خُلق وعندما تكونت في طبيعة الإنسان نفسه بذور هذه المعرفة أي الصورة الإلهية التي تجعل الإنسان قادراً على إدراك ذاته ثم التطلع الدائم إلى الأصل الذي تكوَّن على صورته، ويصبح بهذا قادراً على إدراك أو تفهم الله لأن غاية خلق الإنسان هي أن يعرف الله، حسبما نرى في "تجسد الكلمة":

* "عندما خلق الله ضابط الكل الجنس البشري ورأى ضعف طبيعتهم وأنها لا تستطيع من نفسها أن تعرف خالقها أو تُكوِّن أي فكرة عن الله على الإطلاق، تحنن الله على الجنس البشري على قدر صلاحه و لم يتركهم خاليين من معرفته لئلا يروا أن لا منفعة على الإطلاق من وجودهم في الحياة".

---

([1]) "Giving them a portion even of the power of his own word; so that having as it were a kind of reflexion of the word, and being made rationed".

* "لأنه أية منفعة للمخلوقات إن لم تعرف خالقها؟ أو كيف يمكن أن تكون عاقلة بدون معرفة كلمة الآب الذي أوجدهم في الحياة؟ .. ولماذا خلقهم الله إن كان لا يريدهم أن يعرفوه؟!".

* وتفادياً لهذا أعطاهم الله بصلاحه نصيباً من صورته – ربنا يسوع المسيح – وخلقهم على صورته ومثاله، حتى إذا رأوا تلك الصورة أي كلمة الآب، استطاعوا أن يكوِّنوا فكرةً عن الآب" (تجسد الكلمة ف ١١: ١ – ٣).

## المعرفة اللاهوتية لازمة لسعادة الإنسان:

يقول أثناسيوس إن الثيئولوجيا هي منحة أساسية لازمة لسعادة الإنسان "إذا ما عرفوا خالقهم عاشوا الحياة الحقيقية السعيدة المباركة" (١١: ٣). أي أن اللاهوت لازم للإنسان، ويصبح كل من يتجنب الثيئولوجيا يقتل غاية الله من خلق الإنسان أو لا يعترف بها. فغاية المعرفة اللاهوتية هي الوصول إلى الله، أي تحقيق الوصول إلى حياة إنسانية حقيقية.

فالإنسان يحتاج إلى هذه المعرفة الآتية من الخالق نفسه، لكي يتمكن من أن يعيش كإنسان، ويتمتع بكل الإمكانيات والقدرات التي وهبها الله للطبيعة الإنسانية، ولذلك فإن معرفة الله التي تأتي من الكون لابد وأن تخضع للإعلان في يسوع المسيح.

فأثناسيوس مثل كل الآباء الذين جاءوا من بعده لا يعتقدون بإمكانية وجود اللاهوت الطبيعي، حقيقي أنه يقول إن البشر "إذا كانوا لا يعنون بمعرفة الله من تلقاء أنفسهم استطاعوا بواسطة المخلوقات أن يعرفوا الخالق" (١٢: ١)، أو كما يقول في الفقرة التي تلي هذا الاقتباس "إن الإنسان يمكنه أن يدرك الأمور السماوية بالتأمل في الخليقة" (١٢: ٢)، ولكنه بكل وضوح يؤكد أنه بسبب المرض الذي دخل وأفسد كل ما في الإنسان بجانب غواية الشيطان "صار البشر مثل البهائم وسادت غواية الشيطان في كل مكان حتى حجبت معرفة الإله الحقيقي" (١٣: ١).

لو كان الإنسان في وضع عادي لتمكَّن من أن يتعلم الكثير عن الله من الخليقة ومن الكون بالذات ومن غيره من البشر، ولكن هذه النقطة لا تمر بسهولة ودون أن يلحظها أثناسيوس، إذ كانت العبادة الوثنية والمعتقدات الإلحادية قد سادت العالم .. "وإن كانت معرفة الله قد أُخفيت، فمَن ذا الذي كان يقوم بتعليم العالم عن الآب، إن قال أحد إن هذه مأمورية الإنسان أجبناه إنه لم يكن في مقدور الإنسان أن يجتاز إلى كل مكان .. كما أنه هو نفسه يعجز عن مقاومة غواية الأرواح الشريرة. ولعل أحداً يقول إن الخليقة كانت كافية. ولكن لو كانت كافية، لما حدثت كل هذه الشرور الجسيمة مطلقاً. لأن الخليقة كانت موجودة فعلاً، وكان البشر لا يزالون يتخبطون في نفس الضلالة عن الله، فإلى مَن إذن كانت الحاجة إلاَّ إلى الكلمة" (١٤: ٣، ٥، ٦). وهذا يعني أن سقوط الإنسان هو انهيار علاقة

الإنسان بالله كما يقول كل الآباء وأثناسيوس بالذات، فالسقوط هو الذي أدى إلى الوثنية. كان الإنسان قبل السقوط يتأمل الله، ولكن ماذا حديث بعد السقوط؟ "تركوا الله كلية واظلمَّت أنفسهم لا بمجرد ترك فكرهم عن الله، بل أيضاً باختراعاتهم الكثيرة التي اخترعوها لأنفسهم، صوَّروا لأنفسهم التماثيل بدل الحق .. حوَّلوا مجد الله إلى الخشب والحجارة وكل الأشياء المادية وإلى الإنسان" (١١: ٤)، لأن الذي حلَّ مكان الله كان الكون أو الناس الذين صاروا ليس مجرد أبطال فقط، بل آلهة. وعندما احتلت كل هذه مكان الله في نفس الإنسان لم يعد الإنسان محتاجاً إلى نظام فلسفي "*system*" ينقذه من ضلاله، بل إلى قوة الله القادرة على تجديد النفس أو "الميلاد الثاني" (يوحنا ٣: ٣، ٥)، وهو ما يشرحه أثناسيوس بأنه: "إعادة ميلاد النفس وتجديد خلقتها على مثال صورة الله" (١٤: ٢). كل هذا كان ضرورياً لأن البشر "رفضوا التأمل في الله وانحطت نظرهم إلى أسفل كأنهم قد غاصوا في العمق باحثين عن الله في الطبيعة وفي عالم الحسيات" (١٥: ٢). فالثيئولوجيا بدأت بالتجسد – بشكل خاص – بسبب ما أصاب الطبيعة الإنسانية، وهو ما جعل الإنسان محتاجاً لأن يعرف الله بشكل يتناول تأسيس معرفة حقيقية وبشكل قريب من إدراك الإنسان، فجاء الإله المتجسد، وأعلن عن نفسه "المعلم الصالح الذي يُعنى بتلاميذه ويتنازل إلى مستواهم، إن رأى البعض منهم لم يستفيدوا بالعلوم التي تسمو فوق إدراكهم يقدم إليهم تعاليماً أبسط" (١٥: ١).

## تجسُّد الكلمة هو بداية اللاهوت الحقيقي:

"إن مخلص الكل المحب كلمة الله أخذ لنفسه جسداً، وكإنسان مشى بين الناس وقابل إحساسات كل البشر في منتصف الطريق حتى يستطيعوا أن يتعرفوا على الله في الجسد، وأن يدركوا الحق بما يعلن الرب في جسده ويدركوا الآب به" (١٥: ٢). ولذلك فالهدف من المعجزات هو إظهار وتأكيد لاهوت الكلمة وسلطانه على الطبيعة والشياطين. كل هذا هو الحق الذي ظهر في الجسد، والذي لم يعد نظريات في الفلسفة أو غيرها. وهذا هو الخبر السار في الإنجيل "الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر". فالخبر هو التجسد "أمَّا النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا" (يوحنا ١: ١٧ – ١٨). الحق إذن ليس مجرد تخمين أو دراسة خيالية لموضوعات عقلية. الحق ظهر في الجسد، أي الابن الوحيد الذي عرَّفنا بالآب، والذي جعل هذه المعرفة ظاهرة بكل وضوح في الجسد. وقد أحب أثناسيوس كثيراً نص الإنجيل: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩)، لأن الابن أعلن الآب، ولذلك لم يكن الإنسان محتاجاً إلى اللاهوت الطبيعي حتى يؤسس علاقته بالله أي لم يكن محتاجاً إلى مجرد ظهور الكلمة "لأنه لم يفكر في مجرد التجسد أو مجرد الظهور لأنه لو أراد أن يظهر فقط لاستطاع أن يتمم ظهوره الإلهي بطريقة أخرى أسمى وأفضل" (٨: ٣). كان الإنسان محتاجاً إلى علاج

آخر ليس مجرد معرفة أو إعلان عن الله في الجسد، بل إلى شيء آخر يفوق كل هذا. كان الإنسان محتاجاً إلى الكلمة نفسه أي إلى لاهوت الكلمة "وإذا لم يكن التجسد هو الطريقة المثلى فكيف كان ممكناً للكلمة – وقد اختار الجسد ليستخدمه أداة – أن يُظهر نفسه؟ ومن أين كان سيجد الجسد إلاَّ من بين البشر الذين هم في حاجة إلى لاهوته" (٤٤: ٣). وكان احتياج الإنسان إلى لاهوت الكلمة موضوعاً أساسياً عند أثناسيوس، وكانت الظروف التي واجهتها الكنيسة في صراعها ضد الوثنية ضرورية جداً لتأكيد انتماء المسيحية لحقيقة خلق الإنسان على صورة الله، وهو ما استلزم مجيء الكلمة وإعادة خلق الإنسان، لكن من المهم جداً أن نؤكد أن الثيئولوجيا هي حقيقة اشتراك الإنسان في لاهوت الكلمة، وهي ليست تخميناً أو تصوراً بشرياً أو فلسفياً عما يمكن أن يصل إليه العقل البشري، ولكن الثيئولوجيا هي عبارة أثناسيوس المشهورة "لأنه صار إنساناً لكي نصير نحن آلهة" (٥٤: ٣) .. أو حسب عبارة أخرى لأثناسيوس نفسه "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له". هذا التطور والكمال الذي يصل فيه الإنسان إلى حياة عدم الفساد هو لُب اللاهوت المسيحي؛ لأن الإنسان المائت يصل إلى حياة عدم الموت، وهو المقصود بتأليه الإنسان. وقد شكَّل هذا أحد عناصر رد الأرثوذكسية على الهرطقة الأريوسية وهي اشتراك الإنسان في طبيعة الله وحياته من خلال كلمته المتجسد، وسوف ندرس هذه النقطة في مكانها المناسب.

## دور أثناسيوس البارز:

إن أثناسيوس من أهم العلامات في تاريخ اللاهوت المسيحي. وقد ترك بصماته واضحة أينما توجَّه الإنسان ليدرس شيئاً عن الله أو عن الإنسان. ولذلك علينا أن نلخِّص أهم النقاط التي ذكرناها:

**أولاً**: اللاهوت "ثيئولوجيا" هو إعلان الله عن نفسه، وهو إعلان مؤسَّس على محبة الله. والدليل على محبة الله هو خلق الإنسان، فهو العمل الإلهي الذي يبرهن للإنسان نفسه ما هي محبة الله.

**ثانياً**: اللاهوت هو محاولة الإنسان كصورة الله أن يقترب من الله لكي يتمثل به. وهذه الفكرة هي جوهر كتاب "تجسُّد الكلمة"، بل هي لُب عقيدة التجسُّد نفسها. لقد شارك الابن الإنسانية لكي تشترك الإنسانية في ما يمكن أن يناله الإنسان من الله أي "شركة الطبيعة الإلهية".

**ثالثاً**: اللاهوت ليس ضرورة لحياة الإنسان ومستقبله الأبدي فقط، بل اللاهوت لا يمكن فصله عن الكيان الإنساني، فهو ليس علماً من العلوم مثل الطب والصيدلة ... الخ، بل "علم حياة الإنسان" وطريق معرفة الإنسان بالله وبداية الحياة السعيدة، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة إنسانية حقيقية ما لم يكن لاهوتياً بالحق.

**رابعاً**: تصنيف المعرفة اللاهوتية:

إذا كان العلامة أوريجينوس قد قسَّم العارفين والمعرفة، وأبرز الجوانب الأساسية في حياة النسك وفهم الكتاب المقدس والانتقال من المعنى الحسي إلى المعنى الروحي، فإن أثناسيوس انشغل بما يحدث في داخل اللاهوت نفسه، أي المعرفة اللاهوتية، فصنَّف الثيئولوجيا إلى صنفين: الثيئولوجيا، أي معرفة الله، ثم "الإيكونوميا "οικονομια"، أي "التدبير"، وهو الوضع الإلهي الخاص الذي مرَّ به الابن عندما تجسَّد. ويميِّز أثناسيوس بين الثيئولوجيا والإيكونوميا، فالأولى هي معرفة الله بشكل يتعدى الزمان والمكان والحدود، هي محاولة إدراك ذات الله. أمَّا الثانية، فهي الوضع الخاص بالابن المتجسد والذي اقتضى فيه خلاص الإنسانية كل تلك الإجراءات غير العادية. هذا التمييز على قدر كبير من الأهمية، وسوف نعود له في فصل خاص، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن التدبير موضوع خاص بالابن الوحيد في الجسد، وهو يقتضي أن نفهم لماذا صارت الأمور على النحو الذي تصفه الكتب المقدسة.

فالنص المشهور "الرب قناني أو طريقه من قبل أعماله منذ القدم" (أمثال ٨: ٢٢) – وهو أحد النصوص التي استخدمتها البدعة الأريوسية – لا يتحدث "عن جوهر الابن، بل عن التدبير الذي حدث من أجل خلائق الكلمة" (ضد أريوس ٢: ٢٠ – ٥١).

هذا التدبير هو عمل الابن في الزمان فقط؛ لأنه لا يشرح الحقيقة الأزلية للابن، ولا يتناول الحديث عن علاقة الآب بالابن قبل التجسد. وللقديس أثناسيوس نصٌ هام عن الإيكونوميا أو التدبير: "آدم خُلق، لا لكي يعمل في الأرض، بل ليكون إنساناً أولاً لأنه بعد خلقه تقبَّل وصية العمل في الأرض. ونوح خُلق ليس من أجل الفُلك، ولكن لكي يوجد ويحيا ويصبح إنساناً؛ لأنه بعد ذلك تقبَّل الوصية لكي يجهِّز الفلك ... وكذلك موسى العظيم خُلق إنساناً أولاً وبعد ذلك وضع عليه مسئولية قيادة الشعب. وفي مجال التدبير علينا أن نفهم أن الكلمة لم يُخلق، وإنما "في البدء كان الكلمة"، وأنه جاء بعد ذلك من أجل خلائقه ومن أجل التدبير الخاص بهم، ولذلك قبل الخليقة كان الابن كائناً منذ الأزل ... ولكن عندما تم الخلق واستدعت الحاجة بعد ذلك إلى تدبير تجديدهم، هنا أخذ الكلمة على عاتقه أن يتزل ويتشبَّه بخلائقه" (ضد أريوس ٢: ٢٠، ٥١).

وفي الواقع يُعد الفصل ٢٠ من المقالة الثانية ضد أريوس من المقاطع الغنية بالحديث عن التدبير، والتي يشرح فيها أثناسيوس كل ما يخص هذا التدبير، **لكن يهمنا هنا أن نؤكد أن الإيكونوميا هي الثيئولوجيا الخاصة بالابن في الجسد، وهذه نقطة في غاية الأهمية**؛ لأن القواعد التي تحكم الثيئولوجيا في معناها الواسع العريض، أي الحديث عن الثالوث، هي ليست مثل القواعد التي تحكم الحديث عن الإيكونوميا، أي تدبير الابن أي تجسده، وهذا ما تركه لنا هذا المعلم العظيم، وهو جدير بأن يستقر في وعينا لكي ندرك حقيقة الإيمان المسيحي وأهميته في نمو الإنسان.

## الحياة الروحية الصحيحة هي أساس معرفتنا اللاهوتية:

ومثل أوريجينوس وباقي الآباء يقول القديس أثناسيوس: "إن دراسة الكتب، ومعرفتها المعرفة الحقيقية يتطلبان حياة فاضلة، ونفساً طاهرة، والفضيلة التي بالمسيح حتى إذا ما استرشد بها العقل، وأنار بها طريقه، استطاع أن يصل إلى ما يصبو إليه، وأن يدرك ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تتعلمه عن كلمة الله. لأنه بدون الذهن النقي ومماثلة سيرة القديسين لا يستطيع الإنسان أن يدرك أقوال القديسين ... وهكذا يجب على من يريد أن يدرك فكر الذين يتكلمون عن الله أن يبدأ بغسل نفسه وتنظيفها، بتغيير مجرى حياته، ويقترب إلى القديسين أنفسهم بالاقتداء بأعمالهم، حتى إذا ما اشترك معهم في السلوك في الحياة المشتركة، استطاع أن يفهم هو أيضاً ما أعلنه الله لهم، ومن ثم – إذ يكون قد ارتبط بهم ارتباطاً وثيقاً – ينجو من الخطاة ونارهم في يوم الدينونة" (تجسد الكلمة ف ٥٧: ١ – ٣).

## اللاهوت، أو الثيئولوجيا يُدرك بالمقارنة بالهرطقات:

لا يكتفي الآباء بالكلام عن المعرفة التي ننالها بواسطة الإيمان، بل يؤكدون ضرورة المقارنة بين عقائد المسيحية وغيرها، لكي ندرك الفرق الدقيق بين المسيحية وغيرها من الديانات.

يقول القديس غريغوريوس الثيئولوغوس: "علينا أن نتجنب الاتجاهات الثلاثة المنحرفة في الثيئولوجيا وهي: الإلحاد، واليهودية، وتعدد الآلهة، وبعد ذلك هرطقة سابيليوس، وهي الاتجاه المنحرف الأول والشائع[١] وهرطقة أريوس وهي الاتجاه المنحرف الثاني[٢] أمَّا الاتجاه الثالث فهو اتجاه أشباه الأرثوذكس الذين لا زالوا معنا[٣]. وما هو موقفي أنا؟ هل أستطيع أن أتجنب الخطر الموجود في هذه الاتجاهات الثلاثة مكتفياً بروح التقوى وبدون أن أسقط في الاتجاه الجديد الذي يتضمن التحليل والتركيب في طبيعة الله، وهو الذي يقود إلى إلحاد سابيليوس؛ لأن الإدعاء بأن الثلاثة ليسوا واحداً يعني أن الثلاثة ليسوا أقانيماً بالمرة، كما أن الأشياء التي تتحول وتختلط ببعضها يفقد كل منها خواصه الأساسية مما يقضي على الثالوث، أو أن لنا إلهاً شاذاً له طبيعة مركبة مثل الكائنات الخرافية التي تولد في المخيلة[٤] وأنا أيضاً أبتعد عن جنون الأريوسية، وأريوس الذي يدَّعى أن الله هو تعدد لطبائع مختلفة منقسمة، وهذا هو الانغماس في فقر يهودي، فلماذا نخاف من وحدة الجوهر، هل سيقضي الابن على

---

(١) أي إنكار إعلان الله عن نفسه في ثالوث وهو حسب تقدير الآباء نوع من الإلحاد.

(٢) عندما أنكر أريوس لاهوت الابن، كان هذا بمثابة عودة إلى اليهودية.

(٣) عدم الإيمان بوحدة جوهر اللاهوت معناه الاعتقاد بتعدد آلهة.

(٤) الاتجاه الجديد هو محاولة تركيب أو توليف الهرطقات بحيث يمكن جمعها معاً في اتجاه واحد بهدف المصالحة بين كل الفرقاء وهو ما جعل القديس غريغوريوس يرى في الاتجاه الجديد التناقض التام الذي لم يدركه الذين قاموا بتوليف الأفكار المتعارضة، لأن هرطقة سابيليوس لا يمكن مصالحتها مع الأريوسية وإلاَّ أدى هذا إلى اختراعات خرافية للقضاء على التناقض.

الآب؟! أو أننا نرتب ثلاثة كائنات متعارضة بتحديد الإلوهية في الآب (غير المولود) وحده كما لو كان أريوس يخاف أن يضمحل إلهنا إذا كان ثالوثاً، فتصوَّر أن الحسد والغيرة موجودة في الطبيعة الإلهية. ولذلك هي متعارضة مع بعضها ... كل هذه هي صورة من الوثنية" (مقالة ١١: ٣٧ فقرة ٢١٢). فالمقارنة بين المسيحية والهرطقات لازمة لكي نفهم الإيمان الذي نؤمن به. فالثيئولوجيا ليست معرفة بالله فقط، ولكنها مقارنة مع الهرطقات لاكتشاف الفرق في الهدف.

## الثيئولوجيا تدرُّج في فهم التدبير، والتدرُّج في فهم التدبير يقود إلى الثيئولوجيا:

بالمقارنة بين العهد القديم والجديد والوثنية يمكننا أن ندرك أن المشكلة الرئيسية ليست مشكلة معرفة بل انحراف المعرفة.

يقول القديس كيرلس عمود الدين: "إن الوثنيين فقدوا صلتهم بالله عندما سقطوا في الشر، وفقدوا معرفة ذاك الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم" (تفسير يوحنا فصل ٩ على يوحنا ١: ١١). وهكذا المعرفة الطبيعية التي غرسها الله في الإنسان صارت في حاجة إلى تجديد. هذا التجديد بدأ في العهد القديم وتم في المسيح. ومجيء المسيح لبني إسرائيل هو كمال للإعلان القديم، وهذا يؤكده القديس كيرلس عمود الدين في شرحه لنص (يوحنا ١: ١١) "إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله" بوجود موضوعين أساسيين في اللاهوت ويشرح العلاقة بينهما قائلاً: "إن العالم لم يعرف الذي ينيره أي الابن الوحيد ... ولذلك بعد أن شرح يوحنا خطايا بني إسرائيل الرهيبة، قدَّم بعد ذلك بكل وضوح خطايا الأمم أيضاً، وأعلن أن مرض الجهل وعدم الإيمان قد ساد العالم كله، وبعد أن يتحدث عن اللاهوت أي ما يخص الطبيعة الإلهية، ويميِّز بين اللاهوت وبين التدبير في الجسد، فيتزل من الأزل أي الحديث عن الطبيعة الإلهية إلى درجات شرح التدبير في الجسد الذي أتمه الابن لأجلنا" (شرح يوحنا كتاب ١: فصل ٩ على يوحنا ١: ١١ مجلد ٧٣: ١٤٩).

وهكذا بتنازل الله نتدرَّج من معرفة التدبير إلى الثيئولوجيا، ويصبح التجسد – كإعلان عن الله – يعني بشكل أساسي أن نرتفع إلى إدراك حقيقة الله.

# الفصل الخامس

# خصائص اللاهوت المسيحي

## تمهيد:

في مقدمة هذه الدراسة تعرَّفنا على مضمون كلمة "لاهوت"، فهي وإن كانت – لغوياً – مأخوذة من السريانية، ثم اليونانية إلاَّ أنه لا مجال لاستعمالها إلاَّ في المسيحية وحدها. فالمعنى الدقيق لهذه الكلمة يستند أساساً على **وجود علاقة وشركة بين الله والإنسان**، وليس مجرد حشد معلومات أو موضوعات تتحدث عن صفات الله ونسمي ذلك لاهوتاً!

اللاهوت يُستقى من الإعلان الإلهي، وتأثيره في طبيعة البشر ووجودهم ومصيرهم نظراً لاختبار البشر لهذا الإعلان ... وسوف نورد هذه الحقيقة بأكثر اتساعاً وتفصيلاً ... وبناءً على هذا، فإنه في المسيحية وحدها يوجد ثيئولوجيا. ولم يظهر في اليهودية علم لاهوت، على الرغم من إعلان الله عن نفسه، فقد اقتصرت علاقة الله مع الإنسان في اليهودية على إعلانات الله عن نفسه بشكل رمزي، ورغم أنه يقول عن نفسه "إله إبراهيم وإسحق ويعقوب"، وأنه أقام عهده مع البطاركة، إلاَّ أنه لم يأخذ جسداً إلاَّ في العهد الجديد. ويظل إعلان العهد القديم قاصراً على ظهورات ونبوءات ورؤى، وهذا هو شكل اليهودية كمرحلة من مراحل علاقة الله مع الإنسان حيث اقتصرت اليهودية على هذا الشكل الرمزي فقط.

وهذه الإعلانات تظل مبتورة وناقصة ما لم يأتِ الوقت الذي فيه يتحقق المضمون والجوهر الذي انطوت عليه، والهدف المنتظر من ورائها .. ولكن اليهودية وإن توقفت عند هذا الشكل، إلاَّ أن المسيحية امتدت إلى الظهور الحقيقي والإعلان المطلق والنهائي الذي فيه تمت المواجهة والتعرُّف الحقيقي في اللقاء الذي جمع الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية في إتحاد كامل. وهذا الإعلان هو التجسُّد. وبالتالي صارت المسيحية كشفاً لمضمون إعلانات العهد القديم وترجمةً حقيقية واضحة لحقائق اليهودية.

من كل ما تقدم يتضح لنا أنه لا يوجد علم لاهوت في اليهودية، بل يوجد في اليهودية حقائق تحمل مضموناً معيناً اكتملت حقيقته وصورته وجوهره في المسيحية.

أمَّا المسيحية وهي تؤمن بأن الله أعلن عن نفسه للأنبياء، إلاَّ أنها تقول إن الإعلان النهائي تمَّ بشكلٍ خاص ونهائي في الإنسانية نفسها عندما تجسَّد الابن وأقام الكنيسة جسده[1]. ولهذا السبب لا تؤمن المسيحية بما يقال عن الله إلاَّ إذا كان يتفق مع إعلانه في التجسُّد، وبهذا يمكننا أن **نلخص خصائص اللاهوت المسيحي** على هذا النحو:

## أولاً: المسيح مركز وقلب اللاهوت

التجسُّد هو النقطة الأساسية التي بُنى عليها الإعلان الإلهي، والإعلان الذي نقصده ليس مجرد رؤيا أو نبوءة أو تعبير عن صفة، ولكن الإعلان المقصود هنا هو الإعلان عن شخصية الله. ولذا فقد صاحَب التجسُّد أشياء أخرى منها الإعلان عن طبيعة الحياة الإلهية وطبيعة العلاقة مع الخليقة: "من رآني فقد رأى الآب" والفعل "يرى" كما مرَّ بنا يعني "المعرفة والإدراك" وذلك منحة وعطية إلهية، وبالتالي ارتبطت معرفة الابن بمعرفة الآب، فكل من يعرف الابن المتجسد، فهو يعرف الآب أيضاً. هذا الإعلان أعطى قيمةً وتفسيراً حياً لكل الإعلانات السابقة لا سيما ظهورات الله في العهد القديم، وظهور الله في الجسد أعطى منهجاً جديداً لتفسير العهد القديم وحوَّله إلى حقيقة تُفهم وتُشرح في المسيح.

لقد أعلن الله عن نفسه في يسوع المسيح، وبالتالي صار كل ما في العهد القديم مؤشرات وإعلانات تهدينا على طريق هذا الإعلان. ويمكننا أن نعبِّر عن هذه الحقيقة بصورة أخرى، فنحن لكي نكون على وعي وإدراك بعمق العهد القديم علينا أن نبدأ بالعهد الجديد راجعين إلى الوراء أي إلى الإشارات والنبوءات والتاريخ. وهذا لا يمنع أن نقرأ الكتاب المقدس من التكوين، ولكننا لا نستطيع أن نستوعب أو ندرك ما في الكتاب المقدس ما لم نبدأ بحياة المسيح كهدف لمقاصد الله وكغاية للنبوءات.

## ثانياً: التجسد إعلان عن شخص الله

يمتاز اللاهوت المسيحي بأنه يهدف إلى إقامة علاقة تربط الإنسان بالله بناءً على إعلان الله عن شخصه، وقد تعرَّضنا لهذه النقطة في بداية الدراسة عندما درسنا القديس أثناسيوس ... الكون يعلن عن قدرة الله وقوته، ولكننا في المسيحية لا نبحث ولا نتحدث عن صفات الله كصفات مجردة خاصة بجوانب شخصية الله مثلما ندرس تكوين شخصية الإنسان، بل نتحدث عن صفات الله التي تقوم عليها علاقته بنا، أي أن صفات الله أُعلنت لنا كشيء مرتبط بحياتنا وعلاقتنا معه، هذا من ناحية ...

---

(١) تأسيس الكنيسة معناه أن إعلان الله عن ذاته في المسيح هو إعلان دائم، وهذا ما جعل الكنيسة تحمل اسم أداة الإعلان أي "جسد المسيح".

ومن ناحية أخرى فإننا نتحدث ونتعامل مع الله نفسه. إنَّ جوهر الإعلان الإلهي لا يقوم على صفات الله، بل على الله نفسه، ومن خلال معرفتنا بالله نستطيع أن نصفه بصفات تعبِّر عن تذوقنا وخبرتنا لعلاقته معنا، وهذا ما يجعلنا نصف الله بصفات كثيرة تعبِّر عن اهتمامه بنا مثل الرحمة والمحبة والعدل والحكمة. ولكن هذه الصفات على أهميتها ليست هي جوهر الإعلان ولا هي الهدف والغاية من الإعلان، بل هي وسيلة إعلان، أمَّا الإعلان الحقيقي فهو عندما كشف الله عن ذاته.

والحديث عن الله هام وشاق، وقد عرَّفناه سابقاً على أنه ثيئولوجيا، والثيئولوجيا حديث عن "الثالوث"، وهذا يجعل دراستنا للثالوث هي دراسة وفهم لحقيقة ذات الله وحقيقة علاقته بنا.

لم يكن في مقدورنا أن نتكلم عن الثالوث – الثيئولوجيا الحقيقية، أو طبيعة الحياة الإلهية إلاَّ عندما حدث التجسُّد. لقد ظهر الثالوث بأشكالٍ رمزيةٍ في العهد القديم، ويمكننا أن ندرك ذلك حينما نقارن بين صورة حلول الله في الخيمة وبين تعبيرات الملاك للعذراء حينما بشَّرها بالميلاد العجيب .. في خيمة الاجتماع ظهرت السحابة تظلل المكان، وهي تُعرف "بالشاكيناه" وتعني بالعبرية الحلول والحضور، ونفس التعبيرات استخدمها الملاك "الروح القدس يحلُّ عليك، وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله" (لوقا ١: ٣٥).

والشاكيناه هي خلفية تعبير يوحنا "الكلمة صار جسداً وسكن أو خيم بيننا". هذه السكنى هي اتخاذه إقامته بيننا في جسد مثل جسدنا (تجسد الكلمة ٥: ٣).

إلاَّ أن هذا الظهور السري أو الخفي ظهر بشكل فائق في معمودية الأردن، وهو أول ظهور علني للثالوث يعبِّر عن ارتباطه بخلاص الإنسان. فقد كان الابن يرتب طريق الخلاص، وجاء واعتمد لكي يؤسِّس المعمودية. وظهور الثالوث بهذا الشكل جعل العقيدة الخاصة بالله مرتبطة بقوة ونعمة التبني في المعمودية؛ لأن ظهور الثالوث في المعمودية كشف لنا عن حقيقة الأبوة "هذا هو ابني"، وبالتالي صارت المعمودية دعوة للتبني. ظهرت أبوة الله في مناسبة ظهور ابن الله، ومن خلال ظهوره على حقيقته، أي ظهوره كثالوث، أعلن لنا أنه تبنانا في ابنه وبالروح القدس. هكذا أعلن الله عن نفسه أولاً في التجسُّد، ويكمُل الإعلان في المعمودية، وبعد ذلك في الصليب والقيامة ومجيء الروح القدس.

كيف يمكننا أن نتحدث عن أبوة الله لنا دون أن يكون في الله الأبوة، أي أقنوم الآب؟ وكيف يمكننا أن نتحدث عن بنوة الإنسان لله ما لم يكن في الله نفسه ما يجعل هذه البنوة ممكنة وحقيقية؟ هذا ما يجعلنا نؤمن بأن الأقنوم الثاني هو "الابن". ولأن البنوة روحية وليست مادية ولا جسدية على حد تعبير القديس يوحنا الرسول "أمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاً الله أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله"، هذه البنوة يحققها لنا روح الابن، أي الروح القدس الأقنوم الثالث.

مما تقدم يمكننا أن نستخلص أن علاقتنا مع الله هي علاقة شخصية معه وليست مع صفاته، وهذه العلاقة لم تكن ممكنة بدون التجسد إذ أنه من خلال التجسد مارَسَ الثالوث القدوس حقيقة حبه لنا وارتباطه بنا.

وبالتالي، فإننا حينما ندرس عقائد المسيحية، سنجدها تهدف إلى تأسيس علاقة شخصية بين الله والإنسان، بل إن كل عقيدة قائمة على هذا الأساس دون غيره ...

ويمكننا أن ننتقل من الثالوث إلى المعمودية أو الإفخارستيا أو قيامة الجسد، لنجد أن الإيمان بالثالوث هو أساس المعمودية، وأن المعمودية هي علاقة شخصية بالثالوث، وأن الإفخارستيا هي وليمة الإتحاد السري بالمسيح، وهي علاقة شخصية أيضاً، بل حتى قيامة الجسد، هي بعثٌ لجانب أساسي في شخصية الإنسان وهو الجسد وبداية علاقة أعمق في الأبدية.

إن التجسُّد هو اللون أو الصبغة التي تتلون بها كل عقيدة في المسيحية؛ لأن التجسُّد كان يهدف أساساً إلى إقامة علاقة مباشرة بين الله والإنسان، علاقة بشخص أو علاقة شخص الإنسان الصورة "*Image*" بشخص الله أي الأصل ... كان التجسد – إذن – وسيلة للإعلان عن الله كصاحب مبادرة لإقامة شركة مع الإنسان.

## ثالثاً: المعرفة والاختبار وحدة واحدة

يمتاز اللاهوت المسيحي بأنه اختبار لحقيقة يتذوقها الإنسان، وليست نظريات مطروحة للبحث والتأمل العقلي. ولذلك يقول الرب يسوع: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة"، فهو لم يأتِ بفكرة عن الله، أو نظرية عن أصل النفس البشرية، أو نظرية عن نظام المجتمع وتوزيع الثروة، والملكية الخاصة أو العامة .... كل هذه لا مكان لها في اللاهوت المسيحي مطلقاً. لقد جاء المسيح لكي يعلمنا عن الله، فأعلن الآب، ومن منَّا لا يعرف الأبوة. وعلَّمنا عن طبيعة الله، فوصفها بأنها محبة وعطاء "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"، فهي ليست محبة كلامية، بل محبة تعطي وتسهم في خلاص الإنسان من براثن الشر والموت، ومحبة تسعى وراء الإنسان، لا تقف في انتظار عودة الإنسان إلى الله، بل تطلبه بشكل دائم "ها أنذا واقف على الباب وأقرع".

وعندما أكدت المسيحية أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله، فهي لم تكن تتكلم عن نظرية في أصل الإنسان، ولكنها كانت تعني علاقة الله بالإنسان على أساس هبة الله الفائقة في الخلق. فقد شاء الله أن يطبع صورته في الإنسان، ولما كان الله قادراً على أن يعطي صورته لكل إنسان، صار هذا العطاء غير محدود ولا قاصر على فئة دون فئة، بل يشمل كل البشر، وهذا تأكيد على وحدة الجنس البشري واشتراك كل البشر في أصل واحد هو الصورة الإلهية، وتأكيد على أن الإنسان – مهما

كان – هو مساوٍ لغيره من البشر لا يعلو عليهم بحكم طبيعته، بل يشترك مع الكل في طبيعة واحدة. والعلاقة هنا بين الأصل والصورة، الله والإنسان، ليست قائمة على فكر الإنسان وخياله، بل قائمة على هبة الله للإنسانية. ولذلك كتب آباء الكنيسة الأوائل مثل أكليمنضس وترتليان بأن "النفس مسيحية أصلاً"، أي أنها تجيء إلى العالم مخلوقة مؤهَّلة للحياة المسيحية. فالله عندما خلق النفس، خلقها على المستوى الذي يمكن فيه أن تتجاوب مع طبيعة الله. لقد هيَّأها بإمكانيات تعينها على إدراك الحياة مع الله، وأعطاها نعمة التعرُّف على الله. فالله هيَّأ النفس فعلاً لأن تحيا في مستوى العمل الإلهي، وأقرب دليل على ذلك **أن البشرية حينما فشلت في الحياة مع الله، تجسَّد الابن وعاش كإنسان ليمنح الإنسان إمكانية الحياة مع الله من جديد**، والتجسُّد يؤكد لنا أن الإنسان صورة الله، حتى وهو ساقط، لا يفقد هذه الصورة، بل تظل تحتاج إلى التجديد.

فليست دعوة المسيحية للإنسان بعيدة عن القدرات التي أودعها الله في الإنسان، خاصةً وأن الله سانَد هذه القدرات ودعَّمها بنعمته ... إن الدعوة المسيحية ليست خيالية أو سراب، ولا هي إقليم في جمهورية أفلاطون، ولكنها منهج حياة. ومادة هذا المنهج تتناول واقع الإنسان وخبرته ومصيره ومستقبله الأبدي.

**وإذا كانت النفس قد حصلت على عطية صالحة من الله تعينها على أن تحيا الحياة المماثلة لشركة الحياة الإلهية، فإنه لم يكن هناك من مثلٍ أعلى أمام النفس إلاَّ الله نفسه** "كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم في السموات هو كامل"، "كونوا قديسين لأني أنا قدوس" ... هذه الدعوة تقدِّم الله كمثل أعلى وهدف يسعى الإنسان إلى الوصول إليه، وعلى الإنسان إذن أن يكون دائم التطلع إلى الله ليتشبه به في الحياة. وهذا ليس تعظيماً ولا إعلاءً لمستوى الإنسان عن واقعه كإنسان، ولكن تأكيداً للإمكانيات التي منحها الله كهبة للإنسان يصبغ حياته بها ... ومسعى الإنسان ينبغي أن يكون النمو في إدراك ذاته كصورة لأصل غير محدود هو الله.

إن قضية وجود الشر من القضايا التي يدور حولها الجدل والتساؤل، والشر في الإنسان كمرض ووباء متسلط عليه هو نتيجة لسقوط الإنسان وابتعاده عن الله وبالتالي دبَّ الفساد فيه.

والمسيحية حينما تبحث في قضية سقوط الإنسان كبداية لدخول الشر إلى حياة الإنسان، لا تبغي تتبع البداية التي من خلالها دخل الموت إلى العالم حسب القصة القديمة. ولكن موضوع السقوط تتناوله المسيحية بالطريقة التي يمكن بها معالجة الواقع المر الذي تعانيه الإنسانية .. الواقع الذي يبدو عليه أنه ملوث بالخطية التي أضفت على تاريخ الإنسان وحياته هذه المعاناة المؤلمة، وكأن قضية السقوط هي

محاولة للبحث عن طريقة العلاج والإصلاح، إنها تمثل الشّق الأول للخلاص كتحديد لمرض البشرية. أمَّا الشق الثاني، وهو تحديد بناء الإنسان، فهو استئصال مرض الخطية الذي تفشى في العالم بالسقوط.

إننا حينما ندرك هذه الحقيقة يمكننا أن نعرف أن حادثة السقوط وتفشّي الخطية والشر في طبيعة البشر ليست مجرد تفسير لأصل الخطية، ولكنها تشرح حقيقة هامة جداً، وهي تكافل البشر جميعاً في الشر. وأن الشر لا يمس واحداً دون الآخر، بل هناك مسئولية جماعية تربط الأسرة الإنسانية جميعاً[1]. وبالفعل فقد أثَّر ذلك التكافل على الكيان الإنساني، وعلى رقي الإنسان وتقدم حضارته لا سيما الحديثة ... فمن خلال الإنسان الواحد (آدم) تفشَّى الشر في كل الناس لأن جميعهم من آدم، وما يمس الكيان الواحد من شر إنما يمس الكل. لأن الطبيعة البشرية واحدة في كل الناس (راجع رومية ٥: ١٢ – ٢١).

هذه الحقيقة تشرح لماذا توجد الكنيسة كجسد المسيح، وقد أفاض في شرحها كل من إغناطيوس الأنطاكي، وكبريانوس أسقف قرطاجنة، وعبَّر عنها القديس بولس الرسول في (١ كورنثوس ١٢: ١٢ – ١٥)، كما في آدم الواحد مات الجميع، هكذا في المسيح الواحد حياة الجميع (١ كورنثوس ١٥: ٢٢). وتكافُل البشر في السقوط وتضامُن الكل في الموت، يقابله الوحدة الروحية والجسدية في الكنيسة التي فيها الكل واحد في الحياة في المسيح.

لعل هذا يرينا أن المسيحية لا تضع قوالب تشكِّل بها قضاياها التاريخية أو العقيدية، ولكنها وعت قضاياها وتعاليمها في شكل اختبارات تحتاج إلى الإدراك والتذوق أكثر من الشرح والكلام. وكلما اختبرنا قضية السقوط بكل معانيها، اختبرنا قضية الكنيسة بكل ما فيها من إمكانيات.

وإذا كنا قد درسنا قضية أصل الإنسان وسقوطه وتأثير السقوط على واقع حياته اليومي، فإننا لا ندرس هذا الموضوع كنظرية، بل كشجرة لا تزال قائمة أمام عيوننا، وهي علامات السقوط التي نراها في الواقع الإنساني كل يوم. ولذلك جاء التعليم عن الله كجرعة شفاء للكيان الإنسان. فالسقوط أنانية، أمَّا الثالوث فهو عطاء كل أقنوم للآخر مما يجعل العطاء تعبيراً عن الجوهر الواحد؛ لأن الجوهر الواحد ليس سكوناً وفقداناً للحركة وانعداماً للمحبة، بل هو وحدة وحلول كل أقنوم في الآخر، وعمل كل أقنوم كل شيء بالآخر؛ **لأن الجوهر الواحد هو إرادة واحدة**. وعلى الإنسان بعد ذلك أن يختبر هذه الحقيقة في علاقته مع الله والآخرين. فعلى الصعيد الإنساني عقيدة الثالوث هي دعوة إلى الوحدة والتناغم في إطار التعدد المبني على المحبة كعطاء، وإنكار الذات الذي يؤدي للوحدة والتكامل وليس للصراع والتنافس الشرس. وتؤكد العقيدة المساواة الكاملة مع وجود التمايُز، ذلك لأن الآب ليس

---

(١) راجع د. جورج حبيب بباوي "السقوط وأساس الخلاص، الواحد والجماعة في العهد القديم"، الكلية الإكليريكية بطنطا، ١٩٨٢.

الابن، ولا الابن هو الآب، ولا الروح القدس هو الآب أو الابن ... فالتمايُز موجود وبشكل دائم ومطلق بين الأقانيم، ولكن في الجوهر الواحد. على هذا الأساس ندرك أن البشر جوهر واحد، وأن الإنسانية، وهي جوهرنا الواحد، هي صورة الله.

التمايُز قائم على أساس وحدة الجوهر، فطبيعة الأقانيم الثلاثة واحدة. ومصير الإنسان هو في اكتشاف الحياة على مثال الثالوث. إنَّ التمايز والفروق الفردية بين البشر لا تقوم سبباً لزعزعة وحدة الكيان في الجنس البشري ... وهذه هي الاستجابة للرغبة التي ما زال الإنسان يعبِّر عنها في تاريخه السياسي والاجتماعي منذ بداية تاريخ البشرية. هذه الرغبة التي يحاول الإنسان جاهداً العثور عليها في شكل صيغة أو نظرية سياسية أو اقتصادية تكفل له الحياة في توازن بين الفرد والجماعة، وانسجام الفروق الفردية لكل فرد مع احتياجات الأسرة الإنسانية جمعاء.

وعلى صعيد علاقته بالله يدرك الإنسان أن الله ليس واحداً فقط، بل هو وإن كان واحداً في جوهره وطبيعته، إلاَّ أن في جوهره الواحد ثلاثة أقانيم تعمل معاً، كل منها يؤدي عملاً متميزاً دون استقلال أو نفور أو عزلة، بل في وحدة واحدة. هذا يجعل الصلاة والصوم والقداسات والعبادات من سجود وتسبيح وشكر وطلبات متجهة بشكل أساسي لإدراك حقيقة الإتحاد بالله الذي يجمع في طبيعته وحدة في ثالوث. وتوكيداً لذلك قال السيد المسيح: "ويكون الجميع واحداً فينا كما نحن واحداً". وعندما يلتقي الإنسان مع الله في عبادته، يدرك أنه فرد في أسرة واحدة متعددة الأفراد، وأنه لا قبول له كواحد أو كفرد إلاَّ من خلال قبوله للآخرين. وهذا ما نعبِّر عنه جميعاً في الصلاة الربانية: "اغفر لنا ما علينا كما نغفر نحن لمن لنا عليهم"، وأيضاً: "إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم". هذه الوحدة مع التعدد عبَّرت الكنيسة عنها في صلواتها، فهي دائما تستخدم صيغة الجمع. أمَّا صيغة الفرد في الصلاة، فهي خاصة بحياة كل فرد في صلاته الخاصة وليست خاصة بالكنيسة.

وصعوبة عقيدة الثالوث مردها أنها تتحدى واقع البشر وخبرة الإنسان[1]. فطبيعة الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية تركز دائماً على الجانب الذي يخص الفرد في كل شيء، وتهمل في حق الجماعة، ولذا ظهرت الأنانية والعزلة والانفراد بالسلطة. وهنا تعذَّر على الإنسان أن يرى في المجموع وحدة، وبالتالي صَعُبَ عليه تصور أو قبول الثلاثة في الواحد، أو الواحد في الثلاثة. إن كل ما حوله من عادات وأفكار يدعوه لأن يتصور نفسه فقط، دون ارتباط مصير أو مصلحة بغيره.

ولعلنا كمسيحيين نرى أنفسنا مشغولين كثيراً بكيفية إثبات الثلاثة في واحد، أو الدفاع عن قضية الثالوث، ونستخدم لذلك وسائل رياضية وفكرية وعقلية كما لو كان الثالوث حقيقة مجردة مثل

---

(1) راجع د. جورج حبيب بباوي: حوار عن الثالوث، مع دراسة لعقيدة الثالوث في الكتاب المقدس والآباء، منشور على موقع coptology.com.

كروية الأرض أو أي قانون علمي، وننسى أن حياتنا كلها مبنية أساساً على أنه لا وجـــود للإنســـان منعزلاً بمفرده بعيداً عن الله أو الجماعة، فبعيداً عن الله، الموت والفناء، وبعيداً عن الجماعة مـــوت أدبي ومعنوي، وفراغ وعزلة وتحلُّل. ولذا فعقيدة الثالوث لها مداخل أساسية بدونها يعجز الإنسان عن إدراك أو اختبار مفهوم الثالوث.

ومثالاً لذلك المعمودية .. التي فيها يموت الإنسان عن ذاته ليتَّحد بآخر هو المسيح. ومن بـــاب المعمودية يدخل إلى حياة جديدة تكشف له عن وحدته بالآخرين، الملتحمين به الذين يكمِّلون جميعـــاً جسداً واحداً هو الكنيسة. والإفخارستيا تجذب الإنسان ليقطع حبال العزلة والأنانية ليحيا في شركة مع آخر هو المسيح، فيشارك المسيح حياته جسداً ودماً ويتدرب من خلال ذلك على رؤية نفسه في المسيح، ومع غيره من أبناء الكنيسة، وعلى الوحدة الروحية.

هنا نلاحظ أن الكنيسة كتعدد أفراد ومجموع أعضاء، بينهم فوارق كثيرة، إلاَّ أنها تسعى لتكون كياناً واحداً وجسداً واحداً، وهذا ما يجعل الكنيسة حسب قول القديس كيرلس عمود الدين: "الصورة الأرضية للثالوث" .. أي أنها تحقق قول المخلص نفسه في صلاته المشهورة (يوحنا ١٧) "ليكون الجميع واحداً فينا". يقول القديس كبريانوس: "كما يمتزج الماء بالخمر في الكأس يكون الشعب مُتَّحداً بالمسيح، ويكون جمهور المؤمنين قد اتحد بالذي آمنوا به .. إن الماء اتحد بالخمر في الكأس حتى أنهما لا يمكن أن ينفصلا .. وبنفس الوضع، فإن الكنيسة التي هي جمهور المؤمنين المتحـــدين في الكنيســـة لا يمكـــن أن ينفصلوا عن المسيح، وكما تجتمع حبات القمح معاً وتطحن وتعجن معاً لتكون خبـــزة واحـــدة، إذن فلنتحقق من أننا نحن أيضاً لسنا سوى جسد واحد في المسيح، إنه الخبز السماوي الذي نلتئم به ونتحد به" (رسالة ٦٢: ١٣).

وهكذا عندما يمارس كل فرد عطاء ذاته للآخرين تتحول الكثرة من المؤمنين إلى وحدة واحدة، فلا تذوب الفوارق، بل تتحول إلى غنى وعطاء. وهذه الوحدة تجعل الأسرار والكنيسة النموذج الوحيد أو معمل الاختبار الذي نتذوق فيه سر العقيدة وقوتها.

هذا يجعل بحث أو شرح الثالوث في كتاب أو مقالة صعباً، بل مستحيلاً؛ لأن الثـــالوث كمـــا سبق ليس مجرد نظرية يشرحها علماء اللاهوت، بل حقيقة حية تختبر بالحياة. وبكل حق، فإن الكتـــاب الوحيد الذي يقدِّم لنا اللاهوت، هو حياة الكنيسة. والمدخل الحقيقي الذي يقود إلى ممارســـة عمليـــة للعقيدة، هو الأسرار.

والثالوث يُختبر أيضاً في سر الزيجة الذي فيه يكون الاثنان جسداً واحداً. وما أجمـــل تعـــبير الطقس عن ذلك في مرد الإنجيل في صلاة الإكليل المأخوذ من ذكصولوجية باكر الآدام: "هؤلاء الذين ألَّفهم الروح القدس معاً مثل قيثارة مسبِّحين الله كل حين"... ولكن اصطدام الحياة الزوجية بمشـــاكل

المعيشة، قد يولِّد في كل من الزوجين دوافع الانفصال إذا تخلى كل طرف عن الوحدة في الزيجة كهدف، وتحوَّل إلى البحث عن إرضاء ذاته، والسجود بالولاء والطاعة للأنا والذات. لقد شرح العلامة أوريجينوس في الحوار مع هيراقليطس كيف أسس الله الزيجة، والكنيسة كمجال لاختبار التعدد والوحدة[١]. وشرح القديس كيرلس عمود الدين في الحوار الثالث عن الثالوث نفس النقطة، لأن الزيجة مدخل أساسي يتم فيه عطاء الذات للطرف الآخر بشكل يجعل الاثنين واحداً. هذه هي المحبة الثالوثية، فإذا لم يتحقق ذلك، فمن ذا الذي يمكنه أن يشرح الثالوث لزوجين عُرفا بالأنانية والخصام؟! وحيث عقيدة الثالوث، لا مجال للطلاق؛ لأن الطلاق هو إخفاق وفشل، ومَن يفشل في محبة شخص واحد بعينه لا يسهل عليه محبة الآخرين لا سيما الذين يختلفون معه في الرأي. ومن يفشل في إنكار ذاته، حتى الموت، يفشل في إدراك سر الملكوت أي الثالوث.

لعلنا في هذا الاستعراض نكون قد كشفنا النقاب عن طبيعة العقيدة المسيحية: إنها ليست قالباً ولا هي مجرد صيغة، إنها اختبار، إنها جوهر وأسلوب حياة نختبره ونتذوقه، ثم تأتي الصياغة من واقع الخبرة. فلو فَرَضَ الله علينا صيغةً، فما معنى وجودنا، وما معنى الممارسة العملية إن كنا مقيدين بصيغة، وما هي قيمة حياتنا إن كان الهدف منها هو تحقيق قالب معين أو صيغة معينة؟ الله أعطانا حياة ويريدها لنا حياة أفضل، ونحن من خلال الممارسة نخرج الصياغة. فالاختبار يسبق الصيغة. وهذه نقطة خطيرة تحتاج لبحث خاص .. وهذا النص القديم من رسالة ديوجينيتوس يؤكد هذه الحقيقة .. "إذا قبلت وسمعت الحقائق بكل غيرة، فسوف تعرف ما يهبه الله لمحبيه لأنهم يصبحون فردوس النعيم وفيهم تنبت شجرة مثمرة بكل ثمار متنوعة، وفي هذا الفردوس غُرست شجرة المعرفة وشجرة الحياة، ولكن شجرة المعرفة ليست هي التي تُميت، بل المعصية. ما كُتِبَ ظاهرُ معناه أن الله غرس في البدء شجرة المعرفة والحياة وسط الجنة ليرينا أن الحياة هي بالمعرفة، ولكن في البدء الذي لم يستحسن المعرفة بطهارةٍ، تعرَّى من جماله. لا حياة بدون معرفة، وما من معرفة حقيقية بدون حياة حق. لذا فالشجرتان غرستا معاً الواحدة إزاء الأخرى، وقد أدرك الرسول قوة التصاق الحياة والمعرفة، فشجب العلم المتحرر من الحق لطاعة وصايا الحياة التي يمنحها الحق فقال: "العلم ينفخ والمحبة تبني" (١كورنثوس ٨: ١). مَن يعتقد أنه يعرف شيئاً بمعزل عن المعرفة الحق التي تشهد لها الحياة، فذاك لا يعرف شيئاً والحية تغويه لأنه لم يحب الحياة. أمَّا من كان العلم عنده مرفقاً بالخشية مستمراً في طلب الحياة، فذاك يغرس بالرجاء ويطلب طلوع الثمر" (١٢: ١-٦).

ماذا تقول هذه الرسالة؟

---

(١) راجع دراستنا عن "الفرق بين العقيدة والهرطقة والرأي" وهي منشورة على موقع coptology.com.

الحياةُ تسبق المعرفة، وماذا كانت خطية آدم سوى أنه طلب المعرفة دون أن يمارس الحياة بكل ما فيها من متطلبات. وهل يتعلم الإنسان بشكل أفضل من الممارسة؟ هذه هي مأساة الإنسان، هو يحاول أن يتعلم قبل أن يمارس، فلا يتعلم إلاَّ أفكاراً لا تصلح للتطبيق، أو أفكاراً مخلوطة بالأنانية والغش والأطماع؛ لأن الممارسة تكشف عن أطماع الناس وحقيقة نواياهم مهما طال إخفاء الدوافع الحقيقية. وما حقيقة العقيدة المسيحية إلاَّ أنها اختبار وتذوُّق يسبق التدوين والكلام والشرح، فإذا تعذَّر الاختبار تحولت الصيغ إلى طلاسم عسرة ومبهمة.

## رابعاً: ديناميكية العقيدة والحياة النسكية

في إطار ما شرحناه سابقاً يظهر لنا أن المسيحية ممارسة يمكن إدراكها في واقع الحياة نفسها، ومن واقع الاختبار والتذوق. وهي بالتالي ليست نظريات توضع في كتب وتسجَّل في قواميس. ولعلنا نرى ذلك واضحاً في كتابات العهد الجديد.

فمن ناحية نجد أن عدد الذين كتبوا العهد الجديد لا يمثل سوى نسبة ضئيلة من المجموع الكلي للتلاميذ السبعين والرسل الاثنى عشر. ومن ناحية أخرى تعدَّدت البشائر على الرغم من أنها تعلن عن خبرٍ واحدٍ. فالمسيح واحد وحياته واحدة، ولكنها سُجِّلت من أربع زوايا تمثل كل زاوية جانباً من جوانب اختبار البشرية للحياة في المسيح، وتعالج كل زاوية احتياجاً معيناً من احتياجات الواقع البشري. ولذا فنحن لا نخشى حينما نقارن بين الأناجيل، ولا نخشى دراسة مميزات كل إنجيل على حدة؛ لأن حروف كل إنجيل وكلماته، إنما إعلان عن حياةٍ قدِّمها لنا المسيح من خلال تجسده. ولعلنا نلحظ ذلك بوضوح في الديانة اليهودية، وهي ديانة النص، أو ديانة الحرف، إذ أنها كانت قائمة على النصوص التي تحمل سلطان حكم الموت لكل من يتعدى أو يسيء فهم النص. ولنا في الألواح الحجرية التي كتب عليها الله الوصايا العشر دليلاً على ما تمثله الديانة اليهودية من تطبيق النص على الإنسان؛ لأن الإنسان كان بطبيعته تحت حكم الموت، وهو بالتالي مقيد بكل ما يقال ويُثبِّت عليه هذا الحكم من تطهيرات وطقوس وذبائح، إلى أن يأتي الحياة ويعتق الإنسان من قبضة الموت والناموس.

وهكذا جاءت المسيحية لتعطي للإنسان حرية صياغة الحياة، وروح النص أو الهدف من النص. فوصية السبت كمثال: لقد كان الإنسان مقيداً بالسبت، ولكن المسيح أظهر أن السبت أُعطي من أجل الإنسان، و لم يُخلق الإنسان للسبت: "الإنسان لم يُخلق من أجل السبت بل السبت وُضع لأجل الإنسان" (مرقس ٢: ٢٧).

هذا ما جعل بولس الرسول يقول إن الإنسان لم يعُد تحت سلطان حروف الوصية؛ لأن الحياة الجديدة تسمو على سلطان الحروف؛ لأن النص مهما كان نوعه يصبح في النهاية سيداً لا ينازعه أحد

إن تحولت الحياة من حرية وسعي لإدراك الحقيقة واختبارها إلى الخضوع للحروف. هذا الخضوع هو الحرف القديم والمضاد دائماً للروح التي هي جديدة، وهو ما سجَّله الرسول بولس برُمته في رسالته إلى الغلاطيين.

ولو صار القانون أو الشريعة هو أساس الإيمان لفرض على الإنسان واقعاً ثابتاً وحكم عليه بعدم التطور، وما على الإنسان إلاَّ قبول الأمر الواقع المليء بتناقض الحروف والكلمات مع الواقع الإنساني الدائم التطور، وهو ما يفرض على الإنسان العقم وعدم النضوج؛ لأنه يقيد الحرية بتشريعات لا تقبل التطور، طالما أن هذا التشريع لم يُعط الإنسان الحرية. وقد رأينا هذه الحقيقة فيما قلناه سابقاً عن شريعة العهد القديم، التي أُعطيت للإنسان كتعويض عن العجز الذي أصابه والموت الذي دبَّ في قدراته .. وأُعطيت له كمعين إلى أن يتحقق الهدف منها. ولكنها صارت قيداً لا يمكن الخلاص منه لمصلحة الإنسان نفسه وتطور الوضع إلى:

**١**- صارت العقيدة عاجزة عن إلهام الإنسان بالتطور، حيث أنها لم تستطع أن تمكِّن الإنسان من صياغة حياته، وعجزت عن تزويد الإنسان بالقدرة ليملك زمام حياته بنفسه عبر التاريخ. وانفصلت العقيدة عن الشريعة، لأن الشريعة سادت.

**٢**- وسيادة التشريع تحوِّل الحياة إلى قالب مطلق، وثوب يلبسه كل إنسان، وهو ما يؤدي إلى فراغ حياة الذين يحملون فروقاً فردية، ويسوق الجماعة إلى التحلل الأدبي، ومحاولات البحث عن فراغ وثغرة في النصوص للهرب من جمود النص.

## قصة الحروف والروح

وربما يكون من السهل علينا بعد ذلك أن نفهم سر الملاحظة المأخوذة على المسيحية، وهي أنها خالية من التشريع القانوني كالميراث والمحاكمات ... الخ – إن المسيحية تضع قاعدة ثابتة لحياة الإنسان ولا تدخل في متاهات التشريع بالنص، هذه القاعدة هي المحبة. ولا يوجد تشريع مسيحي يتضمن تنظيماً عن حياة الإنسان على الأرض؛ لأن الإنسان، وهو صورة الله ومثاله وسيد الخليقة له حرية التصرف وحرية الحركة وتشكيل الحياة، شريطة ألاَّ يكون ذلك ضد جوهر العلاقة مع الله القائمة على المحبة.

إن حركة التطور – مهما كانت- ينبع شكلها من محاولة يقوم بها الإنسان لكي يستوعب الماضي بما فيه من خبرات إيجابية كانت أو سلبية، وذلك ليس انتكاساً؛ لأنه لا يعود للماضي، بل يستوعبه من أجل إدراك الحاضر واكتشاف أفضل مستقبل يتطلع إليه بما يحقق له الحرية والعدل والمساواة، فكيف للإنسان إذن أن يشكِّل حياته، إذا كانت أساساً مرتبطة بنص دائم ومطلق؟!

إن طبيعة النصوص هي الثبات وعدم التغيير، بينما من طبيعة الحياة التغيير والتقدم حتى لو كان ذلك من خلال الأخطاء والنكسات. ولأن الحياة متغيِّرةٌ، فصور الخير والشر متغيرة. فقد كان الظلم مثلاً في عهد الفراعنة يتمثل في الاستيلاء على أرض فلاح ما على نحو ما نراه في قصة الفلاح الفصيح. ولكن بتغيُّر الحياة أخذ الظلم شكلاً متغيراً، والتغيُّر في صورة الظلم مرتبط بطبيعة التغيُّر في أسلوب الحياة، فصار الظلم هو حرمان البشر من التعليم أو الإهمال في العناية بالصحة أو التسيب في الاهتمام بقطاع الخدمات ... إلى آخر تلك الصور التي تعبِّر عن الجوانب الحديثة للحياة، والتي ارتبط معها أيضاً شكل التشريع الحديث .. ولو جاءت المسيحية بنصوص إلهية عن كل هذه الأمور لاصطدمت بمتغيرات الواقع الإنساني، وصارت المسيحية عقبة في طريق التطور.

ولمَّا كانت المسيحية في جوهرها هي رسالة حياة الإنسان مع الله، فلم تقدِّم تشريعاً من أي نوع، ولكنها قدَّمت جوهر الحياة في عقائد تعين الإنسان على صياغة حياته وتمكنه من وضع قانون يناسب حياته، دون أن يكون هذا القانون أو التشريع من صُلب العقيدة المسيحية.

وفي إمكاننا أن نستنتج من خلال دراستنا للعقيدة المسيحية وتاريخ الكنيسة، أن العقيدة المسيحية تطوِّر دائماً تعبيراتها من فترة إلى أخرى بشكل ديناميكي متحرك نحو الأفضل، لتكون حياة الإنسان دائماً نحو الأفضل. وما قمة التطور والرقي إلاَّ بدء للحياة الأبدية، ولنا في عقيدة لاهوت المسيح أصدق مثال على ذلك، فقد صيغت بأشكال مختلفة وعلى فترات متباعدة، هذا مع الاحتفاظ بجوهر العقيدة طبعاً. فقد بدأت بصياغة بسيطة واضحة في الأناجيل "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يوحنا ١: ١)، ولكن هذه العقيدة لم تبق هكذا، بل أخذت شكلاً أكثر اتساعاً وأعقد تركيباً في كتابات الآباء، فدخلت في الحياة الفردية والجماعية، وصارت موضوع صلاة الإنسان وحياته، وعليها أقامت الكنيسة عباداتها وأسرارها، ومنها تذوَّق الآباء نسكياتهم، وتحوَّلت هذه العقيدة البسيطة المعالم التي عبَّرت عنها الأناجيل في كلمات قليلة إلى بناء متعدد الجوانب يمثل كل متطلبات الإيمان ومتعلقاته.

ولأن هذه العقيدة أخذت هذا الشكل الأكثر تعقيداً وتركيباً، فقد واجهت صراعات ضد الهراطقة أعطتها شكلاً يلاحق سرعة الرد على هذه الهرطقات. فظهرت الصياغة التي تقول: "واحدٌ مع الآب في الجوهر". والجدير بالذكر أن الفترة الزمنية بين تعبير الإنجيل الرابع عن الله الكلمة، وبين تعبير مجمع نيقية "الواحد مع الآب في الجوهر" كانت أكثر من قرن، إذا صحَّت دراسات علماء الآباء بأن تعبير "الواحد مع الآب في الجوهر" يظهر في كتابات أوريجينوس.

وعلينا أن نضع في اعتبارنا أن الأريوسية عندما واجهت الكنيسة، لم تضعها أمام معضلة لاهوتية، بل أن الكنيسة من خلال اختبارها للاهوت المسيح لم تغلق أذنيها، ولكن عقدت مجمعاً

ناقشت فيه الموضوع، وصاغت الإجابة على بدعة أريوس من خلال اختبارها للاهوت المسيح على مر ثلاثة قرون وذلك من واقع حياتها وتاريخ آبائها ... وجاء الرد سليماً، وفي صياغة تلائم الموقف.

ويجب أن نقرر هنا أنه من المغالطات الجسيمة التي لا سند لها من الصحة، أن يخرج علينا من يقول إن لاهوت المسيح تقَرَّرَ في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. وإن عقيدة الثالوث لم تكن معروفة قبل نيقية. فعقيدة لاهوت المسيح ما لم تكن موجودة في صلب التاريخ الكنسي المبكر ما كان في إمكان مجمع نيقية أن يتكلم عنها بهذه الصورة التي تجسد الالتحام والاتصال الجوهري بين الماضي والحاضر. إن عقيدة لاهوت المسيح والثالوث حينما صاغها مجمع نيقية لم يُصِغها من فراغ، ولكنه قرَّرها من الواقع الكنسي وبالصورة التي تناسب احتياج الفكر الكنسي للرد على بدعة أريوس. وهكذا يظل تاريخ الكنيسة هو تاريخٌ لعقائدها. إن ما يصاغ في فترة من الفترات، إنما هو ردٌّ على سؤالٍ جديد واجهته الكنيسة في ظروفٍ لم تكن موجودة قبل ذلك. بمعنى أن مواجهة الكنيسة لبعض الأحوال بصورة مفاجئة كان يتطلب منها رداً. وكان الردُ دائماً يجيء مما هو مستقر في الكنيسة، والكنيسةُ بدورها تقدِّم ما استقر لديها من قبل بشكل يتمشى مع احتياج الوضع الجديد.

ومثال ذلك: في زمن الرسل لم يكن للاهوت المسيحي علاقة بالفلسفة اليونانية، ولكن بعدما دخل بعض المثقفين والفلاسفة والمفكرين إلى الكنيسة تبع ذلك ظهور بعض الأسئلة الجديدة نتيجة لخلفية مختلفة عن خلفية القرن الأول. هنا ظهرت علاقة بين الفلسفة واللاهوت، هذه العلاقة عبارة عن الأسئلة التي كان لا بد من رد الكنيسة عليها، ومن بينها الأسئلة الخاصة بلاهوت المسيح. على أن الإجابة لم تكن اختراعاً لفكرٍ جديد، أو خلقاً لعقيدة، وإنما كانت رداً على سؤال جديد يخص العقيدة نفسها بالرغم من وجودها قبل ذلك.

هذه الحركة الديناميكية تفرض علينا أن ندرك أن اللاهوت المسيحي هو كلٌّ متصل الأجزاء يمتد من سفر التكوين إلى عصرنا، يتناول كل ما واجه الكنيسة عبر تاريخها؛ لأن الكنيسة لم تكن عاجزةً عن الإجابة على سؤال يخص إيمانها. فهي تفتش بحرارة في الوثائق والنصوص آخذة في الاعتبار أساساً أن صياغة الإجابة تكون دائماً من واقع الإيمان والاختبار. وهو واقع يسير على ما تؤمن به الكنيسة وما ترجوه وتسعى في ممارستها للوصول إليه. ولذلك كان لطقس الكنيسة دور فعال في صياغة الرد على الأسئلة .. وسنرى كيف أن القديس أثناسيوس استخدم المعمودية للرد على أريوس، والقديس كيرلس استخدم سر التناول للرد على نسطور.

هذه هي خصائص العقيدة المسيحية أو اللاهوت المسيحي، عبَرنا عليها بسرعة، ولكن هناك أيضاً بعض الخصائص أو السمات التي يتميز بها اللاهوت المسيحي تركناها إلى أن يحين الوقت الذي يمكن فيه أن نتطرق إليها، وسوف نتعرض لها من خلال دراستنا لكل عقيدة على حدة.

القسم الثاني

# التَّسليم

# الفصل الأول

# مصادر اللاهوت في الشرق

من دراستنا السابقة يمكننا أن نلخِّص – دون عناء – مصادر اللاهوت في الكنيسة، فهو يعتمد أولاً على إعلانات الله كعطية من الله للإنسان، وثانياً على اختبار هذا الإعلان ثم صياغته. فما هي مصادر هذا الإعلان؟ هي بلا شك الابن المتجسِّد. وما هي مصادر الاختبار؟ هي حياة الكنيسة، وهذه الحياة سجَّلها تاريخ الكنيسة وعبَّرت عنها المجامع المسكونية، وعاشها آباء الكنيسة، ووصلتنا عبر الليتورجية.

يمكننا أن نختصر كل مصادر اللاهوت في كلمة واحدة، وهي التسليم، أو ما يُعرف عندنا الآن باسم التقليد. لكن ماذا تعني كلمة تسليم أو تقليد؟ لكي ندرك معنى هذه الكلمة علينا أن نعود إلى التاريخ الكنسي.

# المبحث الأول

## علاقة اللاهوت بالتاريخ

التاريخ في اللغة اليونانية هو كلمة "ιστωρ" ومنها جاءت الكلمة "*History*". والفعل يعني إدراك العلاقة بين حدثين، ثم كتابة هذه العلاقة بشكل منظم مفهوم يُراعى فيه الترتيب الزمني بشكل واضح. وقد درجنا على الظن بأن التاريخ هو مجرد حوادث متتابعة تسرد بشكل قصة تدون فيما يسمى كتاب تاريخ. هذا بلا شك جانب من التاريخ، ولكن السرد نفسه بالتتابع لمجرد السرد، هو تشويه للتاريخ؛ لأن كلمة تاريخ لا تعني السرد، بل إدراك وفهم الأحداث، ولذلك وصف اليونانيون المؤرخ بأنه رجل حكيم أو عاقل، كما وُصف بأنه قاضٍ أصدر حكمه على ما يدور حوله من أحداث، وهذا الحُكم هو التاريخ.

ودون أن ندخل في التفاصيل المتعلقة بموضوع التاريخ، يجب أن نسأل سؤالاً محدداً، ما هي علاقة اللاهوت بالتاريخ؟ وكيف نشأت هذه العلاقة؟ وما هو دور هذه العلاقة فيما نسميه بالتسليم أو التقليد؟

من العبارات المألوفة في العهد الجديد عبارة "حسب الكتب" (١كورنثوس ١٥: ٣، ٤). و"لكي يتم ما قيل بالنبي" (راجع زكريا ٩:٩، متى ٢١: ١٦). مثل هذه التعبيرات تشير كلها بوضوح إلى أن ما يحدث من أحداث، إنما هو تحقيق للنبوات التي وردت في العهد القديم، والتي سبق فأخبر بها الأنبياء. بذلك أصبح التاريخ هو تحقيق هذه النبوات، أو إدراك العلاقة بين النبوة والحدث، أو بحسب العهد الجديد نفسه هو أن يسوع الناصري هو المسيح. وبذلك يصبح المسيح وما يتعلق به تياراً تاريخياً ضارباً بجذوره يسمى باسم "المسيحانية"[١].

فإذا كان هذا يعود إلى العهد الجديد نفسه الذي يعلن تقريباً في معظم فصوله أن ما فيه من أحداث قد سبق وأخبر بها العهد القديم عن طريق الأنبياء، كان من الضروري أن يظهر اسم آدم مقترناً بالمسيح يسوع، وأن يظهر بوضوح أن خطة اختيار إسرائيل كانت الإطار لاختيار البشرية جمعاء، وقد عبَّر عنها الرسول بولس في شكل الزيتونة البرية التي أُخذت منها أغصان وطُعِّمت في الزيتونة الجديدة

---

(١) نكتب كل ما يخص المسيح باسم "المسيانية" وهي بذلك أقرب إلى اللاتينية منها إلى العبرانية، مع أن كلمة "المسيح" العربية أقرب إلينا من كلمة "مسيا" اللاتينية.

(رومية ١١)، ومن المفيد أن نلاحظ هنا أنه حتى هذا التشبيه يعود إلى إرميا (١١: ١٦، وهوشع ١٤: ٦)، أي أنه مأخوذ من العهد القديم. أي أن العلاقة بين العهدين هي علاقة استمرار لعمل الله، وقد انعكس هذا الاستمرار على سفر الأعمال نفسه؛ لأننا في البداية نرى أن أهم ما يقوم به التلاميذ هو اختيار من يخلف يهوذا الاسخريوطي، وليس وضع الخطط لمواجهة رؤساء الكهنة والرومان. وبالطبع فإن كمال الرسل إلى عدد الاثني عشر هو عمل يؤكِّد أن الرسل يدركون أنهم خلفاء الإثني عشر سبطاً وأن الحاضر إنما هو استمرارٌ للماضي بصورة أخرى مختلفة، وهذا ما نعنيه بالنبوة وبكمال النبوة.

وبقية سفر الأعمال، وهي قصة انتشار الكنيسة على قدر كبير من الأهمية؛ لأن لوقا يعزو هذا الانتشار إلى قوة الله، فهو محرِّك الأحداث، وبالطبع نحن أمام لاهوت العهد القديم عندما كانت كل الأحداث المصيرية تتم بقوة الله. في سفر الأعمال الذي يحرِّك الأحداث هو الروح القدس، وكأن التاريخ هو مسرح لعمل الروح القدس. نحن هنا في ذات بيئة العهد القديم، ونحن أمام ذات نظرة العهد القديم للتاريخ، وهي نظرة لاهوتية خاصة، وإذا عدنا إلى لوقا نفسه فإننا نراه يضع الأساس التاريخي في مقدمة إنجيله. إنه يكتب تاريخ الخلاص من بدايته لكي يعرف الداخلون للإيمان كل شيء بتدقيق (لوقا ١: ٣) وسوف نرى آثار هذه المقدمة فيما بعد في القرون التالية.

على أن سفر الأعمال – وهو الجزء الثاني المكمل لإنجيل لوقا – يقف عند وصول الكرازة إلى قلب روما، وكان من الحتمي أن يقف لوقا سواء أكان حياً أم لا عند قصة ذهاب بولس إلى روما لأنه هناك في روما يعتبر لوقا أن الإنجيل قد وصل إلى قلب عاصمة الإمبراطورية ونجاحه أو فشله مرتبط بعمل الله، وسوف يأخذ الآباء المدافعون عن المسيحية هذه النقطة ليحاربوا بها الوثنية وليؤكدوا إلهية الديانة المسيحية بانتشارها بقوة الله.

من هنا نرى أنه من قلب العقيدة المسيحية نفسها وُلد الاهتمام بالتاريخ. حقيقي أننا لا نجد تأريخاً للكنيسة قبل سنة (٣٠٠م) أي قبل يوسابيوس القيصري، فقد كانت الكنيسة الغارقة في بحار الدم والآلام قد بدأت ترفع رأسها قليلاً لتتنسم هواء الحرية، ومع هذا كان التاريخ عنصراً هاماً في الصراع الروحي واللاهوتي الذي انفتحت فيه أبواب الهرطقات. وهو ما يجعل الاهتمام بالتاريخ ركناً أساسياً في الدفاع عن الإيمان.

## الغنوسية والاهتمام بالتاريخ

دخل المسيحية الكثير من الوثنيين الذين حملوا معهم ثقافة العصر والاتجاهات الوثنية السائدة. كان لدى هؤلاء رصيد ضخم من التفاسير عن الله والكون والإنسان، ورثوها عن الفلسفة اليونانية، وبالذات الأفلاطونية المحدثة.

كانت فكرة الأفلاطونية عن المادة قد ذاعت، وكان الوجود في الجسد هو علامة على سقوط الإنسان من العالم الروحي الطاهر إلى عالم المادة الدنس. فكأن المادة أساسية في وجود الشر، وعالم المادة هو عالم الشر، بينما عالم الروح هو عالم الصفاء والنقاء، وكان من الحتمي إزاء هذه الثنائية أن تظهر فكرة عالم الخير (عالم الروح) وعالم الشر (عالم المادة).

وإزاء هذا التقسيم كان من المنطقي البحث عن مصدر الشر ومصدر الخير، ولذلك اتجه خط التقسيم إلى الله نفسه حيث اعتبر هؤلاء المثقفون بأن هناك إلهاً للخير وآخر للشر. ولما كان هناك تفاوت واضح بين العهد القديم والجديد – حيث يمثل العهد الجديد كمال الإعلان الإلهي، ويمثل العهد القديم البداية – كان من المنطقي أيضاً أن يتجه التقسيم بكل عمقه إلى العهدين، وأن يصبح العهد القديم – وهو يتحدث عن خلق العالم – هو كتاب إله الشر الذي خلق العالم المادي المنظور الشرير، بينما يصبح العهد الجديد كتاب إله الخير الذي جاء بالحرية والانعتاق من سلطان المادة. ولما كان العهد الجديد يتحدث عن التجسد، بل ويشير إلى العهد القديم في أجزاء كثيرة، فقد كان من الحتمي أيضاً أن يتم حذف هذه الأجزاء.

ومع حدوث هذا التقسيم والحذف أصبح الخلاص ليس هو الإيمان، بل هو المعرفة، أو في اليونانية "الغنوسية" من الكلمة اليونانية "*Gnosis*". وأصبح أتباع هذا المذهب يعرفون باسم الغنوسيين، وأصبح الخلاص هو معرفة أسرار الكون وأسرار إله الشر والابتعاد عنها، ولذلك رفض الغنوسيون أكل اللحوم والزواج وشرب الخمر، كما رفضوا الاعتماد في الماء واكتفى البعض منهم بالتعميد بالميرون. ولما كانت مشكلتهم الأولى مع المادة والجسد بالذات، كان من اللازم أن ينكروا موت المسيح على الصليب، أو يفسروه بطريقة أخرى، وهكذا أقام الغنوسيون بناءاً فيه من ملامح المسيحية الكثير، ولكنه لا يحتوي على أي عنصر من عناصرها الأساسية.

كانت الغنوسية إنكاراً للماضي كله أو حذفه أو شطبه، ولذلك اتجهوا إلى شطب كل ما لا يروق لهم، أي كل ما هو متصل بالعهد القديم، واكتفوا من العهد الجديد ببعض أجزاء من إنجيل لوقا ورسالة رومية. وكان رفض التاريخ يعني أن يخترع الغنوسيون لأنفسهم كتباً دينية خاصة بهم، ولكن لأنهم لم يفصلوا أنفسهم تماماً عن المسيحية اتجهوا إلى وضع أسماء الرسل على هذه الكتب الجديدة، ولعل أقدم هذه الكتب على الإطلاق هو سفر أعمال يوحنا[1] الذي كتب حوالي سنة ١٥٠م.

عندما فقدت الغنوسية أساسها التاريخي، أي العهد القديم، تعرَّضت لأن تُقتَلع بكل سهولة وبدون عناء كثير؛ لأن هذا الصراع كان على أرضية التاريخ التي فقدها الغنوسية، ولم يكن من

(1) M.R.James, "The New Testament Apocrypha, Acts of John", P. 97.

المستطاع أن تسترد الغنوسية ما فقدته. وكان فناء الغنوسية واضحاً؛ لأنها لا تستطيع أن تخترع كنيسة تشبه الكنيسة الجامعة وتبقى حية، فالناس سوف يلاحظون دائماً الفروق الأساسية.

وكان الآباء على وعي تام بأن الغنوسية حديثة أو معاصرة بلا جذور تاريخية، وكان إثبات هذه الحقيقة لا يحتاج إلى عناء، ولذلك دار الصراع على هذه النقطة أولاً، ثم على الجانب اللاهوتي بعد ذلك، ولكن كان كسب الجانب التاريخي مقدمة لكسب الجانب اللاهوتي.

كانت أرضية التاريخ الصُّلبة التي وقف عليها آباء الكنيسة هي الأناجيل الأربعة والتسليم "*Tradition*"، وكان من الضروري أن يكتب الآباء بكل وضوح وأحياناً بعنف: "لقد تسلَّمنا الأناجيل من الرسل وهؤلاء سلَّموها لنا، وليس ذلك فقط، بل لدينا أسماء الناس الذي تعلَّموا من الرسل مباشرة والذين أقاموهم أساقفة، وهم بدورهم سلَّموا آخرين لازالوا أحياء إلى هذا اليوم". أمَّا الغنوسيون فهم معاصرون للآباء، ويمكن أن يكتب الآباء أسماء الذين أسسوا هذه الحركة، بل ومؤلفاتهم.

هنا، البرهان القاطع هو التاريخ، وهو الحَكَمُ النهائي في صحة أو عدم صحة ما تسلَّمه الفريقان. ولما كان الاحتكام إلى التاريخ يتم من جانب الآباء كان من الضروري أن نسأل: هل كان التاريخ موضوعاً حديثاً برز فجأة من الصراع ضد الغنوسية؟ والجواب المؤكد هو بالنفي؛ لأن الرجوع إلى الوراء من القرن الثالث وحتى الرسل عمل لا يمكن الاعتماد فيه على الذاكرة وحدها، خصوصاً وأن أسماء الشيوخ الذين أخذوا الإيمان من الرسل كانت كلها أسماء أناس تركوا مؤلفات تشرح الإيمان. هذه العودة إلى التاريخ نسميها نحن بالعودة إلى التسليم الحي، وهي ليست مجرد شهادة تاريخية على تسلسل الأساقفة، بل شهادة حية على صحة الإيمان الذي سلَّمه أناسٌ إلى غيرهم.

وكان من الحتمي العودة إلى الرسل وإلى الأناجيل الأربعة التي رفضها الغنوسية، هذه الأناجيل كتبها أناسٌ أخذوا وحي الروح القدس من الله الآب[١].

ولذلك يسأل ترتليان: "دعوهم يُظهرون لنا أصل كنائسهم وتاريخ تعاقب أساقفتهم الذين تعاقبوا في سلسلة غير منقطعة منذ بداية كنائسهم! نريد منهم أن يبرهنوا لنا على أن أول أسقف عندهم كان تلميذاً لأحدٍ من الرسل أو لأيٍ من الذين تعلَّموا من الرسل" (De Praes, 21:36).

ويقول القديس إيريناوس: "نحن في موقع يسمح لنا بأن نحكم من هم الذين أقامهم الرسل أساقفة في الكنائس، وأن نظهر خلافة وتتابع هؤلاء الرجال حتى يومنا هذا، وهؤلاء الأشخاص لم يعرفوا ولا علَّموا بشيء يشبه هذيان هؤلاء الهراطقة" (ضد الهرطقات ١١: ٣٠١).

---

(١) راجع رسالة فلورين في تاريخ الكنيسة ليوسابيوس ٥: ٢٠: ٤ ثم القديس ايريناوس ضد الهرطقات ٤: ١٧ مع ٤: ٣١ مع ٥: ٣٦ – رسالة ثيئوفيلوس الأنطاكي ٢: ٢٢ مع ٣: ١١-١٤، ترتليان ضد مرقيان ٥: ٧.

وبالطبع، فإن عباراتي ترتليان وإيريناوس لا معنى لهما إن لم يكن هناك في الطقس وفي التاريخ إشارات إلى الرسل وخلفاء الرسل، ولعل أوضح مثال على هذا هو القداس، وبالذات ذكرى الراقدين، أو ما تحتفظ به كل الكنائس من وثائق.

من هنا كانت نتائج الصراع ضد الغنوسية مؤكدة، وكان سحق هذه الحركة سهلاً رغم الافتتان بكلمة معرفة أو غنوسية؛ لأن الجزء التاريخي كان أهم ما افتقرت إليه الغنوسية. ولعلنا لا نكون مخطئين إذا قلنا إن كراهية الجسد والمادة تحتوي في داخلها على كراهية للتاريخ، وسواء بدأت الغنوسية بكراهية الجسد أو كراهية المادة بشكل عام، فإن النتائج المؤكدة لكراهية الجسد هي الخروج بالإيمان من الواقع التاريخي، خصوصاً وأن الإيمان المسيحي بالذات يرتكز على حقيقة التجسُّد الذي حدث في الزمان، وعلى علاقة النبوة بالحدث. فالكلمة الإلهية تظل معلقة في فراغ، إن لم ينبثق منها الحدث الذي يدخل في صميم الممارسة الليتورجية.

وعندما اختلف الآباء مع الغنوسيين حول تفسير أحد نصوص الأناجيل القانونية، كان المرجع الذي يؤكد صحة تفسير الكنيسة هو ما يسميه ترتليان "قاعدة الحق – *Canon of Truth*"، أو قاعدة التقوى، أو قاعدة الكنيسة عند إيريناوس وأكليمنضس السكندري. هذه القاعدة هي الطقوس الكنسية لا سيما الاعتراف بالإيمان الذي تعود محتوياته إلى الرسل وإلى المسيح حسب تصريح ترتليان (Depraes. 13:16).

فإذا كانت الطقوس أو الليتورجية هي دعامة الحياة الكنسية، فإن ما في الطقس من عبارات وكلمات تتعلق بالإيمان إنما يعكس إيمان الكنيسة، ولذلك كانت الحقائق التي تضَمَّنها الطقس أساسية في الدفاع عن الإيمان وعن محتوياته.

هكذا دخل اللاهوت المسيحي التاريخ، وكان من المستحيل أن يبقى خارجاً؛ لأن المسيحية – وهي كمال النبوات – كان عليها أن تلجأ إلى التاريخ دائماً، وسوف نرى كيف لجأت إلى التاريخ في محنة الأريوسية والنسطورية.

## الأريوسية والنسطورية

من ذات اتجاه الغنوسية، ظهرت وسارت الأريوسية والنسطورية، وهما على اتفاق مع الغنوسية، حول عدم تدخل الله المباشر في خلاص البشر. وقد ظهرت هذه الصورة، أي صورة عزلة الله عن تاريخ الإنسان في رفض تجسد ابن الله في الأريوسية، ورفض إتحاد اللاهوت بالناسوت في النسطورية. ولذلك لم يكن صعباً على من يعرف الإيمان بدقة أن يكتب تاريخ الأريوسية، وهو بالفعل ما فعله أثناسيوس. فقد سجل في كتاب "تاريخ الأريوسية"، تاريخ أريوس نفسه، والأفكار التي استعارها من فالنتينوس

الغنوسي، وعودته إلى التفسير اليهودي، أي خلاص الإنسان بدون المسيح. وتقييم الأريوسية أولاً ضمن تاريخ العقيدة وتاريخ الخلاص، يساعد على تحديد الانحراف اللاهوتي، وهو نفس الشيء الذي حدث مع النسطورية، فقد كان اختبار المسيح في الإفخارستيا هو أحد دعائم الرد على النسطورية، وليست الإفخارستيا سوى إحدى الروافد الأساسية لتاريخ الخلاص نفسه، فإتحاد اللاهوت بالناسوت هو دعامة الاختبار المسيحي الذي تسلمته الكنيسة من الرسل والآباء، وإتحاد اللاهوت بالناسوت يفسِّر القداس كخبرة روحية وتاريخية أيضاً ممتدة من الخليقة إلى الخلاص الذي تتذوقه الكنيسة.

التاريخ يحدد وضع الهرطقة وشكلها. هذا ما أدركه الآباء من خلال تجاربهم. وهذا الإحساس بالتاريخ ورثه الآباء في مرحلة الغنوسية، وهو الذي أدَّى إلى الاحتكام إلى التسليم أو التقليد الكنسي؛ لأن حداثة الهرطقة هي تأكيد لعدم وجودها في التاريخ. والهرطقة لا تُرفض لأنها جاءت من قبل أناسٍ لا يتمتعون بالانتماء إلى سلسلة الرجال خلفاء الرسل، ولكن لأن الهرطقة تحاول قطع هذا كله، وتحديد بداية جديدة غير البداية الأصلية للمسيحية.

هذا هو ملخص كتاب أثناسيوس "تاريخ الأريوسية". وإذا كان الانحراف والهرطقة بلا جذور تاريخية في المسيحية، فإنهما يستمدان أصلهما من مصدر آخر، والبحث عن المصدر كامن دائماً في أعماق اللاهوت المسيحي؛ لأنه دائماً – أي اللاهوت المسيحي – قائم في قلب التاريخ منذ آدم الأول إلى آدم الثاني الذي أكمل كل شيء ... وعندما بحث أثناسيوس عن مصدر الأريوسية، فقد استطاع – من التاريخ – أن يحدد علاقة أريوس بالغنوسية، وبالذات بمدرسة فانتينوس "*Valentinus*" التي كان لها وجود محسوس في الإسكندرية نفسها، بل كانت نشطة جداً في زمن إكليمنضس وأوريجينوس، وهكذا – في دفاعه عن العقيدة المسيحية الأرثوذكسية – يقول أثناسيوس: "نحن بكل تأكيد ندعو أنفسنا مسيحيين نسبة إلى المسيح، أما مرقيان "*Marcion*" الذي أفرز هرطقةً منذ زمن وقُطع من شركة الكنيسة وكل الذين رفضوه ظلوا يدعون أنفسهم مسيحيين، أمَّا الذين تبعوه دعوا أنفسهم مرقيانيين وليس مسيحيين، وهكذا فالنتينوس وباسيليدس وماني وسمعان (سيمون) الساحر أعطوا أسمائهم للذين تبعوهم، ولذلك البعض منهم يدعى بالفالنتينيين والباسيليديين ... إلخ، وهكذا الذين تبعوا أريوس يسمون أنفسهم أريوسيين" (ضد أريوس ١: ٣)، وقيمة الاسم هو أنه يؤكد الانتساب التاريخي إلى حركة جديدة تعارض الأصل وتحاول أن تبدأ باسم المؤسس لهذه الحركة عوض ما بدأت به الكنيسة أي باسم يسوع المسيح.

ولما أدرك أثناسيوس أن الأريوسية محدثة، بحث عن مصدرها، ولذلك – في أكثر من موضع – كان ينبه إلى أن هناك علاقة بين أريوس والغنوسي فالنتينوس، ولذلك يقول إن أريوس يؤمن بأن الابن خالق ومع ذلك فهو مخلوق، وهذا مما لا شك فيه عودة إلى فكرة فالنتينوس أن الملائكة يمكنها أن تخلق.

وهكذا يقول أثناسيوس: "في المقام الأول يُعيدون الشرور المضادة التي اعتنقها فالنتينوس" (ضد أريوس ١: ٥). وقد ألمح أثناسيوس أن الأريوسية تنادي بأن للابن طبيعة مثل طبيعة الملائكة، ولذلك قال على الفور: "إن هذا ليس جديداً، بل هو ذات فكر فالنتينوس وباسيليدس" (ضد أريوس ٢: ٢١).

إذن، الهجوم المضاد على الهراطقة والهرطقات ليس مجرد حشد للبراهين، بل هو تأمُّل تاريخي هادئ يحدد مسار الهجوم على أصل الفكرة وعلاقتها بما سبقها من انحرافات، أي لا يعالجها على أنها قطعة فريدة مستقلة، إذ لابد من رؤيتها بين نظائرها وهذا ليس مجرد إثارة للنزاع القديم، بل تحديد "هوية الهرطقة" وهو تحديد لازم لإظهار مكانها في التقليد.

وفي الصراع ضد النسطورية التزم القديس كيرلس بذات الاتجاه اللاهوتي، وهو البحث عن تاريخ الفكرة وتحديد موقعها في التقليد ثم الرد عليها. و لم يكن غريباً وهو يكتب مقالاته ضد تجاديف نسطور ثم مقالته المشهورة باسم "المسيح الواحد"، أن يفتتح أو يستهل المقالة الأخيرة بفصل كامل عن كل الآراء التي قيلت عن المسيح من الغنوسية حتى النسطورية.

## التاريخ واللاهوت كوحدة واحدة

من النصوص الجميلة التي يظهر فيها التاريخ واللاهوت كوحدة واحدة، هو ذلك النص الجميل من رسالة القديس إغناطيوس الشهير وهو يقاوم بدعة عرفت باسم "الدوسيتيين"، وهي إحدى تيارات الغنوسية التي قالت أن جسد المسيح هو مجرد خيال لا وجود له في الواقع. يقول القديس إغناطيوس:

"أشكر يسوع المسيح الإله الذي وهبكم مزيداً من الحكمة إذ اتضح لي أنكم كاملون في إيمان وطيد كما لو سُمِّرتم بالجسد والروح إلى صليب يسوع المسيح، وتأصَّلتم في المحبة بدمه، وتيقَّنتم أن ربنا الذي وُلِد حقاً من ذرية داود بالجسد. ابن الله بحسب مشيئته وقدرته، قد وُلِد حقاً من العذراء وعمَّده يوحنا حتى يتم كل بر، وثُقِب جسده بالمسامير لأجلنا على عهد بيلاطس البنطي وهيرودس رئيس الربع. وبثمرة صليبه وآلامه المجيدة صارت لنا الحياة، لينشر رايته في الدهور بقيامته، ويجمع قديسيه والمؤمنين به من اليهود والأمم في جسم كنيسته الوحيدة، وهو إنما احتمل الآلام لأجلنا ولأجل خلاصنا وتألم حقاً وقام حقاً، وآلامه لم تكن في الظاهر كما ادعى بعض الملحدين الذين هم أنفسهم ليسوا سوى أشباح، وسيُقضى عليهم في العاقبة أن يكونوا بلا أجساد على مثال إدعائهم وسيصيرون مثل الشياطين.

أمَّا أنا، فأعرف وأؤمن أنه كان ليسوع جسدٌ حتى بعد قيامته، هذا ما قاله لبطرس والذين معه عندما دنا منهم "ألمسوني، جسُّوني، أعلموا أنني لست روحاً بل جسداً"، وفي الحال لمسوه واتحدوا

بجسده وروحه إتحاداً وثيقاً، لهذا استهانوا بالموت وانتصروا عليه، وقد أكل يسوع وشرب ككل إنسان مع تلاميذه بعد قيامته رغم أنه ظل متحداً بالآب في الروح" (رسالة إلى أزمير ٢ – ٣).

لأول وهلة قد لا نرى في هذا النص أي شيء مما نتحدث عنه، ولكن التدقيق في النص يجعلنا على الفور نميِّز الإشارة إلى التاريخ وبشكل خاص: ذرية داود – الصلب على الصليب كحدث تاريخي، وهنا التاريخ متحد باللاهوت تماماً، ويتعذَّر فصله بالمرة. حتى في مسألة القيامة، لقد لمس بطرس المسيح، وهذا تاريخ. ولكن القديس إغناطيوس لا يقف عند التاريخ؛ لأنه ينتقل إلى اللاهوت، إلى الاختبار الحي فوراً وبدون تردد ويقول إن الذين لمسوه "اتحدوا بجسده"، ثم يعود إلى التاريخ "لهذا استهانوا بالموت وانتصروا عليه"، ولاحظ أنها نفس النوتة الموسيقية عن أكل المسيح بعد قيامته، ولكنه ظل متحداً بالآب والروح. أي من التاريخ إلى اللاهوت، ثم من اللاهوت إلى التاريخ.

وهذا النص ليس فريداً في كتابات القديس إغناطيوس أو غيره من الآباء، إنما هو مختار كمثال لطريقة الحديث عن العقيدة عند الآباء، وهو يكشف عن الرؤية الحقيقية لطبيعة اللاهوت المسيحي، ذلك أن التجسد هو الأساس التاريخي لطبيعة اللاهوت المسيحي. وما حدث من أحداث أخرى مثل الصليب أو القيامة، هي أحداث تمَّت هنا على الأرض وفتحت السماء للأرض أو الأرض للسماء. هذه الرؤيا قوية وعميقة في كتابات الآباء.

وعندما أثير موضوع علاقة الأسفار بالإيمان قال القديس إغناطيوس: "سمعت بعضهم يقول: (ما لا أجده في الوثائق القديمة "*Archives*" لا أؤمن به، ولو ورد في الإنجيل). وحين قلت لهم: "هذا ما قد كُتب" أجابوا: (هنا انتهت المسألة). أمَّا عني، فوثائقي القديمة هي يسوع المسيح. ووثائقي الراهنة هي صليبه وموته وقيامته والإيمان الذي علَّمه (المسيح)، من هذه أنتظر تبرئتي بمعونة صلواتكم" (فيلادلفيا ٨: ٢). والإشارة هنا إلى المسيح كوثيقة، هو تعبير هام جداً؛ لأنه يؤكد كل ما نقرأه في الكتاب المقدس حتى في الأناجيل نفسها، وهو تدعيم لمعرفتنا بالأصل بمن يحتوي على كل شيء يخص الله والإنسان. ويوضح القديس إغناطيوس هذه النقطة إذ يقول بعدها مباشرة: "هو رئيس الكهنة الذي أُسنِدت إليه رعاية قدس الأقداس، وأتؤمن على أسرار الله: إنه الباب المؤدي إلى الآب، به دخل إبراهيم وإسحق ويعقوب والأنبياء والرسل والكنيسة، هذا كله يفضي إلى الوحدة مع الله" (فيلادلفيا ٩: ١ – ٢).

وليس صعباً أن نجد ذات الاتجاه عند أثناسيوس أو باسيليوس أو غيره، فالمسيح هو كل شيء، وكل الوثائق والشهادات أياً كانت، ما هي إلاَّ إشارات إلى الحقيقة: الإله المتجسد.

ولأن التاريخ واللاهوت وحدة واحدة، كانت الإشارات إلى النبوات ونصوص الإنجيل ضرورية في مجال الحديث عن الإله المتجسد. يقول القديس إغناطيوس: "من الناس مَن ينكرونه عن جهل أو

بالحري هو الذي أنكرهم، إنهم يدافعون عن الموت لا عن الحياة، وما نجح في إقناعهم لا النبوات ولا ناموس موسى حتى ولا الإنجيل" (أزمير : ٥).

ولأن التاريخ واللاهوت وحدة واحدة هي استمرار التقليد، كان اتجاه الآباء إلى كتابات الآباء الذين سبقوهم ضرورياً جداً لضمان استمرار التقليد، وقد بدا هذا الاتجاه واضحاً جداً عند إيريناوس، وظهر قوياً جداً عند أثناسيوس الذي رجع إلى كل كتابات الآباء الذين سبقوه مثل ديونيسيوس وأوريجينوس. كانت شهادة هؤلاء تأكيداً لأثناسيوس نفسه على أنه يسير في ذات الاتجاه وعلى ذات المنهج.

وكانت دراسة التاريخ أساسية للحياة المسيحية نفسها. يقول القديس أكليمنضس الروماني وهو يعالج موضوع الانقسام وضرورة الخضوع لإرادة الله، وبعد أن تحدَّث عن قورح وداثان وأبيرام ثم تحدَّث بعد ذلك عن الأبرار مثل نوح وإبراهيم ويعقوب وموسى وداود – يقول القديس أكليمنضس: "الاتضاع والطاعة التامة من جانب هؤلاء الناس المعروفين هي أمثلة تهدف ليس إلى تصحيح ذواتنا فقط، بل حتى الأجيال التي سبقتنا" (رسالة أكليمنضس الروماني ١٩: ١).

ومن الواضح أن الإنسان يتعلم من التاريخ مباشرة، وهذه ليست نظرة جديدة عند أكليمنضس، بل هي اتجاه واضح في العهد الجديد وبالذات في الرسائل عند بولس وبطرس ويعقوب حيث تظهر شخصيات نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسو وأيوب.

والتاريخ عند الآباء ليس الكتاب المقدس وحده، بل أيضاً التاريخ الوثني. وكل الذين درسوا رسائل الآباء إلى الوثنيين مثل تلك التي كتبها أكليمنضس أو ترتليان أو أثناسيوس، يرى أنهم هضموا جيداً تاريخ الوثنية لا لكي يؤكدوا فساد الذوق للوثنية، بل لكي يستخلصوا التطلعات الأساسية للإنسان، وكيف أمكن تحقيق مثل هذه التطلعات بمجيء الكلمة المتجسد، وأن كل هذه التطلعات تؤكد أن المسيحية ليست غريبة على الطبيعة البشرية، بل هي تنادي بأفضل ما في الإنسان وتؤكد محبة الخالق للإنسان على النحو الذي نراه في التجسد، ولذلك يكتب يوستينوس الشهيد: "لقد تعلمنا أن المسيح هو الابن الوحيد لله، وقد أظهر أنه هو اللوغوس الذي منه أخذ كل الجنس البشري قبساً، وكل الذين عاشوا في رفقة اللوغوس كانوا مسيحيين حتى وإن وُصفوا بأنهم ملحدون مثل سقراط وهيراقليطس "*Heraclitus*" ومن مثلهم عند اليونانيين أو عند باقي الشعوب مثل إبراهيم وحنانيا وعزريا وميصائيل وإيليا وغيرهم" (الدفاع ١: ٤٦). ويشرح يوستينوس فكرته إذ يقول: "كل نطق كريم وكل اكتشاف للفلاسفة أو المشرِّعين عن طريق البحث والتأمل، كان بمساعدة وتأثير اللوغوس، ولكن لأنهم لم يتعرفوا على اللوغوس أي في المسيح في كمال إعلانه، تحدَّثوا في أمور متناقضة" (الحوار:

٧). ولذلك، فإن المسيحي يتعلم من تاريخ الوثنية، لأنه إذا كان مجيء اللوغوس هو تأمين كمال الإنسان، فإن كل محاولات الإصلاح والتقدم ليست عبثاً، بل هي جهد غير منظور للكلمة أو اللوغوس.

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن مجمل اللاهوت المسيحي هو الإنسان المفتدى بيسوع المسيح وحده، الإنسان كما هو في الواقع، وهو كما هو في الواقع لا يعالج بالتخمينات والشطحات "*Speculations*"، بل بالواقع وبالتاريخ. وهذا هو سبب المعارضة الشديدة للهرطقات؛ لأنها خروج على الواقع، هي محاولات لجعل اللاهوت المسيحي موضوعاً من موضوعات الخيال. أو إن شئنا الدقة أن يصبح اللاهوت "*Is-ness*" أي ما هو كائن فعلاً في التاريخ دون أن ينفصل عما يجب أن يكون "*Ought-ness*"؛ لأن كليهما في المسيح الواحد الذي هو الألف والياء، البداية والنهاية. فالشطحات ليست سوى خيال بلا واقع إنساني، وخيال تعوزه النظرة المستقبلية أيضاً.

وقد دخل تاريخ الخلاص، الليتورجية، وأصبحت الصلوات تبدأ من سفر التكوين، من خلق العالم حتى مجيء المسيح في الجسد ثم ظهوره الثاني للدينونة. وقد أخطأ الكثير من الذين درسوا الليتورجية واعتبروا أن الصلوات هي "عرض أو سرد لحياة المسيح"، ولكن الصلوات هي ارتباط بأعمال الله التي تحدث في القداس، وذلك أن الخلق الأول في التكوين والخلق الثاني في يسوع المسيح هما عملٌ واحد، لأن الواقفين في الكنيسة والحاضرين أمام الثالوث هم ذات البشر الذين خُلقوا على صورة الله والذين يستردون هذه الصورة الآن في التاريخ في يسوع المسيح. ولنفس السبب يفتتح يوحنا اللاهوتي إنجيله بالحديث عن عمل الكلمة كخالق، ثم مجيئه في الجسد من أجل إعادة مجد الخليقة الضائع. هذه الوحدة لا انقسام فيها بالمرة، فالخليقة الأولى عندما عَتَقَت وشاخت، هي هي بذاتها جُدِدت ووُهِبَت الحياة الجديدة دون أن تضمحل أو تتلاشى، وهذا هو السبب الأصيل في بدء الأنافورا بالصلاة للخالق في كل القداسات.

ولنفس السبب تجرأ المسيحيون الأوائل ورسموا مناظر معينة من الكتاب المقدس بعهديه، وأقدم مثال معروف هو كنيسة عين دورا "*Dura*" في شمال العراق[1] والتي تعود إلى سنة ٢٣٢م. وهي أقدم الآثار المسيحية المعروفة لنا حتى الآن، وحول المعمودية رُسِمَ على الحائط الجنوبي المرأة السامرية عند البئر، ثم داود وجليات، وعلى الحائط الشمالي النسوة عند القبر، وبجانب ذلك شفاء المسيح للمخلع في كفر ناحوم، ويظهر المسيح واقفاً مرتدياً رداءً، رافعاً يده اليمنى فوق المريض، وعلى الجانب الغربي يوجد منظر لآدم وحواء والشجرة بينهما، ويعلو ذلك الراعي الصالح وهو يحمل فوق كتفيه حملاً صغيراً. ومن السهل على من يعرف ويتذوق الإحساس بحقيقة الخلاص أن يرى الارتباط بين كل هذه المناظر لأنها في

---

([1]) Excavations at Dura – Eurpos, conducted by Yale University, fifth season, P254-P283>

النهاية تشرح المعمودية والحياة المسيحية. وكل الذين درسوا الليتورجيات يعرفون أن كل هذه المناظر هي دروس أساسية في تاريخ الخلاص. لكن ما هو الأصل العقيدي الذي شُيِّدت عليه كل هذه المناظر؟

**١**- إن الابن تجسَّد فعلاً، ولذلك رُسِمَ على جدران الكنائس وفي الأيقونات بعد ذلك. وحقيقة ناسوته جعلت أوصاف وجهه تدون (رسالة جيروم رقم ٦٥)، بل شكل هيئته (المؤدِّب – أكليمنضس السكندري ٣: ٢، ترتليان – مقالة في جسد المسيح فقرة ٩ وملاحظات العلامة أوريجينوس ضد كلسوس ٦: ٧٥ مع ٦: ٧٦ وشرح إنجيل متى الفقرة ١٠٠).

**٢**- إن ما يحدث في الواقع، أي في التاريخ هو ربط بين النبوة والحدث، وأن هذا الربط لا يتم في عقل الإنسان وفكره، بل في الواقع الحي. حَدَثَ أولاً على مستوى التجسد نفسه، ثم يحدث بشكل آخر في صلوات الكنيسة وحياتها حيث يتحول التاريخ من ربط وإدراك علاقة بين النبوة والحدث إلى ربط وإدراك علاقة بين ما تحقق أي كمال النبوءات في المسيح وما يحققه المسيح شخصياً في حياة الكنيسة. هذا هو ما حوَّل الكنيسة إلى شاهد على صدق مواعيد الله، وجعل كل ما يقوله هذا الشاهد هو حقيقة ما تعيشه الكنيسة أو ما نسميه بالتقليد، فالتقليد إذن هو اختبار يتضمن نصوص الكتاب المقدس وما فهمته الكنيسة وأدركته وما دونته وما صَلَّت لأجله وما لا تزال تصلي لكي تناله.

## المبحث الثاني

# التسليم أو التقليد
# كمصدر أساسي للاهوت

رأينا كيف كان من الضروري أن يتم تسجيل التاريخ لكي تؤكد الكنيسة حداثة الهرطقات، ولكن من جانب آخر؛ لكي تؤكد أيضاً استمرار وبقاء التعليم الرسولي في الكنيسة. هذا الاستمرار والبقاء هو القوة الحقيقية للكنيسة، وهو القوة التي تجعل الكنيسة قادرة على التمييز بين الصواب والخطأ. وهذه القوة هي ما نسميه التسليم أو التقليد، وهي الأرضية السليمة الأصلية للبنية اللاهوتية الأرثوذكسية. وبكل أسف أن أي بناء لاهوتي لا يقوم على التقليد هو بناء هش قد يكون له مظاهر الفخامة والقوة، ولكنه في حقيقته كومة من القش تعصف بها الرياح.

وكلمة التقليد مثل غيرها من الكلمات التي عانت سوء الاستعمال أو سوء الفهم، فهي في العربية تعني "المحاكاة"، والمعنى الدارج عند الذين يميلون إلى العصرية هو اعتبار التقليد شيئاً قديماً زائلاً لا قيمة له، بل يعتبر الفنانون والموسيقيون أن الموسيقى التقليدية هي الموسيقى الشعبية. ولذلك قبل أن نشرح التقليد علينا أن ننقي الكلمة أولاً من خطورة الاستعمال السيئ، وإيضاح المقصود بالتقليد في المجال اللاهوتي والكنسي، ومن ثمَّ نشرح التقليد. ولنفس السبب أردنا أن نعود إلى ترجمة سليمة للكلمة اليونانية في الكتاب المقدس والآباء.

### التسليم هو الكلمة اليونانية "ΠΑΡΑΔΟΣΙΣ"[١]

كلمة تسليم في اليونانية كما وردت في العهد الجديد "παραδοσις"، وهي لا تؤدي المعنى المفهوم من الترجمة العربية "المحاكاة" أو التقليد، ولكنها تعني ما يُسلَّم باليد، وهي بالإنجليزية كما بالفرنسية "*Tradition*" وباللاتيني "Traditio" وهي في اللغة العبرية جاءت "kible min" بمعنى "قَبِلَ مِنْ".

---

(١) اعتمدنا في تحليل الكلمة اليونانية على أفضل مرجع للكلمات اليونانية للعهد الجديد الذي أشرف على إصداره G. Kittel باسم:
Theological Dictionary of the New Testament vol 2,P 166-177.

وفي الأصل اليوناني جاءت من الاشتقاق اللغوي عن الفعل اليوناني "παραδιδονια"، أي "يعهد بشيء إلى آخر"، أو "ما يُسلَّم من واحد لآخر يداً بيد". والفعل اليوناني هو أصلاً "παραλαμβανειν" وهو يعني "يتقبَّل الشيء أو يتسلمه"، ومن هنا جاءت الكلمة المشتقة منهما وهي "παραδοσις" وهي تحمل معنى "تسليم وتسلم".

هذا وقد شرح العالم الألماني "*Bauer*" أصل الكلمة على أنها جاءت من الفعل اليوناني "διδωμι"، أي "يسلم أو يعطي وديعة أو عطية" (يعقوب ٢: ١٦، يوحنا ٣: ١٧). ويلاحظ العالم الألماني "*Buchsel*" أن الفعل يتضمن أصلاً عطاء المحبة، ولذلك اشتقت من الكلمة المشهورة "δωρον" أي العطية الإلهية (أفسس ٢: ٨). وعندما أُضيف المقطع "παρα" أصبحت الكلمة "παραδιδωμι" تعني العطاء أو التسليم في اليد، وهو الفعل الذي استُخدِم عندما تسلَّم بيلاطس الرب من مجمع السنهدرين (مرقس ١٥: ١)، راجع أيضاً "سلَّمته إلى الشيطان" أي سلَّمته بيدي إلى يد الشيطان (١كورنثوس ٥: ٥)، وأيضاً "أسلم الروح" (يوحنا ١٩: ٣٠).

على أن هذا الاستعمال الحر، صار أكثر ارتباطاً بالمعنى الدقيق عندما يكون الموضوع هو التعليم. فقد استُخدِم الفعل في مواجهة التعليم ومقاومته عندما احتج اليهود ضد القديس استفانوس واتهموه بأنه يقول: "إن يسوع الناصري هذا سينقض هذا الموضع (الهيكل) ويغيِّر العوائد التي سلمنا إياها موسى" (أعمال ٦: ١٤). ولكن القديس بولس استخدم نفس الكلمة "شكراً لله أنكم أطعتم من القلب صورة التعليم التي تسلمتموها" (رومية ٦: ١٧) فالتعليم إذن يُسلَّم أو يُعطى. ولذلك يمدح الرسول كنيسة كورنثوس لأنهم يذكرونه في كل شيء ويحفظون التعاليم كما سلَّمها وديعة الخلاص معاشة بالممارسة العملية من خلال حياة الكنيسة في كل عباداتها وطقوسها وليتورجياتها، ومما ورد ذكره في هذا السبيل قول القديس بولس الرسول: "لأني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً إن الرب في الليلة التي أُسلِم فيها أخذ خبزاً ... كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا ..." (١كور ١١: ٢٣، ٢٥).

وفي الواقع، عندما يذكر القديس بولس "التسليم"، فهو يرتب التسليم على هذا النحو: الرب يسوع (١كورنثوس ١١: ٢٣)، ثم الكنيسة أو جماعة الرسل (١كورنثوس ١٥: ٣)، ثم بعد ذلك يشير إلى نفسه (١كورنثوس ١١: ٢٣). ولعل هذا يظهر بشكل أوضح في قوله: "فإني سلَّمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب وأنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر" (١كورنثوس ١٥: ٣ – ٥). وكما هو واضح، نلاحظ أن الرسول يذكر الكثير من الأحداث التي لم يعاصرها هو مثل ظهور الرب لبطرس (صفا)، ثم للاثنى عشر ... إلخ، كل هذه الأحداث سُلِّمت، وكل هذا التسليم هو الفعل (Verb) الذي يفيد نقل التعليم من شخص إلى آخر.

ويشرح القديس بطرس – بتدقيق – أهمية تسليم التعليم موضحاً خطورة موقف الذين ينفصلون عن الكنيسة بقوله" "يرتدون عن الوصية[1] المقدسة المسلَّمة لهم" (٢بطرس ٢: ٢١). هـذا يعـني أن الوصية نفسها تُسلَّم، لأن التسليم ليس الكلام، بل معنى وطريقة تطبيق الوصية كما يتضح من كلمات القديس بطرس نفسه (راجع ٢ بطرس ٢: ٢٠ – ٢٢).

وعموماً، فإن الإيمان بشكل عام ومطلق هو الوديعة المقدسة التي تُسلَّم للقديسين (يهوذا: ٣).

والوثائق كلها والعهد الجديد وكتابات الآباء تؤكد هذا التسليم، وتحرص عليه، ويشهد لهـذا التسليم بكل وضوح القديس لوقا مؤكداً أنه أخذه من الكنيسة: "إذ كان الكثيرون قد أخذوا في تأليف قصة عن الأمور المتيقَّنة (التي جرت فيما بيننا) عندنا. على حسب ما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهود عيان، ثم صاروا خداماً للكلمة، رأيتُ أنا أيضاً بعد ذلك إذ تحققت بدقة جميع الأشياء من البدء أن أكتبها .." (لوقا ١: ١ – ٣). وكما نرى، يعرض القديس لوقا التسليم مع الوثائق في نص واحـد، ولكن كما هو واضح أن صحة الوثيقة يشهد بها الذين عاينوا الأحداث والذين خدموا الكلمة (المعلِّمين أو الكارزين).

وليس التسليم هو بداية الإيمان فقط، بل إنه يرافق الإيمان، فيقول سفر الأعمـال إن بـولس وتيموثاوس كانا يجتازان المدن "ليسلموهم الوصايا "δογματα" التي قررها الرسل والشيوخ الـذين في أورشليم ليحفظوها" (أعمال ١٦: ٤). (لاحظ الترجمة البيروتية تترجم كلمة "δογματα" إلى قضـايا وهذا إضعاف للكلمة). وكما هو واضح أن التسليم ليس مكتوباً، طبقاً لما جاء في النص، إنمـا الـذي يسلِّم هو المعلم الكنسي رسولاً أو من كان مُعيناً من قبل الرسل وتشهد له الجماعة بصدق الإيمان، وأنه استلم حسناً الإيمان: "وما سمعته من بشهود كثيرين أَودعه أناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً" (٢تيموثاوس ٢: ٣).

من هنا يتضح لنا أن كلمة تسليم "παραδοσις" تعبِّر عن نقل الإيمان. ويقول العالم الألمـاني "Buchcel" إن التسليم هو "***What is transmitted***". وربما كان استخدام كلمة "تقليد" بدلاً مـن كلمة "تسليم" من الأسباب التي أضعفت معنى الكلمة اللاهوتي؛ لأن شيوخ اليهـود كـانوا يقلـدون السابقين دون اهتمام بمعنى وغاية ما يمارسونه، وهو ما جعل كلمة "تقليد" تدان أحياناً في العهد الجديد (مرقس ٧، متى ١٥). وهذه التقاليد التي وصفها الرب بأنها حسب البشر أو من الناس (مرقس ٧: ٧، ٨، متى ١٥: ٦). ولكن كما رأينا أن التعليم المسيحي نفسه هو التسليم وليس المحاكاة (١كورنثـوس ١١: ٢، ٢تسالونيكي ٢: ١٥، ٣: ٦، ١كورنثوس ١١: ٢٣، ١٥: ١-١١). بل يؤكد الرسـول أن

---

(١) استخدمت الرسالة الكلمة اليونانية "εντολη" وتعني الوصية نفسها مثل "أحبوا بعضكم بعضاً ... إلخ".

التسليم هو ما تحتفظ به الكنيسة، بل في دقة يقول: "وبه أيضاً تخلصون" (١كورنثوس ١٥: ٢)، وطبعاً التسليم من الرب نفسه غير التقليد الذي هاجمه السيد المسيح والذي يقول عنه الرسول في (كولوسي ٢: ٨) "تقليد الناس" أي تقليد اليهودية أو العادات الوثنية، وطبعاً عندما يستخدم الرسول ذات التعبير الذي استخدمه الرب، فيكون واضحاً أنهما معاً يحاربان التقليد أي تسليم عادات بائدة.

## التسليم عند الرسول بولس:

بدأت الكنيسة حياتها بما تسلمته من الروح من خلال الرسل والكارزين، وبالتالي انتقلت حقائق الإنجيل الإيمانية بانتشار كرازة الخلاص، وعاشت الكنيسة منذ فجر تاريخها المبكر حقيقة إيمانها بما تسلمته وما قامت بدورها تسليمه. وبالتالي، فكل الذين قاموا بعمل كرازي لاحق أو مصاحب لعمل الرسل لم يعيشوا في فراغ، كما أنهم لم يأتوا من فراغ، وإنما وُلِدوا روحياً أو جسدياً في وسط جماعة تنقل حقائق الخلاص. واستناداً إلى هذا، فالمعرفة أو أي تفصيل خاص بشخص الرب يسوع ومواصفات شخصية المخلص تناقلت مُسلَّمة في الأوساط الكرازية، و لم يشذ بولس الرسول عن هذه القاعدة.

فعن الرب نفسه يسجِّل بولس الرسول تسليم الكنيسة كما عرفه من الرسل، وشَرَحَ شخص الرب يسوع المخلِّص كما تقبَّله على مثل هذا النحو:

يسوعُ إنسانٌ (رومية ٥: ١٥، ١كورنثوس ١٥: ٢١)، يهوديٌّ (رومية ٩: ٥)، مولودٌ من امرأةٍ تحت الناموس (غلاطية ٤: ٤)، من نسل إبراهيم (غلاطية ٣: ١٦)، من نسل داود (رومية ١: ٣)، وله أخوة[1] (١كورنثوس ٩: ٥)، واحدٌ منهم يدعى يعقوب (غلاطية ١: ١٩)، وله اثني عشر رسولاً (١كورنثوس ١٥: ٥). ويسرد بعض ملامح شخصية السيد المسيح، فيتحدث عن وداعته وحلمه (٢كورنثوس ١٠: ١)، وطاعته (رومية ٥: ١٩)، واحتماله (٢تسالونيكي ٣: ٥)، ثم اتضاعه الإلهي (٢كورنثوس ٨: ٩، متى ٢).

وعن أهم أحداث حياة المسيح، فقد سُلِّمَ في الليلة التي أسَّس فيها العشاء الرباني (١كورنثوس ١١: ٢٣-٢٥)، ويوضح أن هذا تمَّ في الفصح اليهودي (١كورنثوس ٥: ٧)، وأن اليهود حكموا عليه بالموت صلباً (١تسالونيكي ٢: ١٥، ١كورنثوس ٢: ٨، غلاطية ٣: ١٣)، وأنه دُفِن وقام في اليوم الثالث، وظهر للشهود الذين اختارهم هو (١كورنثوس ١٥: ٣ وما بعده).

وعن تعليم الرب نفسه أربع مرات "كلمات الرب" (١كورنثوس ٧: ١٠، ٩: ١٤، ١١: ٢٣ – ٢٥، ١تسالونيكي ٤: ١٥-١٧)، وبالطبع هذه الكلمات لم يأتِ ذكرها و لم تدوَّن في الأناجيل

---

[1] بالطبع ليس من العذراء، ولكن حسب تقليد الشعب اليهودي في اعتبار بعض درجات القرابة كالأخوة.

الأربعة. ويحاول مهاجمو التقليد أن يوجدوا فرصة الإدعاء بأن الرسول تعلَّم هذا من المسيح مباشرة وبدون الكنيسة، على أن رسائل القديس بولس لا تكشف ما يؤكد هذا الإدعاء، ذلك كل ما لدينا من معلومات عن المسيح، موضوعة في إطار الخبرة المسيحية الصحيحة. فالمسيح هو الإنسان من نسل داود وهو المخلِّص، وهو الذي أكمل الناموس وقدَّم ذاته فدية، وهو الآن – وكلمة "الآن" من الكلمات الهامة عند بولس – يضم إليه في المعمودية والإفخارستيا الذين يؤمنون به، ويُكَوِّن منهم الكنيسة جسده الحي.

فالرسول كما سبق أن قلنا، لم يَعِش في فراغ، بل عاش في صحبة الرسل الذين اعتبرهم أعمدة وعرض عليهم الإنجيل الذي يكرز به، ولاحظ قوله "لئلا أكون أسعى أو قد سعيت باطلاً" (غلاطية ٢: ٢). والخطأ الكبير كامن في سوء فهم كلمات الرسول في (غلاطية ١: ١٢)[١] فإعلان السيد المسيح لم يكن يتضمن التعليم، بل دعوة الرسول نفسه إلى الكرازة (راجع كلمات الرسول بعد ذلك في أعمال ٢٢: ١٠)[٢].

إننا نحاول كشف الستار عن بعض الملابسات التي تقلل أهمية الدور الذي اضطلع به التقليد في إعداد المعلم الروحي والكارز الكنسي الذي يتحمل أعباء ومتطلبات نقل الإيمان إلى الآخرين، وذلك لأننا نبحث في موضوع التقليد الذي لعب الدور الأول في نقل التعليم ومفاهيم الإيمان، فحينما نوضِّح الطريقة التي بها تقبَّل القديس بولس الإيمان، وبالتالي قيامه بنقل الإيمان، فإننا نوضِّح جانباً من الجوانب التي عاشتها الكنيسة إيمانياً في تاريخها المبكر. يكفي ذلك المنظر الذي شاهده بولس يوم مقتل إسطفانوس الشهيد الأول ونُطقه لكلمات محددة صاغ فيها إيمانه بقوله: "أيها الرب يسوع"، والمناظرة العجيبة التي شهد فيها للرب يسوع أمام السنهدرين بكل ما فيها من شرحٍ لشخصية الرب يسوع كإيمان عاشت به الكنيسة، هذا بالإضافة إلى احتكاكه بالمسيحيين عند اضطهاده لهم ... إلى جانب الفترة التي عاشها مع التلاميذ والرسل وقبل بدء الكرازة، فقد قال هو عن نفسه إنه قضى ١٥ يوماً في أورشليم في صحبة الرسل (غلاطية ١٠)، وبالتالي فكرازة بولس كانت استلاماً ونقلاً للعقائد الإيمانية الأساسية التي كانت للكنيسة، ومن بينها العبارات العقائدية الخاصة بالمسيح وبالأسرار وغيرها.

فالرسول بولس وإن كان قد تعرَّف على المسيح بإعلان إلهي في طريق دمشق، لكن كان ضرورياً ولازماً له أن يعرف ويستلم الإيمان من الكنيسة – على يد حنانيا طبعاً – ويعيش بين باقي التلاميذ كعضو يتشرَّب الإيمان منهم، وأعتقد أن هذا يوضح عمق وقوة كلماته عن الكنيسة كجسد المسيح، وتعبيراته عن جسد المسيح الواحد كجماعة كثيرة.

---

(١) "لأني لم أقبله (أي الإنجيل) من عند إنسان ولا عُلِّمْتُه. بل بإعلان يسوع المسيح".
(٢) "فقلت ماذا أفعل يا رب. فقال لي الرب قم وأذهب إلى دمشق وهناك يُقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل".

على أي الأحوال، لو أن بولس الرسول توقَّع أن يتعرَّف كل إنسان على "تقليد المسيح" بنفس الطريقة، لما احتاج لأن يترك هذا التقليد بين يدي الكنيسة، معطياً فرصة لكل عضو أن يتعرف على المسيح بإعلان خاص مثله.

ويكفي أن نستعرض في عجالة بعض النصوص الهامة التي استخدمها القديس بولس عندما تحدَّث عن الإيمان الخاص الذي سلَّمه لكنيسة كورنثوس (١كورنثوس ١٥: ٣ وما بعده) فهو يتحدث عن إيمان معروف للكل يعود إلى الذين عاشوا قبله، ويقول: "سواء أنا أم أولئك هكذا نكرز وهكذا آمنتم" (١كورنثوس ١٥: ١١)، فهو يشهد لوحدة التعليم التي يكرز الكل بها. ولكن علينا أن نرى بكل دقة وبكل إمعان أن الرسول بولس يتحدث عن دعوته للخدمة أثناء تقديمه للتقليد الخاص بقيامة المسيح (١كورنثوس ١٥: ٨ – ٩).

وإذا أخذنا النص الخاص بالعشاء الرباني في (١كورنثوس ١١: ٢٣ – ٢٥)، يتضح لنا أن الرسول لم يقل و لم يقصد مطلقاً إنه أخذه بالإعلان الإلهي. والذين يحشرون الكلام عن الإعلان الإلهي يهملون جانباً هاماً، وهو أن ما حدث كان موجوداً فعلاً في الواقع الكنسي آنذاك و لم يكن محتاجاً إلى رؤيا، وإنما الحاجة كانت إلى الرجوع بالسؤال عنه الذين سبقوه ... بمعنى أن طقس العشاء الرباني مارسته الكنيسة وعاشته قبل اهتداء بولس إلى الإيمان بالسيد المسيح، بل أن القديس بولس نفسه عاش هذا الطقس وعرفه قبل أن ينفرد في خلوته في الصحراء العربية. فقد عاش حقاً فترة من الزمن عند حنانيا في دمشق "فقلت ماذا أفعل يا رب؟ فقال لي الرب قم وأذهب إلى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل" (أعمال ٢٢: ١٠). "فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال وقام واعتمد وتناول طعاماً فتقوى، وكان شاول مع التلاميذ الذين في دمشق أياماً، وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله"، "فكان معهم يدخل ويخرج في أورشليم ويجاهر باسم الرب يسوع" (أعمال ٩: ١٨ – ٢٠، ٢٨).

واضح إذن أن بولس التصق بالكنيسة أياماً وقام بدور كرازي. إذن، فالواقع الكنسي الذي رآه القديس بولس الرسول على طبيعته لم يكن يحتاج إلى رؤيا خاصة.

ولعل تعبير القديس بولس الخاص بإيمانه حول طقس الإفخارستيا في قوله: "من الرب" يشبه إلى حد كبير في الصياغة، بل له نفس المعنى الذي يقوله هو نفسه: "لست أنا بل الرب"، وهي تسبق القطعة الخاصة التي نحن بصددها (١كورنثوس ٧: ١٠)، وبولس يؤكد هنا أن ما يقدِّمه يستند على سلطة الرب نفسه مؤسِّس العشاء.

لقد أخَذَت الكنيسة "عشاء الرب" كتقليد إلهي من الرب نفسه، وهذا هو معنى العشاء الأخير مع الاثنى عشر. وسلَّم التلاميذ هذا التقليد إلى غيرهم. فإذا استلمه رسول آخر لم يكن قد اشترك فيه

مع الرب ليلة العشاء الأخير مثل بولس الرسول، فقد كان يستطيع بكل ثقة وتأكيد أن يقول إنه استلمه من الرب "لأني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً إن الرب يسوع في الليلة التي أُسلِم فيها أخذ خبزاً ..."، وهذا إيضاح للحد الذي بلغت إليه الثقة واليقين في تسلم وتسليم تقليد سر الإفخارستيا.

ويؤكد علماء اللغة اليونانية أن القديس بولس في نقله لهذا التقليد – سواء الذي جاء بخصوص الإفخارستيا (١كورنثوس ١١)، أو الذي جاء بخصوص موت الرب وقيامته وظهوره (١كورنثوس ١٥) – قد استخدم كلمات خاصة لم يستخدمها من قبل؛ لأنه التزم بما استلمه. فيؤكد العالم "يواكيم إرميا"[١] أن التقليد الذي ينقله بولس الرسول بكلماته هو من أصل عبري واضح وليس من أصل يوناني، تأكيداً على أن التقليد اللفظي الاصطلاحي منقول من نفس الألفاظ التي قالها السيد المسيح وسمعها التلاميذ ونقلوها كما هي، وكما سرت في الكنيسة الأولى في الوسط المسيحي العبري أي باللغة الآرامية.

ويظهر دور التقليد واضحاً جداً في عرض بولس الرسول للعشاء الإلهي (في ١كورنثوس ١١)، بالمقارنة مع ما جاء بالأناجيل وسفر الأعمال، فلقد استعمل القديس بولس عبارة لم يرد ذكرها في الأناجيل، وهي "اصنعوا هذا لذكري"، وهي في حد ذاتها شهادة على أن الرسول بولس كان ينقل صيغة طقسية استخدمتها الكنيسة قبله. ولعل أقرب عبارة لمثل هذا المعنى نطق بها الرب هي: "لا أشرب بعد من عصير الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً في ملكوت الله" (مر ١٤: ٢٥، مت ٢٦: ٢٩).

وعندما يفتتح الرسول بولس رسالته إلى رومية: "بولس عبد ليسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله الذي وعد به من قبل بالأنبياء في الكتب المقدسة عن ابنه المولود من نسل داود حسب الجسد والذي تبين أنه ابن الله بقوة الروح القدس وبسبب قيامته من الأموات" (رومية ١: ١ – ٣). ألا نرى قوة التقليد في الكلام عن ابن الله الذي من نسل داود حسب الجسد والذي حلَّ عليه الروح القدس في المعمودية بالأردن وأعلنه ابناً لله ... الخ.

ومن النصوص الأخرى الهامة التي يظهر فيها التقليد واضحاً: "هذه هي كلمة الإيمان التي نكرز بها: إذا أنت اعترفت بفمك بالكلمة أن يسوع هو الرب وآمنت من قلبك إن الله أقامه من الأموات خلُصت" (رومية ١٠: ٨، ٩)، وكلمة الإيمان هي صيغة الاعتراف بالإيمان حسب شرح "*Bousset*"[٢] لأنها كلمة اعتراف علني بأنه هو الرب، وهي أقدم صيغة للاعتراف بالإيمان (أعمال ٢:

---

([1]) J.Jeremias "The Eucharistic Words of Jerus" P. 18.

([2]) "Mysteriam Christi", P. 109.

٣٦، ١٩: ٥)، وطبعاً لا نحتاج إلى أن نعلق على أهمية الاعتراف بيسوع قائماً من الأموات لأنه جـــزء من التقليد الرسولي (١كورنثوس ١٥: ٣).

فالرسول بولس في نقله لصورة التقليد حينما يقول تعبيراً مثل: "مات من أجل خطايانا"، فهو لا يتكلم قط بلسان نفسه، بل مثل باقي التعبيرات الأخرى: حسب الكتب – اليوم الثالـــث – الإثـــنى عشر، ومثل "جسد المسيح" كتعبير عن طبيعة اللحم التي تجسَّد بها الرب، يستخدم الرسول تعبير "جسد المسيح" في مفهومه العام، أي جسد الشركة فقط ... وكل هذه التعبيرات ينقلها حرفياً كما اســـتلمها شفاهاً.

ويعوزنا الوقت لو درسنا المعمودية والروح القدس ونصوص العهد القـــديم الـــتي اســـتخدمها الرسول إذ يكفي أن أشـــرنا هنا إلى أهم نقطة خاصة بالحياة المسيحية وبالإيمان المسيحي الذي نقلـــه التقليد[١].

(١) يمكن لمن يريد أن يتوسع في دراسة هذه النقطة بالذات الاستعانة:

(a) F.F. Bruce, "Tradition Old & New".

(b) A. Hunter, "Paul and His Predecessors".

# الفصل الثاني

# الكتاب المقدس والتسليم

لم يعرف اللاهوت المسيحي عبارة "الكتاب المقدس والتسليم" مطلقاً قبل القرن السادس عشر عندما قامت حركة الإصلاح البروتستانتية. وكان قوام هذه الحركة هو التعبير اللاتيني الذي استخدمه كل القادة بدون استثناء "Sola Scriptura"، أي الكتاب وحده، وعندما تمكَّن قادة الإصلاح من تأكيد مبدأهم، كان رد الحركة المضادة للإصلاح في القرن السابع عشر المعروفة باسم " *Counter Reformation*" هو أن مصدر التعليم في الكنيسة هو "الكتاب المقدس والتسليم". ومنذ ذلك الحين دخلت هذه العبارة في كل الكتابات اللاهوتية دون أن ندرك أنها – تاريخياً – ليست صحيحة؛ لأن الكتاب المقدس هو جزء من "التسليم"، وأن كل مَن يقيم الكتاب المقدس خصماً للتقليد أو العكس لم يفهم بعد أن الكتاب المقدس الذي نشأ في الكنيسة لا يمكن أن يكون خصماً للكنيسة، وأن التقليد الذي سلمنا الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون ضد الكتاب المقدس.

وحينما يكون واضحاً أمامنا حقيقة ارتباط التقليد والكتاب كل منهما بالآخر، سيسقط الحاجز الوهمي أو النفسي – إذا جاز التعبير – الذي يفصل بينهما. فارتباط الإنجيل والتقليد بعضهما بالآخر كارتباط النهر ومنبعه تماماً. فلم يحدث إطلاقاً – على ضوء ما تقدم – أن كان الكتاب المقدس خارجاً عن التقليد، بل إن شخصية الكتاب المقدس هي من شخصية التقليد على حد تعبير العلامة أوريجينوس: "بالتقليد عَرفتُ الأناجيل الأربعة أنها صحيحة". وللقديس باسيليوس الكبير تعبير آخر: "إذا حاولنا أن نحذف العوائد غير المكتوبة لأنها ليست بذات أهمية، لا ننتبه بأننا نسيء إلى البشارة في أهم أركانها ونجعل الكرازة الإنجيلية اسماً لغير مسمى"[1]. ويمكنك أن تلاحظ أهمية الارتباط الوثيق والوحدة الاندماجية بين التقليد والكتاب في هذا التعبير للقديس أثناسيوس الرسولي: "لقد أقمنا البرهان على أن هذه القاعدة قد سُلِّمت من آباء إلى آباء، يداً بيد، فأنتم بأي مؤَلَّف تقدرون أن تستشهدوا لتعليمكم؟" (رسالة عن أعمال مجمع نيقية).

---

(١) الروح القدس للقديس باسيليوس الكبير (فصل ٢٧: ٦٦-٦٧ ص ١٥٩ – ١٦٣) تعريب د. جورج حبيب بباوي.

يقول بروس "*Bruce*" أستاذ الدراسات النقدية للأسفار المقدسة بجامعة مانشستر في كتابٍ له عن التقليد: "يميل مسيحيو الغرب إلى إقامة الكتاب المقدس والتقليد الواحد ضد الآخر، كما لو كان التقليد شفهياً فقط غير مكتوب، بينما ليس هناك ما يمنع أن يكون التقليد مكتوباً، فقد أخذ التقليد الرسولي شكلاً مكتوباً في حينه وصار كتاباً رسولياً. فمثلاً تعاليم بولس الرسول سواء أعطيت شفاهاً أو كتابةً تحمل سلطاناً رسولياً على ذات المستوى، فهو يشجع مسيحي تسالونيكي أن "أثبتوا ... وتمسكوا بالتقاليد التي تسلمتموها سواء كان بالكلام أو برسالتنا" (٢تسالونيكي ٢: ١٥).

وهناك صورة أكثر ارتباطاً يُظهرها التقليد الذي حفظ الإنجيل ونقله، نراها في استعمال بولس الرسول لبعض عبارات لم يرد ذكرها في الأناجيل، كلها نسبت إلى شخص السيد المسيح على غرار ما سبق أن ذكرنا، ويظهر ذلك في (١كورنثوس: ٧) حول موضوع الحياة الزوجية: "وأمَّا المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب ...". ويبدو أن ثمة استقرار كان موجوداً بهذا الخصوص تسلَّمته الكنيسة عن الرب نفسه. وفي موضع آخر يقول: "هكذا أمر الرب أن الذين يخدمون الإنجيل يعيشون من الإنجيل" (١كورنثوس ٩: ١٤). وهذه الصورة يسهل علينا إدراكها إذا قابلناها بقول الإنجيل الرابع: "وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" (يوحنا ٢١: ٢٥).

لكن علينا بعد هذا أن نتابع التاريخ الذي ظهرت فيه محاولة إقامة الكتاب المقدس والتقليد الواحد خصماً للآخر.

لقد كانت الظروف الاجتماعية والتاريخية التي مرت بها أوروبا تستدعي خلق هذا الخلاف. وكان من الضروري أن يلجأ قادة الحركة في كل أرجاء أوروبا إلى مصدر لا تشك الكنيسة في صحته، بل يقبله الناس حتى يمكن معارضة الكنيسة، والأهم من كل هذا، لم تكن حياة الكنيسة الكاثوليكية قوية ونشطة إلى الحد الذي يسمح لها بأن تعارض بشكل إيجابي فعَّال في حقيقة التهم الموجهة إليها. كانت كل الظروف تساعد على هذا، ويكفي أن نشير إلى الوثائق والقصص العديدة التي تكشف عن جهل الإكليروس وعجزهم أحياناً عن تلاوة الصلاة الربانية باللغة اللاتينية، وهي لغة الكنيسة في ذلك الزمان[1] وبالتالي كانت حياة الكنيسة الكاثوليكية نفسها لا تسمح بالمرة بأن تتمسك الكنيسة

---

(١) أ- راجع الفصل الأول عن حالة الكنيسة قبل الإصلاح في كتاب:

O. Chadwick, "The Reformation".

ب- وصورة قاتمة عند:

A. Dickens, "The English Reformation".

بأنها مصدر التعليم، ولعل كلمات الرب يسوع تنطبق على هذه الفترة بالذات: "إذا فسد الملح فبماذا يملح؟! لا يصلح بعد لشيء إلاَّ لأن يطرح خارجاً ويُداس من الناس" (متى ٥: ١٣).

بجانب هذا ظهرت نزعة قومية حرَّكت شعوب أوروبا، ودفعتها إلى البحث عن نظام سياسي خارج الكنيسة الكاثوليكية يسمح لها بالحصول على حريتها. وكان المناخ الفكري نفسه مؤهِّلاً للشك في صحة كل شيء؛ لأن الجامعات في أوروبا كانت قد استيقظت من شدة النوم الطويل على وسادة أرسطو، وبدأت تكتشف الأخطاء والخرافات التي ورثتها عن العصر الوسيط. وفوق كل هذا كان الكتاب المقدس قد تُرجم إلى اللاتينية في القرن الرابع الترجمة المعروفة باسم "الفولجاتا" أي "الشعبية"، ولكن العلمانيين منذ القرن الخامس عشر بل قبله بدأوا يفكرون في قراءة الكتاب المقدس وترجمته إلى اللغات الأوروبية، وكان الكتاب المقدس يتحدث عن أشياء تتناقض مع الحياة الكنسية.

كل هذه العوامل فتحت باب الشك في كل شيء، وكانت القوة الرئيسية التي خلقت الصدع الكبير، وشقَّت مصدر التعليم إلى مصدرين هما: الكتاب المقدس والتقليد، ودفعت عدداً كبيراً إلى البحث عن العلاقة بينهما وأيهما يأتي قبل الآخر. وكانت النتيجة الحتمية هي البحث عن حل لمشاكل لا وجود لها. فالأساس هو وحدة مصدر التعليم، ولكن بسبب الفصل بينهما، أصبح الكتاب أحياناً قبل التقليد وأصبح التقليد يراجع على الكتاب المقدس أو العكس. وفي الواقع وكما يلاحظ عالم اللاهوت الأرثوذكسي لوسكي "*Lossky*" إن "التمييز والفصل بين الكتاب المقدس والتقليد ليس صحيحاً ولا كافياً؛ لأن هذا التمييز لا يسمح لمن يدرس – بالنظرة الصافية – أن تمكِّنه من أن يفهم مجهولاً (الذي هو التقليد) من خلال المعروف (الكتاب المقدس)، لا سيما إذا كان غرض البحث هو اكتشاف الخلاف. وبنفس الطريقة، فإن صل التقليد عن الكتاب المقدس لا يسمح بدراسة أيهما مطلقاً؛ لأن الفصل يخلق لدينا إحساساً بأنهما مختلفان تماماً، وبالتالي يتعذَّر علينا تبيُّن أيهما يحمل من الملامح ما يشابه الآخر"[1]. وفي الواقع، وبداية من القرن السادس عشر اختفى من الكنيسة كل إحساس بالصفاء الذي يُمَكِّن الفرد العادي من إدراك حيوية ودقة التقليد. ومن جانب آخر أُغلِقَ باب البحث التاريخي خوفاً من أن يحدث في الكنيسة الأرثوذكسية ما حدث في الكنيسة الكاثوليكية وأصبحت كلمة "تقليد" تعني عدم البحث مطلقاً!!!

---

([1]) V. Lossky "Tradition and Traditions in the image and the likeness of God" P. 143.

# المبحث الأول

# الآباء والتسليم

لقد مرَّ بنا كيف نشأ التقليد على أساس تاريخي سليم، وكان هو حجة الكنيسة في صراعها ضد الوثائق المزورة، ثم في صراعها مع الهرطقات التي كانت تحتكم أحياناً إلى نصوص الكتاب المقدس بعهديه مثل الأريوسية أو إلى أجزاء من العهد الجديد مثل الغنوسية، ولا يخفى على من يدرس اللاهوت المسيحي أن صراعات الكنيسة مع الهرطقات كانت تنشأ حول التفسيرات الخاطئة للنصوص عند الهراطقة، فكانت الكنيسة ترد على التفسير الخاطئ بما استقر عندها من تفاسير نابعة من الممارسة والصلاة والحياة الكنسية.

وهنا يتضح لنا أهمية التقليد في صنع حياة الآباء، كقيادات كنسية حمَّلها الروح القدس مسئولية الأمانة والإيمان والسهر على حفظ التعليم المسلَّم مرة للقديسين. وبنظرة سريعة للإصحاحات الأولى من سفر الرؤيا يمكن أن نتأكد بالفعل من أن الدور الذي يقوم به أي قائد كنسي له المكانة الأولى في حفظ تعليم الكنيسة وروح العقيدة[1].

ولاحظ مثلاً ما يقوله القديس إكليمنضس الإسكندري عن خلفاء الرسل: "لقد حافظ هؤلاء الأشخاص على التقليد الحقيقي للتعليم المبارك المسلَّم مباشرة من الرسل القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا وبولس إذ كان الابن يستلمه عن أبيه حتى وصل إلينا بإرادة الله لنحافظ على هذه البذار الرسولية" (يوسابيوس – تاريخ الكنيسة ك ٥: ١١، ٣٠: ٥).

وكذلك ما قاله بابياس: "ولكنني لا أتردد أيضاً أن أضع أمامكم مع تفسيري كل ما تعلمته بحرص من الشيوخ الذين عاصروا الرسل وعاينوهم وكل ما أذكره بحرص ضماناً لصحته، لأني لم ألتذ

---

(١) + ففي رؤيا ٢: ٢ "أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار، وقد جربت القائلين إنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين".

+ وفي رؤيا ٢: ١٤، ١٥ "ولكن عندي عليك قليل أن عندك ... قوم متمسكون بتعاليم النقولاويين الذي أبغضه".

+ وفي رؤيا ٢: ٢٤ "ولكنني أقول لكم وللباقين في ثياتيرا كل الذين ليس لهم هذا التعليم والذين لم يعرفوا أعماق الشيطان كما يقولون إني لا ألقي عليكم ثقلاً آخر".

+ وفي رؤيا ٣: ١١ "ها أنا آتي سريعاً. تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك".

+ كذلك راجع رسالة يوحنا الرسول الأولى الإصحاح الرابع.

كالكثيرين بمن يتكلمون كثيراً، بل بمن يعلِّمون الحق. لم ألتذ بمن يقدمون وصايا غريبة، بل بمن يقدمون وصايا الرب للإيمان الصادر من الحق نفسه" (يوسابيوس ك ٣: ٣٩، ٣).

وما قاله أيضاً إيريناوس: "ما زلت أتذكر أحداث تلك الأيام بكل وضوح أكثر من الأحداث القريبة الحدوث. لأن ما نتعلمه في الطفولة يكبر مع النفس ويصير معها واحداً. إنني أستطيع وصف المكان الذي جلس فيه بوليكاربوس، ونطق فيه ما قاله. وأصف خروجه ومجيئه، وطريقة حياته، وملامح شخصيته، والمقالات التي وعظ بها الشعب، وكيفية مفاوضته مع يوحنا وغيره ممن عاينوا الرب. وترديده الكلام الذي سمعه من أفواههم عن الرب وأعماله العظيمة وتعاليمه، وكيف أن بوليكاربوس تقبَّل هذه الحقائق عن شهود عيان لكلمة الحياة. وأعد تقريراً عن كل شيء في تطابق الكتاب المقدس" (يوسابيوس ك ٥: ٨).

ولأننا سنعود ثانيةً لهذه النقطة، لذا نرجئ التوسع فيها، ولكن أمامنا الآن ما يؤكد حقيقة الحياة الآبائية التي لازمت الكنيسة وكيف ظهرت قيادات أعدها الروح القدس على رأس كل فترة بما استقر من تقليد السابقين على زمانهم وبدورهم نقلوها للآتين بعدهم[١]. فالتقليد إذن أعدَّ الآباء، وهم بدورهم سلَّموه لمن تسلَّم منهم قيادة العمل الإيماني وحياة الكنيسة الروحية.

على أن هناك من ينظر بزاوية أخرى لهذا الأمر. فمن الأخطاء الواضحة والتي أثرت على حركة وحيوية روحانية التعليم والمعلم أيضاً، اعتبار التقليد كماً لا ينقص ولا يزيد، أو هو قواعد متحجرة لا يمكن نقلها إلى حياة الجيل المعاصر. وقد حاول عدد كبير من أساتذة التاريخ واللاهوت وعلى رأسهم الأستاذ البروتستانتي الألماني "هرنك – *Harnack*" الإدعاء بأن التقليد هو نظرة قديمة غير تاريخية، أي تعالج الماضي وحده، دون ملاحقة متغيرات الحاضر، وبالتالي ستعجز عن مجاراة متطلبات المستقبل. فالتقليد هو مناقشة مشاكل الكنيسة في العصور الغابرة.

وهذه النظرة المتعسفة مستوحاة من الفلسفة الإنسانية الألمانية التي ترى أن الحياة متطورة متغيرة تمر بحقبات مختلفة، وأن العقيدة الدينية مثل كل منتجات الحضارة يجب أن تتطور تبعاً لذلك! ولهذا فهي ترى أنه ضياع للوقت والجهد أن ننقل من القديم، وأن ما استقر في القرون الماضية لا يصلح للعصور الحاضرة.

وتنسى هذه النظرة النقدية، أن المسيحية في جوهرها هي علاقة الله بالبشرية في شخص يسوع المسيح، وأن جوهر هذه العلاقة قائم على شخص يسوع المسيح ابن الله الذي ترك لنا حرية اكتشاف الكلمات والتعبيرات والصور الفكرية والصلوات ... إلخ، وأننا نملك أن نغيِّر ونطوِّر ما نشاء في إطار

---

(١) لاحظ نفس التعبير في أوشية الاجتماعات وصلوات القداس في أوشية الآباء الكبيرة وبعد التقديس وكيف أنها تركز على دور الأسقف الهام في حفظ كلمة الحق وتفصيلها باستقامة.

فهمنا لهذه العلاقة دون المساس بالجوهر، وأنه في الواقع إذا شئنا أن نضيف جديداً، فإن هذا الجديد نابع ومبني على أساس خبرة وشهادة الذين سبقونا. وأن التاريخ استمرار لا انقطاع فيه، وإذا شئنا أن نكون على وعي بالتاريخ، فعلينا ألا نفصل بين مرحلة وأخرى من مراحل الحياة والحضارة، بل أن نحمل معاً كل ما استقر من خبرات ليكون قاعدة وتقدم للحياة البشرية.

ولعله لهذا السبب علينا أن نعرض بكل وضوح وفي إيجاز شديد كيف فهم الآباء التقليد، هل كانوا يتحدثون عن حياة وحيوية؟ أم عن أحجار قديمة تاريخية تحمل نقوشاً مبهمة تحتاج إلى علماء لغات لقراءتها والإعجاب بما فيها من خبرة وحكمة غابرة؟!

وقبل أن ندرس بالتفصيل علينا أن نتذكر أن الذين يهاجمون التقليد ليس لديهم فكرة واضحة وسليمة عن المسيحية، وأنهم يتصورون المسيحية على غرار الديانات الأخرى أو الجماعات البشرية التي تنتظم في أحزاب أو اتحادات من أجل أهداف مؤقتة، وهؤلاء النقاد وعلى رأسهم هرنك لا يؤمنون أساساً بأن المسيح ابن الله، وأنه الإعلان الإلهي الأخير الذي أعطاه الله للإنسانية؛ ولذلك يتصورون أن المسيحية نتاج لحضارة وثقافة معينة، وأنها تقبل الزيادة والحذف والتغيير[1].

---

(١) يهمنا أن نشير هنا إلى كتابين أساسيين كلاهما يعد سجلاً تاريخياً للاتجاهات الإلحادية والمادية في اللاهوت الغربي المعاصر:

(a) E. Brunner "The Mediator".

(b) M.M. Hengel "The Son of God".

هذا ويعتمد اللاهوت الغربي المعاصر على الفلسفة الأوروبية أكثر من اعتماده على اللاهوت المسيحي.

## المبحث الثاني

# حيوية التسليم

الكنيسة قائمة على حقيقة ثابتة، وهي عقيدة الثالوث، فالله أعلن نفسه في يسوع المسيح، وكان التجسد والصلب والقيامة والصعود هو قمة هذه الإعلانات، لكننا إذا دققنا جيداً نرى أن المسيح لـه المجد ترك مهمة فهم وشرح هذه الإعلانات للروح القدس الذي حلَّ على الكنيسة في يوم الخمسين لكي يُظهر عمل المسيح ويشرحه ويقود الكنيسة في العالم. هذه النقطة بالذات نراها بوضوح في الإصحاحات الأخيرة من إنجيل يوحنا وفي سفر الأعمال، وبشكل واضح ملموس في رسائل القديس بولس الرسول.

ولذلك علينا أن ننتبه إلى حقيقة هامة، وهي أن فهم وإدراك "سر المسيح" ليس عمـلاً عقليـاً يعتمد على الذكاء البشري، بل هو عمل إلهي يقوم به الروح القدس في النفس، فيعلن للعقل البشـري معنى موت المسيح وقيامته ويحبب الإرادة الإنسانية لتختار طريق القداسة الشاق الذي يقتضي "جحـد الذات" وإنكار منطق العالم وفكره القائم على الزيف. وكل من يدرك هذه الحقيقة لا يستطيع أن ينكر التقليد مطلقاً ذلك لأن عمل الروح القدس يتم في النفس وبشكل خاص وشخصي، ويظل عمله محجوباً عن عين العالم، لا يراه ولا يعرفه (يوحنا ١٤: ١٧)، إلاَّ أنه يظهر للكنيسة بشكل خـاص في المُعلـم الكنسي الذي يعدَّه الروح القدس لكي ينقل "سر المسيح" إلى جماعة المؤمنين. هذه هي المسيحية، ومـا عدا ذلك فله صورة أو شكل المسيحية، أما جوهره فلا علاقة له بالمسيحية مهما ظهر بـديعاً وجمـيلاً ومحبوباً.

وبالطبع علينا أن نسأل: أين التقليد؟ إذا كان الروح القدس يعلن المسيح لمن يختاره كمعلم، فما هو دور التقليد إذن؟ هنا يظهر التقليد بشكل واضح وأساسي في أن المعلم الكنسي لا يأتي من فراغ ولا يولد من فراغ، بل هو أصلاً يولد في الكنيسة ويحيا في الكنيسة، ولكنه يُوهَب قيادة غيره ويتسع فهمـه وإدراكه بشكل خاص. وتنمو خبرته وتزداد معرفته، كل هذا هو عمل الروح القدس الخـاص بهـذا الشخص بعينه. ولعلنا نجد أفضل مثل على هذا في شخص القديس أثناسيوس الذي لقب بكـل حـق بـ"الرسولي".

لقد كان أثناسيوس أحد القلائل في جيله الذين اختبروا وعرفوا "إلوهية المسيح" بشكل خاص وفائق. وكان الروح القدس يؤهِّله لكي يحارِب عن الإيمان القويم، ولعلنا إذا درسنا سيرة وكتب هـذا

الإنسان، كفرد بعينه، من ضمن آلاف المؤمنين، ندرك أن التقليد هنا هو حصيلة ما عرفناه عن "لاهوت الابن" في حياة وكتابات أثناسيوس. لقد عمَّق أثناسيوس فهم الجماعة المسيحية بشكل خاص لا مثيل له من قبل، وغرس في حياة الكنيسة حساسية ورؤيا خاصة عن علاقة الابن بالآب وأثرها على الإنسان نفسه.

فالتقليد إذن هو هبة الروح القدس للكنيسة الجامعة، وكل عطية لا يمكن أن تكون قطعة أثرية أو نقشاً، وإنما إضافة إلى حياة الكنيسة وإلى خبرتها الروحية.

لذلك ترتل الكنيسة ذكصولوجية خاصة بعيد نياحة القديس أثناسيوس: "طوباك بالحقيقة يا معلم الأرثوذكسية. لم نجتمع لكي نبكي ونحزن، وإنما لكي نعيِّد بظفرك على الباطل. حاربت عن إيمان الآباء. علَّمتنا الآب والابن والروح القدس. سر المعمودية. ومجد البنوة. الروح القدس أعطاك أن تنطق بالحق. طوباك يا أبانا أنبا أثناسيوس. طوباك لأنك تشبَّهت بالرسل".

وهكذا تعبِّر الكنيسة عن إيمانها بإحدى جوانب التقليد وهو حيويته، فالرسل الذين رقدوا ليسوا مثلاً أعلى عسير المنال، بل حقيقة تُعاش وتختبر ويعلنها الروح القدس في أوقات يختارها، وفي أشخاص يصبحون رسوليين حقاً، في العمق والغيرة على الإيمان، وأهم من كل هذا، هم مثل الرسل "مختارون" لكي يشرحوا الحياة المسيحية ويقودوا الكنيسة. ولذلك عندما نقول: "نؤمن بالكنيسة الجامعة الرسولية"، فنحن في الوقت الذي نعترف فيه برسولية الكنيسة، نؤكد دوام صفة الرسولية حتى في القرن العشرين، ليس بالتمسك بالأساس الرسولي فقط، بل بالبناء الذي عليه أيضاً[١].

## التسليم الشفهي أو دور المعلم الكنسي

لقد رأينا من قبل وبكل وضوح أن ما تعيشه المسيحية هو "سر المسيح" وهو حياة لا مجال فيها للتفكير النظري، بل الالتصاق بالرب يسوع بقوة الروح القدس. والمعلم الكنسي إنما ينقل هذه الحياة وهذا السر لكل الذين يلتصقون به ويتتلمذون عليه. والمعلم الكنسي يسلِّم الإيمان ويسلِّم أيضاً الحياة، ولا يسلِّم نظرية أو فكرة وإنما يسلِّم "الطريق" (الاسم القديم للمسيحية هو الطريق).

والطريق يعني بشكل واضح أن يستلم الإنسان ما يؤهله للوصول إلى الله، ولذلك يقول أكليمنضس السكندري: "إن قوام (جوهر) التسليم هو نقل الإيمان من المعلم الكنسي إلى الكنيسة ..."

---

(١) طبعاً رسولية الأساقفة والخدام لا توهب بوضع اليد في الرسامة فقط، وإنما تظهر في أرثوذكسية الحياة، وصحة التعليم، والقدرة على شرح الإيمان. وتعبر الكنيسة عن كل هذا في الصلاة المعروفة بأوشية الآباء الكبيرة والأواشي التي تتلى بعد التقديس مباشرة في القداس "مفصلاً كلمة الحق باستقامة، راعياً شعبك بطهارة وبر، وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين ... الخ".

واللحن المعروف باسم الاثنى عشر فضيلة، وهو طلبة تحمل طابع الوعظ المهذب والإدانة في نفس الوقت إذا اختارت الكنيسة أسقفاً فاسداً عاجزاً عن التعليم. ومن يقرأ القوانين الخاصة بالأسقف يمكن أن يفهم معنى الألقاب التي تقال في الاثنى عشر فضيلة فهي تظهر للشعب حقيقة الراعي الذي اختاروه.

(Ecol. Proph. 27:1). والنقل أو التسليم ليس نوعاً من الحفظ أو إتقان تعلم النصوص واختزانها في الذاكرة. يقول أكليمنضس السكندري: "المعلم الذي يحيا الحياة الأرثوذكسية وينمو كشيخ في معرفة الكتب المقدسة ويحيا حسب الإنجيل هو الذي تصبح حياته وأقواله حسب تقليد الرب" (المتنوعات ٧: ١٠٤ – ١ و٢١).

ولذلك لم يحرص معلمو الإيمان على الكتابة أو التدوين بقدر حرصهم على التلمذة وإتباع المعلم. وعلينا أن لا ننسى وجود عاملين أساسيين:

**أولاً**: لم يكن العصر نفسه هو عصر المطابع، وكان الاعتماد على الكتب وبشكل عام في العالم القديم وحتى القرن السادس عشر (عصر اكتشاف المطابع) شبه معدوم. كان الاعتماد على المعلم.

**ثانياً**: لم يكن وجود الكتب مجدياً؛ لأن الإنسان لا يتعلم الحياة مع الله من كتاب أو من نص – وهذا هو الفرق الأساسي بين المسيحية واليهودية – ذلك أن الإنسان يتعلم من الإله المتجسد. فهو لا يحتاج إلى نص، بل يحتاج إلى مرشد أو معلم يوضح له الطريق الحق.

ولذلك ظهر التقليد الشفهي الذي كان العامل الجوهري في نقل كلمات الرب يسوع نفسه للجماعات المسيحية، وكان من الضروري أيضاً وبسبب ما أحاط بالكنيسة من عداوة الوثنية وهجوم اليهودية أن تتمسك الكنيسة بعدم نشر بعض الأمور الهامة الخاصة بالعقيدة وبالطقوس، وقد أشار إلى هذا جميع الآباء منذ زمن أكليمنضس السكندري (١٩٥م)، وقد أشار القديس باسيليوس إلى هذه الأمور وقال: "ما نبشر به من عقائد وهو ما تحفظه الكنيسة يعتمد على التعليم المكتوب وغير المكتوب أيضاً، وهو التعليم السري غير المعلن الذي وصل إلينا من الرسل، والتعليم غير المكتوب له نفس القيمة التي للمكتوب". ثم يقدم أمثلة على التعليم غير المكتوب الذي تسلمته الكنيسة ويحدد بكل وضوح: "علامة الصليب، الاتجاه للشرق، صلوات القداس، تقديس مياه المعمودية، تقديس الزيت، استعمال الميرون، قانون الإيمان" (كتاب الروح القدس فصل ٢٧: ٦٦، ٧٧).

كانت الكنيسة الجامعة تمنع غير المؤمنين أي الموعوظين من الاشتراك في الصلوات، وحضور تكريس الميرون، ورسامة الأساقفة، القداس بما فيه أيضاً سماع قانون الإيمان أو الصلاة الربانية، ثم حضور خدمة المعمودية نفسها.

يقول القديس باسيليوس: "المعمودية والميرون والإفخارستيا هي الأشياء التي لا يُسمح لغير المعتمدين بالنظر إليها أو الإطلاع عليها" (الروح القدس فصل ٢٧).

ومن أقوال القديس كيرلس الأورشليمي: "نحن لا نتحدث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدث بطريقة غير واضحة يعرفها المؤمنون فقط. أمَّا الذين لا يعرفون فلا تؤذهم الكلمات التي سمعوها" (تعليم الموعوظين ٨: ١٢).

وفي الحقيقة أن التسليم السري أو التقليد الشفهي، كان يتضمن أهم أسرار المسيحية التي لا تذاع إلا لمن آمن، وكانت حجة الكنيسة الجامعة في هذا الصدد بالذات أن هذه الأسرار هي حقائق تفوق الإدراك، وأنها لا تنفع إلاَّ من يمارسها من الناس. وقد سلكت الكنيسة الجامعة في هذا بطريقة تربوية تتفق مع هدف المسيحية، وهي ألاَّ تعطي معرفة الأمور الروحية إلاِّ لمن يريد أن يحياها، وبذلك حفظت الكنيسة المستوى الروحي وجعلت الحياة الروحية تلمذة وليست معلومات تقرأ في الكتب.

وقوام التسليم السري أو التقليد الشفهي هو الاستمرار، وهذا الاستمرار تحفظه الكنيسة الجامعة دون انقطاع ليس في شخص الأسقف أو القس فقط، بل في حياة العلمانيين أيضاً. يقول أكليمنضس السكندري عن دور العلمانيين: "التقليد الخاص بالتعليم المبارك الذي سلَّمه إلينا الرسل ويحفظه الأبناء على آبائهم لكي يزرعوه من جديد فيلد بدوره بذور الإيمان الرسولي" (المتنوعات ١: ١١، ١٣). فالتقليد حياة وحيوية تخصِّب غيرها، وهو كما نرى قوة استمرار الحياة في الكنيسة. ويظهر ذلك بشكل واضح في نص جميل عند القديس أثناسيوس وهو يكتب مؤكداً إلوهية الروح القدس: "لنتأمل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء الذي أخذته من الرب وكرز به الرسل وحفظه الآباء، على هذا تأسست الكنيسة، ومن يسقط خارجه لا يعتبر مسيحياً ولا يستحق الاسم. ويعلمنا هذا التقليد أن الثالوث قدوس وكامل ونعترف به الإله الواحد الآب والابن والروح القدس لا يختلط به أي شيء آخر غريب ولا يضاف إليه أي شيء من الخارج. والثالوث ليس مركباً من أقنوم واحد خالق مبدع، بل الأقانيم الثلاثة معاً، ولا يوجد في طبيعة الثالوث شيء قابل للتجزئة، بل طبيعة واحدة لا تقبل التقسيم، وللثالوث عمل واحد: يعمله الآب بالكلمة في الروح القدس. وهذا هو معنى الوحدة في الثالوث المقدس. وهكذا نادت الكنيسة بإله واحد "الذي على الكل وبالكل وفي كلكم" (أفسس ٤: ٦) هو "على الكل" كآب. هو أيضاً البدء أو الينبوع[1]. وهو في تعبيره "في الكل" أي في الروح القدس. هو ثالوث ليس فقط بالاسم أو بمجرد الكلام بل بالحق والفعل؛ لأنه كما أن الآب واحد وإله على الكل، هكذا أيضاً كلمته واحد وإله على الكل. والروح القدس واحد له فينا عمل. إن الكنيسة الجامعة لا تعتقد بأقل من هذه الأقانيم، لئلا تنحدر إلى مستوى اليهود العصريين، مقلدي قيافا، أو تصبح مثل سابيليوس، وهي لا تضيف إليهم لئلا تنجرف إلى هوة الاعتقاد بتعدد الآلهة كالوثنيين. والذين يريدون أن يدركوا أن هذه هي عقيدة الكنيسة فليتعلموا كيف أن الرب عندما أرسل الرسل أمرهم بأن يضعوا هذا الأساس للكنيسة قائلاً: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ..." (رسائل القديس أثناسيوس عن الروح القدس إلى سرابيون ١: ٢٨).

---

(١) كلمة بدء "αρχη" تعني مصدر أو ينبوع أو أصل أو رأس.

وبالتدقيق في هذا النص يمكن أن نميِّز عدة أمور هامة أساسية تشرح العلاقة بين التسليم الشفهي والتسليم المكتوب، ويمكننا أن نلاحظ ما يلي:

**أ** – عندما أراد أثناسيوس أن يتحدث عن عقيدة الثالوث بشكل شامل قال في وضوح إنها التقليد الذي هو أساس الكنيسة والذي نُقل وسُلِّم من الرب إلى التلاميذ ثم الآباء ثم أثناسيوس نفسه.

**ب**- ولكننا كما نرى، يستخدم أثناسيوس عدة عبارات ومصطلحات لا يمكن استخراجها من الكتاب المقدس بالمرة.

**ج**- وعندما يدعِّم العقيدة يلجأ إلى الكنيسة في ممارستها للعقيدة، ومعنى هذا أنه يلجأ إلى الممارسة الكنسية كاختبار شركة الثالوث الآب والابن والروح القدس من خلال المعمودية.

**د**- اقتبس نصاً من أفسس (٤: ٦) وشرحه، ولكن الاقتباس كما نرى يوضع في إطار الفهم الروحي الحي للآب والابن والروح القدس.

**هـ**- ويفرِّق القديس أثناسيوس بين إيمان الكنيسة المسلم من الرسل وبين اليهودية وهي التي عرفها الرسل، وبين بدعة سابيليوس وهي التي لم يعرفها الرسل مطلقاً لأنها ظهرت في القرن الثالث، وبهذا تكتمل حيوية التقليد وديناميكيته.

ويتضح لنا الآن استحالة عزل وتفرقة التقليد، المكتوب أو الشفهي، فهو وحدة واحدة لا تجعل في الكنيسة مصدرين للتعليم، وحتى الآباء أنفسهم كانوا يعتبرون الكتاب المقدس على حد تعبير أكليمنضس السكندري "التقليد المكتوب" (المتنوعات ١: ٢١، ١٤٢)، أو بشكل آخر دقيق هو "المعرفة الروحية التي سجِّلها التقليد في الأسفار المقدسة" (المتنوعات ٧: ١٦ و١). وبالطبع فقد حدد أكليمنضس السكندري معنى هذه العبارة في موضع آخر يقول فيه إن معرفة الناس بالإله الواحد كانت عامة وعند الكل ولا سيما الفلاسفة، إلى أن جاء الكلمة اللوغوس، فظهر الله بشكل واضح، هذا الإعلان أو الظهور الذي سجَّلته لنا الأسفار المقدسة يسميه أكليمنضس السكندري "التقليد الذي أُعلن في الابن" (المتنوعات ٦: ٥ و٣٩) . فهو الإعلان الخاص الذي سلَّمه الابن إلينا. أو التقليد الذي يتضمن معرفة كاملة بالإله الذي أعلن نفسه في يسوع المسيح. هذا هو تقليد الابن وهو ليس معرفة عامة، بل معرفة خاصة لا يمكن الحصول عليها إلاَّ من الجماعة المسيحية أي الكنيسة.

## المبحث الثالث

# هل يمكننا أن نتعرف على التسليم؟

إن الإجابة سهلة لمن أدرك ما هو التقليد، ذلك أن الكنيسة تنقل كل ما يخص حياتها وإيمانها إلى الصلوات والطقوس، فهي لا تحفظ في الذاكرة، بل تحفظ الحياة وعندما تحيا الكنيسة، فهي تصلي وعندما تصلي فهي تحدد بشكل واضح:

**١**- ما تؤمن به.

**٢**- ما نرجوه وما تتطلع إليه.

**٣**- الوسيلة إلى تحقيقه.

وقد عكست الصلوات والطقوس هذه الحقائق لا سيما بشكل خاص صلوات القداس الإلهي، وهي عصارة اللاهوت والتاريخ وكل ما عرفته الكنيسة في أجيالها لا سيما الصراع ضد الهرطقات.

وقد نسأل أنفسنا: لماذا دخل قانون الإيمان النيقاوي في الصلوات، ألا يكفي أن يُقال في مناسبات عامة؟ والجواب هو أن الصلاة في المسيحية ليست كلمات تُقال، بل الإيمان المسيحي، **ومَن يصلي يعرف أنه لا يتحدث مع الله، وإنما يشترك في الحياة الإلهية التي جاد بها علينا ربنا يسوع المسيح**، ولذلك فهو يتعلم كيف يخاطب من جعلنا شريكاً لابنه الوحيد، ولا يمكن فهم هذه الشركة إلاَّ بفهم الإيمان المسيحي. ولذلك دخل قانون الإيمان لكي يعطي للصلاة والقداس المعنى الأرثوذكسي السليم الذي بدونه لا يمكن أن تتم مناجاة أو شركة.

والطقس هو تعبيرٌ منظور عن العقيدة غير المنظورة، فمن يرى الناس يسجدون عند ذِكر الثالوث يعرف بشكل ظاهر أن الثالوث هو الإله الحق الذي نعبده، ومَن يرشم الصليب قبل الصلاة، يعترف بموت المسيح على الصليب، وهو الاختبار الذي تذوَّقه في المعمودية، ولا زال يتذوَّقه في الموت الدائم عن شهوات الحياة الميتة، ومَن يتناول الإفخارستيا يعرف أن القيامة التي قامها مع المسيح هي القوة الفعالة في المعمودية المقدسة، وهي التي تؤهله للإتحاد بالمسيح الحي في الإفخارستيا. وهكذا تقودنا الليتورجية إلى التعرف المباشر على العقيدة، وعلى التسليم الرسولي، الذي نشأ اختباراً حياً، لم يدوَّن تفصيلياً؛ لأن التدوين لا يفيد، فرشم الصليب بالذات يُسلَّم إلى المسيحي كجزء جوهري من طقس

وعقيدة المعمودية، وعندما يُسلَّم لا يعود للتدوين قيمة تُذكر. فالطقوس والعقيدة تُسلَّم، والذي نشأ دون تسليم في الكنيسة، هذا وحده هو الذي يسأل عن التقليد أو التسليم. والعودة إلى الليتورجية لا تعني في الحقيقة عودة إلى التسليم الرسولي في كافة تفاصيله، وإنما إلى الخطوط العامة الأساسية والواضحة جداً، التي تجعل الإنسان قادراً على التمييز بين التسليم الرسولي، وما هو ضد التسليم الرسولي.

يقول مؤلف كتاب وُضِعَ في القرن الثاني عشر باسم "حكمة الآباء المصريين"، وهو منسوب للراهب سمعان بن كليل، أحد رهبان دير القديس يوأنس القصير، وتحت عنوان "الأمانة التي سلَّمها إلينا الآباء الرسل وشهد لها الشهداء، واعترف بها الآباء القديسون":

"الأمانة كنز يسلِّمه لك الكاهن في المعمودية برشم الصليب على أعضاء جسدك، بالاعتراف بموت ربنا المحيي وقيامته التي أقامنا بها، فإن أخذتَ رشم الصليب في المعمودية، وتعلَّمت أن تموت معه في كل يوم، فلماذا تسأل عن الأمانة، وهي الوديعة الفاخرة التي أعطاها الرسل إلينا ومنهم أخذناها، وما هي سوى حياة الآلام وموت وقيامة ربنا، ولماذا هي وديعة؟ لأنها تُحفَظ من الآباء وتسلَّم إلينا ليس بالكلمات، وإنما في الأسرار المحيية، وفي القداسات لأن يسوع المسيح ربنا الذي مات عنا، هو الذي نراه ذبيحة حياة غير دموية على المذبح. فاحرص أن يكون فيك، واقبله بكلمات الإيمان جسداً ودماً للحياة الأبدية ... وقد أظهر الشهداء هذا الإيمان، لأنهم إذ قبلوا موت ربنا المحيي، ماتوا معه بالحق بسفك دمهم، ومنهم من أكلتهم السِّباع والوحوش، ومنهم من مات في حريق النار، فهؤلاء قد اعترفوا بموت المسيح إذ ماتوا معه، وذلك لكي ينالوا قيامة حقيقية أفضل من قيامة الأشرار. وهؤلاء شهد لهم الآباء بالقول والفعل، بالقول لأنهم عاشوا مثل الشهداء، وأعلنوا للعالم إيمانهم واشتركوا في موتهم عن العالم بالمثال الذي اقتنوه، فصاروا حقاً خلقاء للشهداء الظافرين. أمَّا بالفعل، فلأنهم يقيمون القداسات في كل مكان، ويتناولون من ذبيحة الحياة التي لمخلصنا الصالح ويعترفون بموته وبقيامته. فالأمانة تامة مثل شجرة، تثمر شفاءً للعقول من الجهل، وشفاءً للأرواح من الموت، وللأجساد تعطي عدم فساد بالقيامة. هذه هي الأصول الرسولية التي تراها في البيعة. فإن سمعتَ إنساناً يتكلم عن ربنا يسوع ولا يذكر إلوهيته أو يجحده، فالمعمودية التي نلتها باسمه لمغفرة خطاياك تجيب على أقوال الشيطان. ومن يرذل صليب الرب، لا يمكنه أن يتناول في القداسات، ولا يمكنه أن يصلي، لأن هذا جميعه ليس هو بكلام، وإنما اعتراف بالحياة الصالحة وبالعطية التي وهبها لنا الآب السماوي. فكيف ترذل صليب الرب، وتدعو الله أبانا، وكيف تسجد أمام الهيكل وأنت غير معترف بتجسده، وكيف تعتبر نفسك ابناً للبيعة وأنت لا تشهد مثل الذين صاروا واحداً معنا في الاعتراف بالأمانة وفي الميراث السماوي ..." (الباب الثاني – الرأس العاشر).

فالأصول الثابتة التي يراها المؤلف، هي الخطوط العامة للإيمان، التي تعبِّر عنها حياة القديسين، وهي بدورها ما أخذه هؤلاء من الأسرار، وما عاشوه وانطبق تماماً، على حياتهم وكلماتهم.

## نماذج من التسليم الشفوي في كتابات الآباء:

في عجالة سريعة نثبت هنا أن التسليم الشفوي له شهادة التاريخ، وهي كتابات الآباء ...

* فمعمودية الأطفال تسليم رسولي غير مدوَّن (أوريجينوس عظة ٨: ٣ على سفر اللاويين مجلد ١٢: ٤٩٦ مع عظة ٥: ٨ على رسالة رومية مجلد ١٤: ١٠٣٨).

* السجود على الركب، والاتجاه نحو الشرق، وصلوات المعمودية والقداس هي تسليم رسولي (أوريجينوس عظة ٥: ١ على سفر العدد مجلد ١٢: ٦٠٣).

* تقديس يوم الأحد (ديونيسيوس السكندري – الرسالة إلى باسيليدس مجلة الدراسات اللاهوتية جامعة أُكسفورد مجلد ١٥ عام ١٩١٤ ص ٤٣٨، مع القديس باسيليوس ف ٢٧ من كتاب الروح القدس).

* الصلاة على الراقدين ممارسة طقسية تعود إلى الرسل حسب شهادة ذهبي الفم (في العظة ٣: ٤ على رسالة فيلبي مجلد ٦٢: ٢٠٣).

الفصل الثالث

# دور التسليم في حياة الكنيسة

يقول أغسطينوس في المقالة الأولى ضد المانيين: "بالحقيقة لم أكن أستطيع أن أؤمن بالإنجيل، لو لم تحركني شهادة الكنيسة الجامعة إلى هذا الإيمان" (١:١). وهذه العبارة، لا تختلف عن عبارات مماثلة نراها عند الآباء أوريجينوس، إيريناوس وغيرهما ... وقد ذكرنا أن العهد الجديد نشأ في داخل الكنيسة المسيحية، وكان هو الكتاب الذي يُقرأ في الاجتماعات المسيحية، وبشكل خاص في الليتورجية، هذه الحقيقة، هي التي أعطت للعهد الجديد صفة الشرعية أو القانونية في الكنيسة. والأجيال التي عاشت في داخل الكنيسة وسمعت الكتابات الرسولية تُقرأ أو تُشرح في القداسات، لا تحتاج إلى شهادة من الخارج عن صحة الأناجيل الأربعة أو عدد رسائل بولس الرسول. ولذلك السبب أيضاً، لم تقبل الكنيسة ما يُنسب للرسل مثل إنجيل بطرس أو إنجيل الطفولة، أو إنجيل يعقوب، فقد تكون بعض القصص التي وردت في هذه الأناجيل صحيحة، ولكن ليست هذه هي النقطة الأساسية في الموضوع، وإنما ما سلَّمه الرسل كان معروفاً ومقبولاً، ويشهد له الذين يسلِّمون الإيمان، وتشهد له الممارسة الكنسية نفسها. وهكذا من الانتماء إلى الكنيسة يمكننا أن نعرف التسليم الرسولي. وخارج الكنيسة، أي بدون الانتماء إلى الكنيسة التي استمرت تاريخياً تقرأ وتدرس، لا يمكن لأحد أن يعرف التسليم الرسولي.

## شمولية التسليم الرسولي

التسليم الرسولي، هو شهادة الكنيسة الجامعة، وليس شهادة كنيسة واحدة. وما اتفقت عليه الكنائس في كل مكان، هو التسليم المعروف للكل، وهذا الاتفاق نراه بشكل واضح في قبول الأناجيل الأربعة ورسائل القديس بولس ... إلخ. هذا الاتفاق هو شهادة الشهود والأحياء من المعلمين، وهذه الشهادة نراها في الممارسة العامة في كل الكنائس. وعلى سبيل المثال، لا نجد قاعدة مكتوبة في العهد الجديد تؤكد أن المعمودية يجب أن تسبق الإفخارستيا ... لكن اتفاق الكنيسة الجامعة، وإجماع الكل على هذه الممارسة، يؤكِّد صحة التسليم، فلم تشذ كنيسة واحدة على هذه الحقيقة. ونفس الكلام ينطبق على هذه العقائد مثل الثالوث وإلوهية الرب يسوع والروح القدس ... الخ. فالتسليم أمر شامل، ولكن تضع كل كنيسة محلية التفاصيل الخاصة بها، هذه التفاصيل نراها في اختلاف الصلوات، وفي

اختلاف شكل الخبز والخمر المستخدم في الإفخارستيا، أو ألوان وشكل ملابس الخدمـــة ... ولكـــن الجوهر واحد لا يتغير ...

# المبحث الأول

## التسليم والتفسير الصحيح للكتاب المقدس

إذا كان التسليم هو شهادة وإجماع عام في الكنيسة الجامعة، فمن الواضح أن الأصول التي قام عليها هذا التسليم، هي الأسفار المقدسة – العقيدة والطقوس – الأسرار الكنسية – كتابات الآباء – قوانين الكنيسة.

وفي الحقيقة، لم تنشأ مشكلة حول تفسير الكتاب المقدس، إلاَّ مع الهراطقة، وأشهرهم بلا منازع أريوس. فماذا أراد الهراطقة؟ أرادوا تحويل المسيحية، إلى نزاع حول نصوص الكتاب المقدس. وأرادوا أن يفسِّروا الكتاب المقدس، كلٌ على هواه ...

كيف يمكن إنكار إلوهية المسيح؟ أراد أريوس أن يكون دليله في فهم الكتاب المقدس شيئاً آخر غير المعمودية ... أي أنه فصل الكتاب المقدس عن السر، وعزل معنى السر عن الحياة المسيحية.

فالنصوص الخاصة بلاهوت المسيح تشرحها المعمودية في وضوح شديد؛ لأن المعمودية هي سر بنوة الإنسان لله في يسوع المسيح. فكيف يمكن أن نفهم إلوهية المسيح بدون بنوته للآب، وهي المصدر الذي تأتي منه البنوة في المعمودية ... هذه عقيدة، وممارسة وشهادة وتسليم ... وسوء فهم أريوس ظاهر في أنه حاول حصر الموضوع في نزاع حول تفسير النصوص الخاصة بالمسيح حسب أهوائه ونزعته الشخصية، وهو الأمر الذي جعل أريوس في النهاية يسقط في تناقض مع نفسه ... وهو تناقض أدى إلى الوثنية، لأن إلوهية المسيح لا يمكن أن تُفهم بشكل صحيح، إلاَّ على أساس وحدة جوهر اللاهوت، أمَّا الإدعاء بأن الابن إله آخر ورب غير الآب، ليس له معنى سوى الوثنية التي لا تهتم بالتوحيد؛ لأن التوحيد لا يدخل في خبرة الوثنية. بينما في خبرة المسيحية التوحيد هو وحدة جوهر الثالوث، وهي الحقيقة التي بدونها لا يمكن فهم الخلاص بشكل واضح وسليم.

- ١ -

# القاعدة الأساسية لفهم الكتاب المقدس عند القديس إيريناوس

يقول إيريناوس إن الفرق بين الكنيسة والهراطقة يشبه فناناً كبيراً جمع قطعاً من الأحجار الكريمة وكوَّن منها صورة جميلة لملك عظيم. وجاء رجل آخر لم تعجبه هذه القطعة النادرة، فقسَّم الأحجار الكريمة وأعاد ترتيبها وصاغ منها صورة لثعلب أو كلب. هنا ادّعى هذا الرجل أن ما صاغه هو بلا شك الصورة الجميلة التي أرادها الفنان، ودعوى هذا الرجل هي أنه استخدم ذات القطع الثمينة التي كانت في يد الفنان. ولكن علينا أن نرى بكل دقة أن استخدام ذات القطع الثمينة ليس هو المحور الأصلي، بل المحور الأصلي هو أن الصورة الجميلة نفسها قد اختفت، لقد حلَّ كلبٌ أو ثعلب مكان إنسان. والفرق بين الاثنين عظيم.

هكذا الفرق بين الكنيسة والهراطقة. إذ معرفة الإيمان الصحيح، هي في الواقع اكتشاف الصورة الأصلية، أو معرفة **النموذج الإلهي للإيمان**، وليس جمع القطع النادرة (نصوص الكتاب المقدس).

ويقدم إيريناوس تشبيهاً دقيقاً آخر جدير بكل الاهتمام. لقد شاع في زمن إيريناوس كتاب جمعه شاعر يوناني من مؤلفات الشاعر اليوناني الخالد هوميروس "*Homer*". ونشر هذا الكتاب على أنه تأليف هوميروس. بكل يقين كانت كل فقرة مأخوذة فعلاً من هوميروس، وكانت كل كلمة من وضع هوميروس. لكن تنسيق الكتاب وتوزيع فقراته كان من وضع شخص آخر، هذا التوزيع الجديد خلق قصصاً أخرى غير قصص هوميروس. وحتماً أن من يسمع هذه القصص سوف يظن أنها فعلاً من وضع هوميروس لأن الكلمات والشعر لا يختلف أسلوباً وجمالاً عن شعر هوميروس (ضد الهرطقات ١: ٩ - ٤).

فما هو الحل؟

إن النقطة الأساسية الظاهرة هنا هي قدرة الهراطقة على استخدام كلمات الكتاب المقدس وتوزيع النصوص، ذات النصوص لكي تخدم في النهاية الصورة أو النموذج الذي استقر في عقل الهراطقة. إن إعادة تركيب صورة الإنسان المصنوعة من الأحجار الكريمة وتحويلها إلى صورة ثعلب أو كلب لا يعني أن تفقد الصورة الجديدة بعض القطع أو المعدن، هذا لن يحدث على وجه الإطلاق. وإنما

أن ينتهي الهدف الأصلي، أن لا يصبح لدينا صورة الإنسان. وبالتالي إن الحكم الصحيح على الهرطقات يعني معرفة الإيمان، وبالتالي اكتشاف كيف يصوغ هذا الإيمان طريقنا إلى الله.

والأسفار المقدسة تتبع نموذجاً دقيقاً لعلاقة الله بالإنسان، وأعلنت الأسفار عن هذا النموذج بدقة. ولذلك يجب أن يسبق الإيمان الصحيح قراءة الأسفار. ففي مطلع أو بداية المسيحية كان الكتاب المقدس في الحقيقة هو العهد القديم فقط لمدة لا تقل عن ثلاثين سنة. وكان الرسل لم يكتبوا بعد الأناجيل. ومع هذا كان الفرق الأساسي بين الكنيسة والمجمع اليهودي هو تفسير العهد القديم. كانت الكنيسة قد آمنت بالحدث التاريخي أي تجسد ابن الله، وكان هذا الحدث هو مفتاح الفهم الرسولي لأسفار الأنبياء. أمَّا المجمع اليهودي، فقد رفض التجسد، ولذلك ظل يقرأ أسفار العهد القديم وبرقع موسى على وجه المجمع غير قادر على رؤية الرب بسبب عدم الإيمان (٢كورنثوس ٣: ١٤ – ١٥).

ولذلك يعود القديس ايريناوس إلى الإيمان الذي أخذته الكنيسة من الرسل. هذا الإيمان يسلَّم لكل الآتين إلى الكنيسة في المعمودية. ولذلك يستطيع هذا الإيمان أن يشرح معنى كل كلمة ويربطها بغيرها ربطاً محكماً حسب القاعدة التي شُيِّد عليها هذا الإيمان، وهي حسب تعبير إيريناوس **جسم الحقيقة نفسه**، "وجسم هذه الحقيقة هو مجيء ابن الله بالجسد من أجل حياة جديدة"، وجسم الحقيقة هو قانون الإيمان بالمعنى القديم[١] أو **قانون الحقيقة**. وما يقصده إيريناوس ليس الصياغة اللفظية، وإنما المحتوى نفسه الذي يقود إلى الله. "قانون الحقيقة لم يكن سوى التسليم الرسولي نفسه الذي أودعه الرسل الكنيسة، وهو ما سلَّمته الكنيسة بدورها إلى المؤمنين" (ضد الهرطقات ٤: ٢٦ – ٢).

لكن هذا التسليم ليس مجرد تلقين لكلمات أو أن تُودِع الكنيسة عبارة معينة تُحفظ بدقة. هذا ما يتم في الظاهر. لكن ما يحدث حقاً حسب إيريناوس هو أن "الروح القدس يقيم من خلفاء الرسل أي المؤمنين من يعرف ويختبر الإيمان بشكل أقوى وأعمق، هذا يُعطى موهبة الحق" (المرجع السابق). فالروح القدس هو الذي يهب حياة الحق التي تستطيع أن تميِّز ما أعلنه الله في المسيح، وفي ضوء هذا الإعلان تميِّز الكنيسة بين الصواب والباطل.

على هذا الأساس نستطيع أن نميِّز الإيمان بشكل دقيق، وأن نفسر الأسفار المقدسة تفسيراً صحيحاً.

---

(١) راجع موضوع قانون الإيمان في كتابنا عن "المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية" منشور على موقع coptology.com.

-٢-

# مجال الإيمان أو قاعدة تفسير الكتاب المقدس عند القديس أثناسيوس الرسولي

ما ذكره القديس إيريناوس كان يحتاج إلى دعم جديد إبَّان المحنة الأريوسية. كان الموقف في القرن الرابع مختلفاً تماماً عن الموقف في زمن إيريناوس. لم تكن القطة الجميلة قد صارت ثعلباً أو كلباً، وإنما كانت أشبه إلى حد كبير بالإنسان. كانت الصورة الأريوسية للمسيح تشبه صورة المسيح، ومع اختلاف الملامح، إلاَّ أن الدقة المطلوبة لم تكن متوفرة عند عدد كبير من الناس. ومثل إيريناوس عاد أثناسيوس إلى قاعدة الإيمان، وطبعاً كانت قاعدة الإيمان هي قانون التعميد، قبل قانون الإيمان النيقاوي، والذي اعتمد عليه مجمع نيقية في صياغة قانون الإيمان.

كانت جماعة أريوس تقتبس من الكتاب المقدس وتحرِّف معناه لكي تؤكد أن المسيح مخلوق، ولذلك، فإن البحث عن نصوص أخرى من الكتاب المقدس تؤكد أن المسيح إله وشرحها شرحاً سليماً في إطار التسليم هو أمر ضروري. ولذلك يقول أثناسيوس: "علينا نحن الذين نملك **مجال الإيمان** أن نجد المعنى الصحيح لنصوص الكتاب" (مقالة ٣: ٣٥ ضد أريوس).

لكن ما هو مجال الإيمان؟

الكلمة اليونانية "σκοπος" هي أصل الكلمة اللاتينية – الإنجليزية "*Scope*"، فماذا يعني أثناسيوس بهذا التعبير الذي كرره؟ لقد كرر أثناسيوس هذا أكثر من مرة حيث يقول أيضاً: "ما يدَّعونه (الأريوسيون) الآن من (نصوص) الأناجيل يشرحونه شرحاً خاطئاً، وسوف نكشف نحن ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار **مجال الإيمان** الخاص بنا نحن المسيحيين وقرأنا الأسفار ... مسترشدين به" (المقالة الثالثة ضد أريوس: ٢٨).

وكلمة مجال الإيمان من المفاتيح الأساسية لفهم الصراع ضد الأريوسية. هذا المجال يظهر بوضوح في الأسفار المقدسة نفسها. فهو ليس رؤيا ذاتية في عقل المؤمنين، بل هو الإعلان الإلهي الذي نراه بوضوح في الأسفار. ولذلك عندما يكتب أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس يقول إن الأريوسيين أخطأوا تماماً في إدراك "**مجال الأسفار الإلهية**" (رسالة ٢: ٧). فما هو المقصود من هذا

التعبير؟ إن اختلاف المفردات التي استخدمها أثناسيوس عن مفردات إيريناوس لا يجب أن يكون عائقاً في فهم التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحي. فأثناسيوس يريد أن يقول نفس الشيء. ذلك **أن المجال هو الصورة الواضحة أو النموذج الذي على أساسه يجب أن نفهم الأسفار المقدسة**. هذا النموذج أساسي جداً، لأنه يجعلنا نرى أين توجد النصوص الخاصة بنقطة معينة. بل يساعدنا على إدراك الخطأ الواضح في تفسير الهراطقة.

إذن قاعدة التفسير الصحيح هي ما يمكن أن نسميه جوهر أو قلب الأسفار المقدسة. هذا الجوهر هو النموذج الذي أعلنه الله أي تجسُّد الابن الوحيد. وهو بالتالي المفتاح الصحيح لفهم الأسفار المقدسة.

إن جوهر أو قلب الأسفار هو قاعدة الإيمان، وهذه لا يدركها الإنسان بالقراءة، وإنما هي التسليم الذي سلَّمه الآباء الرسل للآباء الذين بعدهم (De Decr., 27). وهذا التسليم هو وحده الذي يجعل الإنسان قادراً على مواجهة الهراطقة ورفض التفسير المنحرف (المقالة الأولى ضد أريوس: ٤٤). والتفسير المنحرف يحدده أثناسيوس بالرأي الخاص الذي يكوِّنه الهراطقة، والرأي الخاص هو معارضة إجماع الكنيسة الجامعة. لأن هذا الإجماع هو صوت الرسل الذي ينتقل بالتسليم والذي تشهد له الممارسة في كل مكان تقام فيه الليتورجية.

هنا يمكننا أن نرى بوضوح أن التسليم الرسولي أو قاعدة الإيمان لا يجعل في الكنيسة مصدرين للتعليم، أي التقليد والكتاب المقدس. فهذا – كما رأينا سابقاً – خطأ واضح. ذلك لأن التعليم له مصدر واحد، هو التسليم الرسولي (التقليد) الذي هو قاعدة الإيمان وأساس تفسير الأسفار المقدسة. ولذلك يقول أثناسيوس بكل صراحة: "إن الأسفار الإلهية هي التسليم الرسولي" (الرسالة إلى أدلفوس: ٦). وفي مناسبة أخرى يكتب أثناسيوس لسرابيون: "لنتمسك بهذا التسليم (التقليد) والتعليم وإيمان الكنيسة الجامعة الذي أرساه وأعطاه الرب منذ البدء، وبشر به الرسل واحتفظ به الآباء كأساس للكنيسة" (رسالة ١: ٢٨)، ويختتم أثناسيوس رسالته الأولى إلى سرابيون عن الروح القدس ليقول: "وحسب الإيمان الرسولي الذي تسلَّمناه من الآباء سلَّمت إليك التقليد الذي استلمته دون أن أضيف إليه أي شيء غريب. وما تعلَّمته قد كتبته مُثبتاً من الأسفار المقدسة" (١: ٣٣).

## المبحث الثاني

# الليتورجية مجال التسليم الرسولي

تقوم الليتورجية على ثلاثة قواعد أساسية وهي:

كلمة الله – عمل الابن – عمل الروح القدس.

وكلمة الله المدوَّنة في الكتاب المقدس تُقدِّمنا إلى إعلان الابن عن نفسه متجسداً، والابن المتجسد يقدِّمنا إلى كمال الإعلان الإلهي، أي مجيء الروح القدس القدوس.

وكما تقدم القول، تهيئ كلمة الله الإنسان لقبول سر المسيح، ويهيئ المسيح الإنسان لقبول الروح، ويهيئ الروح القدس الإنسان لقبول المسيح، هذا العمل الإلهي لأقانيم الثالوث، يتوسط فيه الابن كوسيط لكي يقبل الإنسان الروح القدس في المعمودية، ويتوسط فيه الروح القدس كوسيط لكي يقبل الإنسانُ الابنَ في الإفخارستيا. فقواعد الليتورجية الثلاثة الأساسية، معلنةٌ في المعمودية والإفخارستيا، لكن هذه القواعد الثلاثة تؤدي في النهاية إلى كمال عمل الله، أي وحدة الكنيسة وقيام الكنيسة جسداً واحداً.

-١-

# كيف يظهر التسليم الرسولي في الليتورجية؟

من الواضح أن دعامات الليتورجية التي أشرنا إليها، وهي الكلمة المعلَنة في الوحي، ثم ما أسَّسه ربنا يسوع المسيح بنفسه، وما يعطيه لنا بالروح القدس، أي حياة الابن المتجسد والمصلوب والقائم من بين الأموات، وقانونية الأسفار والعلاقة بين العهدين – كل هذه الدعامات هي تسليم رسولي. والأسرار نفسها بما فيها من صلوات وطقوس وعقيدة، تسليم رسولي، لكن بشكل خاص تسليم حياة المسيح، وهي هبة الله الآب للبشرية في المعمودية، حيث يأخذها كل عضو في الكنيسة باعتراف خاص وشخصي، يؤكد فيه التزامه بالموت والحياة مع المسيح، وهو التزام، يصل إلى قوته عندما ينضم إلى الجماعة لكي يأكل معهم الجسد المحيي، ويشرب الدم الكريم، فينال بذلك الانضمام إلى الجسد الواحد، الذي نال كل عضو فيه حياة المسيح وصورته، أي المسيح المصلوب والقائم، وهو ما يجعل هذا الجسد واحداً، مكوناً من وحدات أو أعضاء من ذات طبيعة واحدة، وهي طبيعة المسيح الغالبة الموت، والتي قهرت الخطية، أي الانقسام.

هذا التسليم الرسولي، هو تسليم حياة تصونها العقيدة والطقوس ... وهو بدوره الذي يتيح لنا أن نميِّز الهرطقات والتعاليم المنحرفة التي تصطدم بالحياة الجديدة في المسيح.

والنسطورية مثلٌ صارخٌ ... فإنكار إتحاد اللاهوت بالناسوت، يصطدم أولاً بتكوين الكتاب المقدس نفسه، أي العهدين القديم والجديد. ما هو الجديد في العهد الجديد، إذا لم يكن الكلمة الابن الوحيد قد جاء وتجسد؟ وكيف يشرح العهدُ الجديدُ العهدَ القديمَ ويفسِّره، في ضوء موت المسيح وقيامته، ومجيء روح النبوة نفسه لكي يعلن الابن، في الكلمة الإلهية؛ وفي الأسرار وبشكل خاص في المعمودية والإفخارستيا؟

وتصطدم النسطورية بالتسليم الرسولي الخاص بالمعمودية، فالإنسان الذي يشارك الابن الوحيد بنوته، لا يمكن أن يقبل النسطورية؛ لأن شركة البنوة، غير مستطاعة بدون التجسد، فكل عطايا الله قد وُهِبَت لنا في تجسد الابن الوحيد، ونفس الكلام عن الحياة والقيامة. يقول القديس كيرلس في رسالته إلى نسطور: "إننا نعترف أنه الابن المولود من الله الآب، الابن الوحيد لله، ومع أنه بحسب طبيعته (الإلهية) ليس عُرضةَ للألم، فقد تألَّم مع ذلك لأجلنا في الجسد حسبما جاء في الكتب (الأسفار الإلهية)

... وبنعمة الله ذاق الموت عن الجميع، وقدَّم للموت جسده الخاص به، مع أنه هو نفسه بطبيعته، الحياةُ والقيامة. حتى أنه داس الموت بقوته التي لا يُنطق بها، وصار هو بجسده الخاص به بكر القائمين من الأموات، وباكورة الراقدين، ومهَّد طريقاً لطبيعة الإنسان لتدرك عدم الفساد بنعمة الله ... ولابد أن نضيف هنا أننا نعلن موت الابن الوحيد، ابن الله، أي يسوع المسيح بحسب التجسد، ونعترف بقيامته من الأموات وصعوده إلى السماء، ونقدِّم الذبيحة غير الدموية في الكنائس، ونكمِّل الإفخارستيا لكي نتقدم بتناولنا جسده المقدس ودمه الكريم، أي جسد المسيح مخلصنا كلنا ودمه، ولا نتناوله كجسد عادي، ولا كجسد إنسان تقدَّس واتحد مع الكلمة وصارت له كرامة بسبب إتحاد أو بسبب سكنى اللاهوت، بل نتناوله لأنه معطي الحياة بكل حق وجسد الكلمة ذاته. لأنه هو الحياة حسب طبيعته كإله، ولما اتحد بجسده جعله مانحاً للحياة كما قال هو نفسه أيضاً: "الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فلن يكون لكم حياة فيكم" (يوحنا ٦: ٥٣)، فلا يجوز أن نفكر أنه جسد إنسان مثلنا، لأنه كيف يمكن أن يكون جسد إنسان مانحاً الحياة من طبيعته المخلوقة؟!" (مجموعة الآباء اليونانيين ٧٧: ١٠٨).

وطبعاً، إن إنكار إتحاد اللاهوت بالناسوت، هو إنكار للإفخارستيا. ولكن، بشكل آخر يؤدي الإيمان النسطوري إلى إنكار وحدة الكنيسة، فالكنيسة لا يمكن أن تقوم كجسد المسيح الواحد بقوة الائتلاف البشري الطبيعي النابع من إرادة المؤمنين، فهذا وحده لا يخلق الكنيسة، وإنما بقوة الحياة الجديدة النابعة من الرأس أي المسيح، الذي يربط الأعضاء بحياة واحدة، هي الحياة الإنسانية الجديدة النابعة منه. وكلما كانت الوحدة الروحية للكنيسة قوية، ظهر بوضوح أن الهرطقات لا تنال من هذه الوحدة، وكلما نما الحس الروحي في داخل الكنيسة استطاعت الكنيسة أن تعيش التسليم الرسولي بقوة.

-٢-

# التسليم غير المكتوب والليتورجية

لعل أكثر من عالج هذا الموضوع هو القديس باسيليوس في كتابه المشهور (الروح القدس). كانت الأريوسية قد طوَّرت أسلوب هجومها على العقيدة المسيحية، ولذلك لم تكتف بالنصوص المقدسة من الكتاب المقدس، واتجهت في آخر مراحلها إلى صلوات الكنيسة نفسها، أي الليتورجية.

فقد كان البرهان الذي اعتمدت عليه الأريوسية في قولها أن الروح القدس ليس مثل الآب، بل هو أقل من الآب وأقل من الابن، هو الذكصولوجية التي تقول: "المجد للآب والابن والروح القدس" أو "المجد للآب بالابن مع الروح القدس". وكانت المشكلة هي حروف الجر "في" أو "ب" أو "مع".

ولكي يجعل القديس باسيليوس تعليم الكنيسة واضحاً، أكد على شقين أساسيين:

**١**- التعليم المكتوب الذي تُعلِّم به الكنيسة.

**٢**- التسليم السري الذي أخذناه من الرسل ويُنقل من جيل إلى جيل.

طبعاً الشق الأول معروف تماماً، وهو الكتاب المقدس، لكن الشق الثاني وهو التسليم السري غير المكتوب، فما هو؟

يؤكد القديس باسيليوس أن الشقين أساسيان للحياة الروحية (فقرة ٦٦). فالحياة الروحية قائمة على العقيدة والصلوات، وهي بدورها لا يمكن فصلها عن الأسرار.

لقد دار جدل بين علماء الآباء عن معنى كلمة "سري"، هل هي الأمور الخفية، أم أسرار الكنيسة؟ ماذا يعني القديس باسيليوس بقوله إن التسليم الرسولي قد تسلمناه سراً؟

هل هي خفية "*Secret*" أم سرائرية "*Mystery*"؟

وفي الحقيقة، يمكننا القول إن الأسرار الكنسية لا تُعلن، لا سيما للموعوظين. كما أن أسرار الكنيسة أسرارٌ فعلاً، أي أنها أمور خفية. والمشكلة تنتهي إذا أدركنا أن كل عقائد الكنيسة ظاهرة بوضوح في الأسرار.

هذه الأسرار تمارسها الكنيسة وفق التسليم الرسولي غير المدوَّن أو غير المكتوب. وهو بالتالي التسليم الذي لا يُعلن. هذا هو ما يصرح به القديس باسيليوس بكل وضوح: "الأسرار قد سُلِّمت إلينا

غير مكتوبة". وقد حدد باسيليوس: المعمودية والميرون ورشم الصليب والإفخارستيا ... (فقـــرة ٦٦). ويعود باسيليوس للهجوم على الأريوسية، فمن خلال الليتورجية نفهم أن تمجيد الآب والابن مع الروح القدس هو تأكيد على وحدة الجوهر للثالوث المقدس. لأن الصلوات التي تقدَّم للآب بالابن لا تكمُـــل إلاَّ بعمل الروح القدس المباشر في النفس وفي الأسرار الكنسية.

لقد تسلَّمت الكنيسة من الرسل استدعاء الروح القدس وتقديس ميـــاه المعموديـــة وتقـــديس الميرون، بل وعدم السجود يوم الأحد. كل هذه سُلِّمت للكنيسة من الرسل للآباء، و لم تدوَّن، لماذا؟

**أولاً**: لأنها تمارس كل يوم أحد.

**ثانياً**: لأنها تدخل في العلاقة المباشرة بين الله والكنيسة، فهي لا يمكن أن تُنسى أو تضيع.

فجحد الشيطان قبل المعمودية، والاعتراف بالإيمان، والغطسات الثلاثة، ليست طقوساً زائلـــة، ولا هي ممارسات عابرة، بل هي بكل تأكيد ما يستقر في النفس من حياة وسلوك (فقرة ٦٦ – ٦٧). وتأتي بعد ذلك في الأهمية الممارسة الكنسية نفسها. "لقد كانت الكنيسة تسلِّم قـــانون الإيمـــان أثنـــاء التعميد فقط" (عظات القديس كيرلس الأورشليمي – الاستعداد فصل ١٢ – ١٣)، وهذا القانون هو أساس التعميد. ويضاف إلى ذلك الصلاة الربانية. فكيف يمكن لمن تسلَّم الإيمان في المعمودية، التي نـــال بها التبني، أن يخطئ في فهم الكتاب المقدس؟

يؤكد القديس باسيليوس أن دور التسليم وممارسة الأسرار والصلوات ... ليس سوى اكتشاف قصد الكتاب المقدس. وكلمة "قصد" مثل كلمة "مجال" – عند أثناسيوس – فالفرق في الحروف فقط. وباسيليوس مثل أثناسيوس، يرى أن ما جاء في الكتاب المقدس يخفي خلفه قصداً، هذا القصـــد يمكـــن التعرف عليه من الليتورجية. وقصد الكتاب المقدس هو ما يتحقق في حياة الكنيسة، فالتسليم الرســـولي ليس إضافة جديدة إلى الأسفار المقدسة، وإنما هو التعبير وممارسة الإيمان الذي تشـــهد لـــه الأســـفار المقدسة.

القسم الثالث

# اللَّاهوت في الشرق

# الفصل الأول

# فروع علم اللاهوت في الشرق

## تمهيد

لاهوت الكنيسة الشرقية يختلف كثيراً عن لاهوت الكنائس الغربية، والاختلاف يتمثل في اختبار الإيمان وطريقة الكلام عنه، ولذلك يجب أن نضع في اعتبارنا بحث جوهر وطبيعة وموضوعات اللاهوت الشرقي المسيحي قبل أن نقارن بينه وبين لاهوت الكنائس الغربية.

## تقسيم اللاهوت في الشرق

اعتمد الآباء جميعاً على تقسيم اللاهوت المسيحي إلى موضوعين هما: التدبير، والثيئولوجيا. وقد ساعد هذا التقسيم على إبقاء النظرة الكلية الشاملة لكل موضوعات الإيمان المسيحي، وهذه النظرة الكلية الشاملة تُوْلَد في النفس من تذوق اختبار واحد في جوهره، هو الإله المتجسد يسوع المسيح الذي أدخلنا في شركة مع الآب بالروح القدس. ولكن هذا الاختبار الواحد متعدد في أبعاده، فالإيمان المسيحي بالمسيح – وهو موضوع التدبير – يرفع الإنسان إلى رؤية الله، وهي الثيئولوجيا. والإيمان بالمسيح الذي يؤدي إلى الثيئولوجيا يقودنا إلى تذوق الله في الأسرار الكنسية وإلى إدراك "سر الكنيسة" الجسد الواحد وإلى معرفة الملائكة والقوات الروحية (إغناطيوس الأنطاكي الرسالة إلى التراليين ٥: ١ – ص ٤٠). فكل ما في التدبير يؤدي إلى الثيئولوجيا، وكل ما في الثيئولوجيا يقود إلى فهم التدبير.

## وحدة التدبير والثيئولوجيا

إن الدراسة العميقة غير السطحية لكتابات الآباء لا سيما أثناسيوس الرسولي، تؤكد لنا أن التدبير موضوع لا يمكن فصله أو فهمه مستقلاً عن الثيئولوجيا، وأن الفصل يحدث في عقول وحياة الهراطقة. إننا لا نستطيع أن نفهم التجسد فهماً صحيحاً إلاَّ بالعودة إلى الثالوث، ولا يمكن أن نفهم الثالوث ونتذوقه إلاَّ في ضوء اختبار الخلاص، وما مشكلة الهراطقة الأساسية إلاَّ الفصل بينها. هذا ما نراه بشكل واضح عند أريوس وعند نسطور وعند كل الهراطقة الآخرين.

ويتبع هذا أن كل خطأ في فهم التدبير يعني بالضرورة خطأ في فهم الثيئولوجيا، والعكس أيضاً صحيح.

والأرثوذكسية أو استقامة الإيمان تعني بشكل أساسي أن يكون لدى المؤمن اختبار للتدبير والثيئولوجيا، وأن يعرف الإله المتجسد في إطار معرفته بالثالوث، وأن يعرف الثالوث في إطار معرفته بالخلاص. ولذلك، فإن التقسيم في اللاهوت هو تقسيم للدراسة ومساعدة على الفهم، وليس تقسيماً إلى موضوعات منفصلة. هذه هي إحدى دعائم اللاهوت الشرقي، وهي دعامة لا وجود لها في اللاهوت الغربي كما سنرى في دراسة أخرى[١]، ويكفي أن نسجِّل هنا أن الوحدة بين التدبير والثيئولوجيا تجد مصدرها في الاختبار السري أو الصوفي "*Mystical*"، وهو الذي وحده يجعلنا في الشرق نرى أن التدبير والثيئولوجيا هما في الواقع "نسيجٌ" واحدٌ، وأنهما السُّدى واللُّحمة للعقيدة والطقوس. والاختبار السري يجعلنا نرى أن تقسيم اللاهوت يؤدي في النهاية إلى أن يفقد المؤمن النظرة الشاملة، وأن ينحصر العقل في موضوعات يطوِّرها الفكر دون أن يدرك أثر تطورها على غيرها من الموضوعات الأخرى في العقيدة المسيحية.

ومع أننا سوف ندرس خصائص التدبير وخصائص الثيئولوجيا، إلاَّ أننا سوف نرى في النهاية كيف تتحد هذه الخصائص وتكوِّن موضوعاً واحداً في اللاهوت المسيحي.

---

(١) أنظر: التمييز بين العقيدة والهرطقة والرأي، دراسة منشورة على موقع coptology.com.

# المبحث الأول

## خصائص التدبير

كلمة تدبير تترجم أحياناً إلى "*Plan of Salvation*"، أي خطة الخلاص، فهي خطة لها هدف، وهو ما يجعل بعض المترجمين يفضِّلون أن تترجم كلمة إيكونوميا "οικονομια" إلى "*Order of Salvation*"، وهذا هو معناها في أفسس (١: ١٠). حيث يشير الرسول إلى خطة الله التي اقتضت أن تتعاقب الأزمنة، حتى تصل الخطة إلى غايتها وهي مجيء المسيح. كانت أزمنة بلا ناموس، ثم جاء الناموس، ثم جاءت النعمة، كل هذه تفاصيل لا يمكن فهمها إلاَّ في إطار إدراك التدبير.

إذا كان الفعل "οικονομεω" يعني يدبِّر، يحكم، يُشرف، فاستعمال الفعل والمصدر، شائعٌ معروفٌ في اللغة اليونانية. فالتدبير والإشراف على سير الخطة، هو جانب من سيادة الله على الخليقة (أثناسيوس – الرسالة إلى الوثنيين ف: ٤٣).

في الإطار اللاهوتي الشرقي، اعتبر الآباء أن العهد القديم جزء أساسي من التدبير (أوريجينوس – الرد على كلسوس ٤: ٩). فقد أراد الله أن يهذِّب الإنسانية، ويعيدها إلى إدراك غاية خلقها بواسطة الناموس والطقوس، هذا هو التدبير الذي اقتضى أن لا يعلَن مجيء المسيح فجأة.

وصارت كلمة "تدبير" من أهم الكلمات التي تعبِّر عن التجسد منذ زمن الشهيد يوستينوس (الحوار مع اليهودي تريفو ١٢٠: ١ – إيريناوس، ضد الهرطقات ١: ٦ و١ – أوريجينوس، الرد على كلسوس ٢: ٩).

كانت خطة الخلاص تقتضي التجسد، وأن يصبح الابن المتجسد مثلنا في كل شيء، وقد قَبِل الابن كل ظروف وطبيعة الحياة الإنسانية طوعاً وبإرادته (أثناسيوس ضد أريوس ٢: ١١). وحياة الرب منذ أن وُلِدَ في بيت لحم إلى أن جلس عن يمين الآب بعد قهر الفساد والموت، كلها تأتي تحت كلمة "تدبير"، وكل الأحداث البارزة كانت تسد نقص احتياجات الإنسانية.

-١-

# ملامح التدبير

## أولاً: لأجلنا

كانت الإنسانية تحتاج إلى ميلاد الرب من عذراء بالروح القدس وبدون زرع بشر؛ لكي يؤسِّس الربُ بذلك، الميلادَ الجديد لكل البشر الذين يأتون إليه ويُولدون بدون زرع بشر من الماء والروح. وكانت الإنسانية تحتاج إلى الروح القدس، ولذلك قَبِله الرب لأجلنا لكي يؤهِّل الإنسانية لقبول الروح القدس، وكانت مشكلة الموت هي أخطر مشكلة، ولذلك ماتت الإنسانية في المسيح، وقامت ونالت الطبيعة البشرية حياة عدم الموت بالقيامة، والميراث الأبدي بالصعود. وهكذا تظهر ملامح التدبير بوضوح في التعرُّف على حقيقة شخصية المسيح الرب الذي لا يحتاج لشيء، ولكنه من أجل الإنسان تطوَّع لأن يمر بكل هذه الأحداث لكي يمنح الإنسانية الحياة الجديدة. ولعل سؤال يوحنا المعمدان للرب يكشف لنا عن طبيعة عمل المسيح، فيوحنا يمانع في أن يعمِّد الرب: "أنا المحتاج أن أعتمد منك ... وأنت تأتي إليَّ، " فأجابه يسوع وقال: "أفعل الآن إذ هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر" (مت ٣: ١٤-١٥). يسوع لم يكن محتاجاً، وإنما الإنسانية.

## ثانياً: أخلى ذاته

التدبير ليس تمثيلية أو مسرحية يقوم بها المسيح، وإنما هو عمل حقيقي، فيه نزيف الدم والموت وعذاب الصليب. ولعلنا نحتاج دائماً إلى أن نتذكر أن الرب عندما تجسَّد كان في صورة الله وأخذ صورة العبد، والفرق بين الاثنين كبير وضخم. كان التجسُّد تنازلاً ضخماً، وكان هذا التنازل يعني أن تختفي كل أمجاد اللاهوت وقوته. وكان يعني أيضاً أن لا يتعامل معنا الابن معتمداً على مجده الإلهي، بل على تواضعه. هذا الاتضاع جعله يقبل أن يعيش مثلنا في الأكل واللبس والنوم والألم والحزن، وكل هذه الضعفات خاصة بالإنسان وحده. ولكن اتضاع الكلمة وتنازله لم يجعل هذه الضعفات تختفي، فلم تتلاشَ صفات الحياة الإنسانية، ذلك أن إخلاء الابن يعني بالدرجة الأولى أن يقبل الابن أن يعيش مثلنا في كل شيء – ما عدا الخطية – لكي يفتدي كل ما لنا.

إخلاء الذات يعني أن لا يتصرف الابن من موقع القوة، وأن لا يعتمد على خصائص اللاهوت وقدراته، بل يعتمد على خصائص الحياة الإنسانية، ولذلك رافق إخلاء الذات الرب، لكننا يجب ألاَّ ننسى أن اتضاع الرب لا يعني أن لاهوته قد توقَّف عن العمل، أو أنه فَقَدَ خصائص اللاهوت، وإنما – بحريته وإرادته – كان يتصرف وفق الظروف التي يمر بها. ويكفي أن نقارن بين مجد التجلي، والبكاء والعرق والحزن في بستان جثسيماني (لوقا ٢٢: ٤٢، عبرانيين ٥: ٧). كان المسيح على الجبل في حالة بهاء، جعل ملابسه تلمع ببهاء أكثر من الشمس، وكان هو نفسه في البستان في حالة حزن شديد (متى ٢٦: ٣٧، ٣٨). ولذلك علينا أن ندرك – بوضوح – تلك المبادئ التي تمكِّننا من فهم هذه الأحداث التي تبدو متناقضة.

-٢-

# المبادئ التي تفسِّر التدبير

## أولاً: المسيح واحد لا ينقسم إلى لاهوت وناسوت، وابن الله وابن الإنسان

على الرغم من أن الرب اتخذ صورة العبد، إلاَّ أنه لم يفقد إلوهيته، وعندما اتَّحد بالطبيعة الإنسانية لم يتصرَّف مرةً وفق الطبيعة الإنسانية، وأخرى وفق الطبيعة الإلهية. ذلك أن كل من يتصور مثل هذه الصورة لا يدرك أن الطبيعتين اتَّحدتا في شخصٍ واحدٍ، وأن مركز شخصية المسيح هو لاهوت الله الكلمة، فليس المسيح في اثنين، ولا هو شخصين في شخص واحد. وإنما هو الله الكلمة الذي اتحد بكل مكونات الناسوت.

**وفي هذا الإتحاد حدث تطوُّع من جانب الكلمة أن لا يعتمد على قوته أو أمجاد لاهوته.** وقد عبَّر الرب عن ذلك بقوله: "مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يوحنا ١٧: ٥)، فقد تخلَّى عن مجده دون أن يفقده، ولعلنا – وعلى قدر ما تسمح لنا اللغة البشرية – نستطيع أن نقول إنه – رغم عدم دقة الكلمة والوصف – قد حدث "كمونٌ" مؤقت. ويعبِّر القديس كيرلس عمود الدين عن هذه الحقيقة بقوله: "كلمة الله سمح لبشريته أن تنمو حسب خواصها وحسب قوانينها وعاداتها ... حتى لا يكون مرعباً للناس إذا بدر منه عدم الاحتياج المطلق إلى أي شيء" (تجسد الابن الوحيد ١٣: ٢٨).

كان الابن الكلمة يريد خلاص الإنسان، ولذلك كان عليه أن يقبل أن يكون – فعلاً – إنساناً، ولكنه هو ليس إنساناً ولا مخلوقاً من المخلوقات، فكيف يتم هذا ما لم يتنازل باختياره عن كل ما يمنع التجسد. لكن تنازل الكلمة هو أشبه بمن يملك مالاً يمكِّنه من شراء أفضل أنواع الطعام، ومع ذلك لا يشتري، ويفضِّل الصوم. وقد استخدم الرسول بولس تشبيهاً مماثلاً (٢ كورنثوس ٨: ٩) ليؤكد أن خلاص البشرية كان مستحيلاً بدون تنازل الله الكلمة إلى فقرنا. غير أننا لا نستطيع أن نتحدث عن هذا التنازل ما لم نتمسك بالواحد غير المنقسم بعد الإتحاد بالناسوت إلى طبيعتين أو مشيئتين أو ابنين. وعلى الرغم من أننا سوف ندرس هذه النقاط بالتفصيل في الكلام عن الهرطقة النسطورية، إلاَّ أننا يجب أن نتمسك في الوقت الحاضر بحقيقة ثابتة مؤكدة، وهي أن تواضع الابن لا يتحقق ما لم يظل الكلمة

الابن هو هو بدون تغيُّر. يقول القديس كيرلس عمود الدين: "الله الكلمة الذي تأنَّس، ظَلَّ اللهُ، وعندما صار مثلنا من أجل التدبير لم يفقد مجده وعظمته" (تجسد الابن الوحيد ١٤: ٢٩) ... فالاتضاع لا يكون اتضاعاً حقيقياً ما لم يظل العظيم محتفظاً بعظمته، ويظل هو في نفس الوقت يمارس ذلك العمل الذي لا يتناسب مع مكانته، لذلك لم يتحوَّل الله الكلمة إلى إنسان، ذلك أن هذا التحول يجعل الاتضاع منتهياً.

ولأن المسيحَ واحدٌ لا انقسام فيه، يمكننا أن نفهم التناقض الظاهر في موقفه على جبل التجلي وفي البستان وهو يصلي، فكلا الحدثين يشرحان لنا أن المسيح واحدٌ؛ لأن الذي يعلن عن مجده بهذا الشكل الفائق هو هو نفسه الذي يصلِّي في البستان، فلم يكن شخصاً آخر ولا تحوَّل إلى شخص آخر، بل أعلن عن مجده المستتر عندما أراد أن يكشف عن قوته، وعندما جاء إلى آلامه الطوعية، احتمل كل ما حدث له. ووحدة شخص المسيح تؤكد لنا قيمة اتضاعه ومجد قوته. فالاحتمال لا قيمة له بالمرة إذا صدر عن شخص لا يملك القدرة على المقاومة. واقتبال المسيح اللعنة والموت وخطايا البشر لا قيمة له ما لم يكن المسيح هو القدوس الذي بلا عيب (عبرانيين ٧: ٢٦، ٩: ١٤).

لذلك، فإن الأفعال الإنسانية لا تصدر عن إنسان والأفعال الإلهية عن إله، بل الكل يصدر عن شخص واحد شاء أن يجوز معنا محنة الألم والخطية وأن يشترك في اللحم والدم مثل باقي إخوته، ولذلك قَبِلَ حراً أن يتألم، وقَبِلَ حراً أن يموت، وحرية إرادته الواحدة جعلته يمر في كل الظروف وفق خطة التدبير[1].

## ثانياً: المسيح، آدم الثاني أو رأس الإنسانية الجديد

إن الخلاص الذي صنعه الرب كان بسبب فشل الإنسان الأول أو آدم رأس الإنسانية القديم. وقد ناقش الرسول بولس العلاقة بين آدم الأول وآدم الثاني في كورنثوس الأولى (ص ١٥) ورومية (ص ٥). فالإنسانية انحدرت من آدم الأول وبه فقدت شركتها مع الله، وكان الموت الذي أصاب الجميع هو أخطر علامة من علامات فقدان الشركة مع الله، ولذلك عندما أعاد آدم الثاني هذه الشركة، صارت الحياة من أهم علامات عودة الشركة. لكننا لا ندرك خطورة فقدان الشركة مع الله إلاَّ إذا درسنا جيداً ما قام المسيح بإصلاحه، ولذلك كلما درسنا التدبير، تعلَّمنا جيداً ما فقدته الإنسانية في آدم وما نالته من جديد في يسوع المسيح.

---

(١) يمكن لمن يريد التوسع في دراسة هذه النقطة أن يدرس كتاب "شرح تجسد الابن الوحيد" للقديس كيرلس عمود الدين، تعريب د. جورج حبيب بباوي.

إلاَّ أن معظم مراحل حياة الرب كانت تمهيداً، أو – في حد ذاتها – إصلاحاً لِمَا دمَّره آدم الأول، ويمكننا بعرض سريع أن نلمس العلاقة بين آدم الأول، وآدم الجديد:

يقول القديس إيريناوس: "آدم الأول بلا أبٍ من تراب الأرض، وآدم الثاني بلا أبٍ؛ لأن الروح القدس كوَّنه في أحشاء العذراء" (ضد الهرطقات ٣: ٣١، ١). وطبعاً ميلاد الرب من عذراء ليس يعني مجرد خلق تشابه بين آدم الأول وآدم الثاني، وإنما هو تأكيد على أن البشرية سوف تجد في المسيح الذي بلا أب من جهة ميلاده الزمني، الشخص الذي يضع البداية الجديدة للجنس الجديد. ويؤكِّد هذا، حقيقة إنسانية المسيح، يقول القديس باسيليوس: "لو كان للرب طبيعة مختلفة غير طبيعتنا نحن الذين متنا في آدم، لأصبح من المستحيل علينا أن نتجدد في المسيح ... وذاك الذي كُسِر لم يُصلح، وذاك الذي تغرَّب عن الله بحيلة الحية لم يعُد إلى الشركة مع الله" (رسالة: ٢٦). وتأكيد إنسانية المسيح يعني بكل وضوح أنه بدون هذه الإنسانية التي هي منّا، لا يمكن إعادة الجنس البشري إلى الله، فالإنسانية هي العنصر المشترك الوحيد بيننا وبين ابن الله المتجسد. ويقول القديس أثناسيوس بكل دقة ووضوح: "عندما أراد الله أن يحيي الإنسان، فَتَحَ له طريقاً جديداً بجسد ابنه، وهذا يعني أنه إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء القديمة قد مضت، ولأن تحقيق الخليقة الجديدة يجب أن يتم، فإن بداية الخليقة الجديدة تبدأ بالإنسان، ولأن الإنسان الأول خلق من تراب، ومثله صرنا نحن لا سيما بعد العصيان؛ لأن في الخليقة الأولى صارت الإنسانية غير أمينة لله، وبسبب ذلك ضاعت الخليقة الأولى، ولذلك كانت الحاجة إلى أن يأتي مَن يجدِّد الخليقة الأولى، وأن يحفظ التجديد عندما يتم ..." (المقالة الثانية ضد أريوس ٢: ٦٥). فآدم الثاني هو بداية الخليقة الجديدة (٢ كورنثوس ٥: ١٧) الذي جاء لا لكي يجدد القديم فقط، بل ليحفظ لنا التجديد بشكل دائم لا يصاب بأي انتكاسة. يقول القديس كيرلس عمود الدين: "لم يحتفظ أبونا آدم بعطية الروح القدس، بل سقط، ولذلك كان من الضروري أن يجيء الله الكلمة لكي يحفظ لنا الخير بشكل دائم". ويقول أيضاً: "إذا كان الإنسان الأول قد نقل إلينا الفساد والموت، فالإنسان الثاني ينقل إلينا من خلال ذاته كل الصلاح والخير الذي يفيد الجنس البشري كله" (تفسير يوحنا ١: ١٤ – مجلد ١: ١٤١).

هذا المبدأ هام وأساسي، والمجال لا يسمح لنا بأن نسجِّل كل النصوص الهامة عند الآباء؛ لأنها تفوق الحصر، ولكن يكفي أن نضع نقطتين أساسيتين أمام كل من يريد أن يدرس حياة الرب:

**١**– لم يكن الرب محتاجاً بالمرة لأي شيء، فهو الله الكلمة الذي لا يحتاج للصلاة أو الصوم أو المعمودية أو الموت أو القيامة، كل هذه الأمور حدثت ليس عن احتياج.

**٢**– إن جسد المسيح، أو – بدقة أكثر – إنسانيته هي العنصر الوحيد الذي نشترك فيه، وهو الوحيد الذي من خلاله ينقل إلينا الله الكلمة كل الخيرات والصلاح الذي تحتاجه الإنسانية الساقطة.

فالمسيح هو آدم الثاني، ولكنه يتفوَّق على آدم الأول في أنه الإله المتجسد، واللاهوت هو الذي يحفظ لنا التجديد أو الخيرات التي نالتها الإنسانية من جديد. ويقدِّم لنا القديس كيرلس عمود الدين تشبيهاً هاماً وهو تشبيه العجينة، فيقول: "كان هو الحياة وباكورة ثمار العجينة الجديدة التي خُلقت من جديد للحياة الجديدة. بينما كان آدم هو باكورة العجينة القديمة، لأنه عندما أعطى الوصية من الله وأهملها سقط في التعدي واللعنة، وبسقوطه أُدين الجنس البشري فيه للموت واللعنة. أمَّا المسيح فهو باكورة ثمار العجينة الجديدة الذي احتمل اللعنة بالموت على الصليب وقام بعد ما حطَّم الموت فصار باكورة الجنس البشري الجديد ..." (تفسير سفر العدد ٦٩: ٦١٦). وهنا نفهم بدقة أن كل ما حدث للمسيح كان بداية تجديد العنصر المشترك أي الإنسانية، لقد تم هذا التجديد فيه هو تماماً، كما تم فساد الإنسانية في آدم الأول. ولكن الرب أخذ ناسوتاً مثل ناسوت آدم وجعله يمر بتجربة الموت، بل الصوم وتجارب الشيطان؛ لكي يكتسب الناسوت قوة جديدة تجعله يقهر كل ضعفات آدم. وعندما يكتسب الناسوت كل هذه، يهب الرب هذه المكاسب للإنسانية في الأسرار، ولذلك علينا أن نتذكر دائماً أن الرب عندما اعتمد، هو واحدٌ مع الروح القدس منذ الأزل، ولكن الإنسانية كانت تحتاج للروح القدس، وذلك لم يسمح بحلول الروح القدس لأنه يحتاج للروح القدس، بل لأن الناسوت الذي يخُصُّنا نحن هو الذي يحتاج للروح القدس[١].

## القاعدة الذهبية

يعلِّمنا القديس أثناسيوس الرسولي أن نقرأ الكتاب المقدس بدقة وعناية لكي نفهم ما هو الموضوع الذي يتحدث عنه الكتاب، ويقول بكل وضوح: "يوجد في الإنجيل محتويان عن المخلص، أنه كان دائماً الله والابن؛ لأنه اللوغوس وشعاع حكمة الآب، ولكنه بعد ذلك، ولأجلنا أخذ جسداً من العذراء مريم والدة الإله "Θεοτοκος"، وصار إنساناً، وهذا ما نجده واضحاً في كل الأسفار الموحى بها" (ضد أريوس ٣: ٢٩).

إذن علينا أن نفهم ما إذا كان الابن الأزلي هو المَعنىُ بالكلام، أم الابن المتجسِّد. ويقدِّم لنا أثناسيوس نفسه مثالاً على هذا، لقد قيل عن الرب إنه "كان ينمو في القامة والحكمة" (لوقا ٢: ٥٢) فكيف نفهم هذا النص؟ يقول أثناسيوس: "لقد قلنا إنه الحكمة وبالتالي لا ينمو لأن الحكمة لا تنمو نحو نفسها، بل الحكمة الإنسانية هي التي تنمو قليلاً قليلاً كلما نما الجسد، ولذلك لم يقل الإنجيل إن الكلمة هو الذي كان ينمو في الحكمة، بل يسوع، وهو ما يؤكِّد أن الذي كان ينمو هو الجسد ..." (ضد

---

(١) راجع لنا "لماذا اعتمد يسوع"، دراسة للأبوين أثناسيوس الرسولي وكيرلس عمود الدين، منشورة على موقع coptology.com.

أريوس ٣: ٥٣)، وهكذا يمكننا أن نطبِّق هذه القاعدة بكل صواب على كل ما نعرفه عن الـــرب، إذا أبقينا في ذاكرتنا أنه اللوغوس، وأنه إنما يتصرف في الجسد لأجلنا.

## المبحث الثاني

# المبادئ التي تفسر الثيئولوجيا

التدبير أو الإيكونوميا أسهل بكثير من الثيئولوجيا، ذلك أن التدبير يعتمد على حياة الـــرب في الجسد وهي ما يمكن أن ندركه، أمَّا الكلام عن طبيعة الله، فهو صعب جداً، ويستلزم دقة أكثر، ذلـــك أننا ننتقل إلى مواجهة غير المحدود وما هو فوق إدراك الإنسان.

في التقليد الشرقي الأرثوذكسي نشأ لدينا اتجاهان من خلال كتابات اللاهوتي المعروف باســـم ديونيسيوس الأريوباغي، وهو شخص مجهول قيل إنه ديونيسيوس السكندري (ق٣ م)، وقيل إنه مـــن القرن الخامس، وقيل إنه تلميذ الرسول بولس، ولكننا لا نعرف إلاَّ القليل عن كاتـــب هـــذا المؤلَّـــف الضخم في معانيه، الصغير في الحجم والمعروف باسم اللاهـــوت السِّـــري "*Mystical Theology*"، وهو كتاب هام جداً يعبِّر عن روح الكنيسة الأرثوذكسية وعن منهجها اللاهوتي الخاص بهـــا. هـــذان الاتجاهان هما ما يعبِّر عنهما ديونيسيوس بالاتجاه الإيجابي أو اللاهوت الإيجابي الـــذي يؤكِّـــد ويعلـــن "*Cataphatic*"، والثاني سلبي ينكر "*Apophatic*"، يؤكد أن ما يعرفه الإنسان هو قليل وبلا قيمـــة ويحتاج دائماً إلى أن يُراجَع؛ لأن الله فوق الإدراك، ولذلك لكي نقترب من الله علينا أن ننكـــر مـــا في فكرنا من صوَر عن الله ومن تشبيهات وخيالات ومحتويات تسد علينا تصوُّر الله بشكل واضح[١]. لقد أعلن الله عن نفسه في العهد القديم – بشكل مستتر – عن طريق الكلمة التي أعطاها للأنبياء، ولكنـــه أعلن عن نفسه – بشكل واضح وفائق – في العهد الجديد، ليس عن طريق الوحي، وإنما بمجيء الكلمة وتجسُّده الفائق (عبرانيين ١: ١ – يوحنا ١: ١ – ١٤).

ولكن هذا الإعلان يجب أن يوضع دائماً في مجال الجانب الإيجابي "*Cataphatic*"، وفي مجال الجانب السلبي "*Apophatic*" لكي يتطهر عقل الإنسان ويصفو من الجهل الذي تراكم داخله. ودون أن ندخل في تفاصيل الاتجاه السلبي والاتجاه الإيجابي – فهو موضوع سوف يعالج بكل تفاصيله حينمـــا

---

(١) يجب مراجعة الكتاب الهام:

"The Mystical Theology of the Eastern Church", V. Lossky.

وننوه إلى أنه قد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وصدر ضمن منشورات النور ببيروت – لبنان ٢٠٠٠.

يجيء دور الكلام عن الذات الإلهية وطبيعة الله – يمكننا أن نقول إن الثيئولوجيا تخضع بشكل عام للاهوت السلبي واللاهوت الإيجابي للأسباب الآتية:

**أولاً**: طبيعة الله نفسه، فهو "سر" يفوق إدراك الإنسان ويعلو على كل محاولات التصوُّر، وهذا يجعل الإنسان في أشد الاحتياج إلى التصحيح الدائم، ولا يتم التصحيح إلاَّ بالسلب حيث ينكر الإنسان الصور والخيالات التي تترسب في عقله عن الله، ولذلك فاللاهوت السلبي يعُد أساسياً – بشكل دائم- لتعديل مسار فهم الإنسان للذات الإلهية، ولا يقوم أي فهم صحيح عن الله إلاَّ عن طريق اللاهوت السلبي.

**ثانياً**: طبيعة الإنسان نفسه، فهو كائن "محدود" وليس هذا فقط، بل هو كائنٌ "سَقَطَ" من رتبة معرفة الله والحياة معه في شركة إلى الانفصال والابتعاد عنه. وبعد أن ظهرت الوثنية كخبرة إنسانية، أصبح من الضروري أن تكون أحدى القواعد الأساسية في علاقة الإنسان بالله قائمة على اللاهوت السلبي، ذلك أن الوثنية هي محاولات "حصر" الله ووضعه تحت سيطرة الحواس والعقل، أو هي محاولة الإنسان لخلق إله على صورته ومثاله، وهذه الآلهة المخلوقة على صورة الإنسان نراها بوضوح في الشعر اليوناني مثل الإلياذة، وهي صورة عن آلهة تمارس كل أنواع الرذائل، لأنها آلهة من صنع الإنسان. ولكن الوثنية المستترة معروفة أيضاً في مجالات الصلاة والصوم ومحاولات التقرب من الله، فما أكثر الذين يصلُّون ويصومون بُغْية رضاء الله عليهم أو يتَّقون الله خوفاً منه، وهم في ذلك إنما يتصورون الله مثل "سيد" أو "رئيس" يحتاج إلى المديح وإلى ما يرضي خاطره ويطيِّب قلبه، وليست هذه سوى وثنية من نوع مستتر تحتاج إلى اللاهوت السلبي لكي يطهِّرها.

ومحاولة خلق الإنسان آلهة أو إلهاً واحداً هي ضد هدف الخلق، ذلك أن الله هو الذي خلق الإنسان على صورته وليس الإنسان هو الذي خلق الله على صورته، وعندما تنعكس الآية وينقلب الوضع يصبح اللاهوت السلبي حتمياً.

**ثالثاً**: ولكن على قدر أهمية اللاهوت السلبي، فإن اللاهوت الإيجابي يربط بين النقطتين السابقتين، فالإنسان على قدر محدوديته والله على قدر "سر" وجوده وحياته، يعلن عن نفسه للإنسان. فالإنسان يحتاج إلى الله، ولكنه يعتمد على إعلانات الله، هذه الإعلانات هي قوام اللاهوت الإيجابي في علاقة الإنسان بالله، ولولا اللاهوت الإيجابي لما تمكَّن الإنسان من الحديث عن الله. ولذلك، فكل ما يعرفه الإنسان عن الله يجب أن يخضع بدوره لما أعلنه الله نفسه، لأن الإعلانات هي مبادرة الله الدائمة ومحاولته المتكررة للوصول إلى الإنسان "أنت الذي أرسلت الأنبياء من أجلي أنا المريض ..."[١].

---

(١) القداس الغريغوري.

وفي إطار إعلانات الأنبياء، ثم في إطار الإعلان المطلق والأخير، وهو التجسد – الذي كشف الكثير من أسرار الله والتي كانت مستحيلة من قبل – تطوَّر اللاهوت الإيجابي وبلغ حد النضوج وأصبح في طاقة الإنسان أن يؤكد الكثير من الأمور عن الله مثل المحبة والاتضاع وإرادته في العطاء، وفوق كل هذا عرف الإنسان عن الله أنه ثالوث، وأنه كائن بالآب والابن والروح القدس، واحد في ثالوث وثالوث في واحد.

## مثالٌ على علاقة اللاهوت السلبي باللاهوت الإيجابي

مما سبق يمكننا أن ندرك أن اللاهوت السلبي لا ينفصل عن اللاهوت الإيجابي، بل هما متلازمان بشكل واضح. وقد أكَّدت كتابات الآباء جميعاً هذه الحقيقة الأساسية، ولكي ندرك هذا علينا أن ندرس – كمثال – عقيدة الثالوث:

نحن نعرف أن الجوهر الإلهي واحد، ولكن ذلك الجوهر الإلهي قائم على ثلاثة أقانيم: الآب والابن والروح القدس، هذا هو اللاهوت الإيجابي. ولكن إذا دخلنا في علاقة الأقانيم مثل ولادة الابن من الآب وانبثاق الروح القدس، فإننا لا يمكن أن نتقدم إيجابياً في فهم هذه العلاقة. ذلك أننا لا ندري شيئاً عن طبيعة ولادة الابن، وكل ما يمكن أن نقوله هو إنها ليست ولادة جسدية، ولا هي ولادة تستدعي الزواج أو التقسيم أو الانفصال .. إلخ، وكما نرى أن هذه كلها سلب "*Apophatic*" لِمَا استقر في عقل الإنسان عن الولادة في شكلها المادي المعروف، ولذلك لا يمكن أن يستغني الإنسان عن اللاهوت السلبي، لا لكي يتطهر عقله وإدراكه فقط، بل لكي يتهيأ قلبه لقبول إعلان الله. يمكننا أن نقول بكل وضوح إن اللاهوت السلبي هو النور الذي يضيء الطريق أمام اللاهوت الإيجابي.

# الفصل الثاني

# علاقة التدبير بالثيئولوجيا

لقد رأينا سابقاً أن الإيكونوميا تدرس بشكل خاص الابن المتجسد، وأنها تلتزم بقاعدة هامة، وهي خلاص الإنسان وتحرير الإنسان من سلطة الشر. بينما تتخصص الثيئولوجيا بشكل أوضح لدراسة طبيعة الله، وهو وضع مختلف عن الإيكونوميا، ولذلك علينا الآن أن ندرس بشكل واضح العلاقة بين التدبير والثيئولوجيا من خلال دراستنا لطبيعة الثيئولوجيا نفسها، حيث يظهر بكل وضوح أن الثيئولوجيا، وهي رؤية الله هي ما سيدوم معنا إلى الأبد؛ لأننا وإن كُنّا "قد عرفنا المسيح حسب الجسد (كإنسان)، إلاَّ أننا لا نعرفه بعد حسب الجسد (أي نعرفه كإله)" (٢ كورنثوس ٥: ١٦)، فالتدبير بكل ما فيه هو ما يسميه الرسول "بعض المعرفة" (١ كورنثوس ١٣: ٩)، أمَّا الثيئولوجيا وهي معرفة الله، فهي كمال وغاية خلق الإنسان.

يمكننا أن ندرك الفرق بين التدبير والثيئولوجيا بدارسة لمحة بسيطة عن الجدل الأريوسي عن علاقة الابن بالآب. كانت الأريوسية هرطقة تمس الثالوث نفسه، أي أنها تخص الثيئولوجيا بشكل خاص، ثم تؤثر في التدبير أي خلاص الإنسان. ومن دراستنا للقديس أثناسيوس ندرك أن الصراع ضد الأريوسية كان يتم أولاً على أرضية الثيئولوجيا، أي تأكيد أن الابن من ذات جوهر الآب، أو واحد مع الآب في الجوهر، وهو تأكيد خلاص الإنسان وعودته إلى الشركة مع الله؛ لأن الذي جاء لكي يخلِّص الإنسان هو الإله المتجسد الذي من ذات جوهر الآب وليس مخلوقاً، وبالتالي تكتسب المعمودية قوتها لأنها تتم باشتراك أقانيم الثالوث فيها، فالآب يهبنا التبني في ابنه الذي يحوِّلنا ويجعلنا أبناء الآب بواسطة الروح القدس (يوحنا ١: ١٢ – ١٣)، ولذلك إذا تم وضوح الثيئولوجيا، تم وضوح التدبير، وإذا صحت الثيئولوجيا، صح التدبير لأنهما موضوع واحد.

ولذلك علينا أن ندرك أن صعوبة الثيئولوجيا، وهي صعوبة حقيقية تعني في النهاية أن نفهم التدبير بشكل لا يحتمل الخطأ. وكان منهج آباء الإسكندرية – دائماً – التأكُّد من صحة الكلام عن الله، ثم التأكُّد من صحة الكلام عن التدبير بعد ذلك، وكان أدنى خطأ في الكلام عن الله، يعني بشكل مباشر أن يتأثر الكلام عن التدبير ويمتد الخطأ من الثيئولوجيا إلى التدبير.

وكمثال لما نقول، يمكننا إذا درسنا بدقة المقالة الثالثة ضد أريوس أن ندرك العلاقة بين الثيئولوجيا والتدبير. كانت الأريوسية تدَّعي أن الابن مولودٌ بإرادة الآب وأنه ثمرة لتعب الآب (٣: ٥٩)، وهنا يؤكد أثناسيوس أن أريوس ظَنَّ أن الآب فَكَّر ثم أراد وبعد ذلك نفَّذ ما صمم عليه، هنا لم يعُد الموضوع معرفة سليمة بطبيعة الله، فكل ما يقال عن الفترة التي تفصل بين الفكرة والإرادة والتنفيذ هو موضوع ينطبق على الإنسان وليس على الله، فالابن ليس عملاً من أعمال الله، أي كائن بإرادة الله، بل هو في ذات الجوهر الإلهي منذ الأزل، فالابن من ذات جوهر الآب، فهو ليس مولوداً بإرادة الآب لأنه اللوغوس الكائن منذ الأزل (ضد أريوس ٣: ٦٠ – ٦٢) هو إرادة الآب وليس غريباً عن إرادة الله أو ثمرة لهذه الإرادة. إن ما يريده أثناسيوس هو أن نعرف الله كما هو، وقبل أن يتصل بنا، بل قبل حتى أن يخلق العالم وكل ما فيه، يجب أن نراه هو أولاً كمصدر لكل الأشياء، فإذا صحَّت هذه الرؤيا استطعنا أن نرى معنى الخلق وتدبير الفداء، ولعل أفضل نص يلخص كل مقالات أثناسيوس هو ما يقوله الأب القس الأرثوذكسي جورج فلورفسكي: "لا يمكن أن نتقدم في فهم اللاهوت إلاَّ إذا تقدمنا بشكل واضح في فهم موضوع التدبير"[1].

ولذلك، إذا أدركنا الفرق بين الله والإنسان، أمكننا أن نتحدث عن التدبير بشكل واضح. ويلاحظ أن هذه القاعدة الأساسية تجعلنا ندرك أن معرفتنا بالله هي أساس كل شيء أو هي اللاهوت الحقيقي أو الثيئولوجيا التي يجب أن يجاهد الإنسان لكي يتعلمها.

## الموضوعات الأساسية في التدبير

إذا تبعنا الآباء، أدركنا أن تقسيم اللاهوت الشرقي إلى ثيئولوجيا وإيكونوميا، لاهوت وتدبير، هو نقطة ارتكاز في فهمنا اللاهوتي، بدونها لا يمكن أن نقتني التمييز اللاهوتي.

ومن الآباء ندرك أن بداية اللاهوت، أي الثيئولوجيا، تبدأ عندما نتذوَّق إعلانات الله في التجسد، أي في الإيكونوميا. ومع ذلك يمكن أن يبدأ الإنسان بالثيئولوجيا، لكي يقوِّي إدراكه للإيكونوميا، وقد يبدأ الكل بالإيكونوميا لكي يرتفع البعض إلى بهاء الثيئولوجيا. عموماً، المطلوب هو المعرفة الصحيحة النابعة من إيمان صحيح.

حسبما نرى في كتاب تجسُّد الكلمة للقديس أثناسيوس، الكلام عن التدبير يقتضي الكلام عن خلق الإنسان، وعن السقوط، لكي ندرك لماذا تجسَّد الابن، ولماذا رتَّب الله التدبير، وقد سجَّل لنا القديس غريغوريوس النزينزي في المقالة اللاهوتية (٤١: ٥) موضوعات التدبير على هذا النحو:

---

([1]) St. Athanasius concept of creation, in studia patristica, vol. 6, 1962, P.P. 36-57, see P. 52.

ميلاد المسيح في الزمان من العذراء – التجسُّد وما يرتبط به أي المعمودية في الأردن – التجلي – الصليب – القيامة – الصعود – ظهور المسيح الثاني للدينونة – قيامة الأبرار والأشرار.

وبالمقارنة بين هذا الترتيب، وكتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس يظهر أن موضوعات التدبير تقوم على:

**١**- ما يخص الابن، الخالق، والمخلِّص.

**٢**- ما يخص الإنسان، قبل وبعد السقوط، أي الخلق على صورة الله ثم السقوط.

## الأسرار هي أحد دعائم التدبير

لا يمكن في ضوء ما قررناه أن نعزل الأسرار الكنسية عن التدبير، وإذا درسنا الآباء جيداً، وبالذات القديس أثناسيوس والقديس كيرلس عمود الدين، سنجد أن الأسرار هي إحد دعائم التدبير.

يقول القديس أثناسيوس في رده على أريوس، الذي حاول أن يهرب من الحجج الأرثوذكسية بإدعائه أن اللوغوس شخص آخر غير الابن: "وما الذي يقدِّمه اللوغوس لنا أكثر من الابن في خلاصنا؟ أيهما اشترك أكثر؟ وكيف تفسِّر الوصية التي تأمرنا بأن نؤمن بالابن لأن يوحنا يقول: "الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن فليس له حياة" (يوحنا ٣: ١٦)، والمعمودية المقدسة التي فيها نختزن الإيمان كله، تُعطى لا باسم الكلمة، وإنما باسم الآب والابن والروح القدس. فإذا ادعى الأريوسيون أن الكلمة اللوغوس هو آخر غير الابن، وأن اللوغوس هو ليس الابن تصبح المعمودية غير متصلة باللوغوس" (ضد أريوس ٤: ٢١).

وكأن المعمودية متصلة بالثالوث بالآب والابن والروح القدس، ولذلك لا يجب أن نضعها تحت فرع الإيكونوميا. لكن المؤكد أن المعمودية مرتبطة بتجديد الطبيعة الإنسانية أو الميلاد الثاني، بل هي جزء أساسي من عمل المسيح، ولذلك هي مرتبطة تماماً بالإيكونوميا كما هي مرتبطة بالثيئولوجيا أي موضوع الثالوث. ولعل هذا يؤكِّد لنا بكل وضوح أن التقسيم إلى فرعين لا يعني بالمرة أن الفرعين مثل فرعي شجرة متباعدان تماماً كلٌ عن الآخر.

إن التقسيم هو في الواقع، مجرد حصر لطريقة ومبادئ تفسير وشرح العقيدة، وليس فصل الموضوعات تماماً بحيث تنعدم الصلة بين الثيئولوجيا والإيكونوميا. ولقد اضطر الآباء إلى ذلك لأن الحديث عن الابن المتجسد اقتضى الحديث عن الألم والموت والجوع والنوم والسهر والصوم والصلاة، وهي كلها أفعال يجب ألاَّ تنسب للاهوت بالمرة، وإنما تنسب له في وضع واحد فقط، وهو التدبير أو الإيكونوميا أو التجسد، ولذلك فطريقة ومبادئ شرح كل هذه الأمور ليست هي ذات المبادئ ولا ذات الطريقة التي نشرح بها الثالوث. وإذا عدنا إلى موضوع الأسرار بالذات نرى أن المعمودية تقتضي

منّا الحديث عن الثالوث والتجسد والصليب والقيامة، ويمكننا أن نلمح بوضوح في عظات القديس كيرلس الأورشليمي للذين سيُعمَّدون أن الدروس الأخيرة قبل المعمودية كانت تشرح قانون الإيمان كله، وفعل هذا هو أحد الأسباب الأساسية التي جعلت القديس أثناسيوس يقول إن الإيمان كله قد خُزِن أو جُمِع في المعمودية.

وماذا عن الإفخارستيا التي هي جسد ودم ربنا يسوع المسيح؟

من مقالات القديس كيرلس عمود الدين ضد نسطور (بالذات المقالة الرابعة/ الفصل الخامس)، نكتشف أن الإفخارستيا مرتبطة تماماً بالتجسد، أو كما يقول القديس كيرلس: "سر التدبير في الجسد" (ضد نسطور ١: ١). فإذا كان نسطور يفصل بين اللاهوت والناسوت، فإن السؤال المباشر: وماذا عن الإفخارستيا؟ يجيب القديس كيرلس: "ماذا إذن هي النتيجة؟ أليس هذا نوعاً من أكل لحوم البشر والافتراس "*Cannibalism*"؟ وبأي طريقة يصبح السِّرُ (الإفخارستيا) كريماً؟ إلاَّ إذا قلنا إن الكلمة نفسه الذي من الآب هو الذي أُرسل، وكيف جاء إلينا وبأي طريقة سوى تجسُّده؟ وهنا يمكننا أن نرى أن الجسد الذي اتحد به له قوة محيية وليس جسداً غريباً، وإنما هو جسده (الكلمة) أي الذي يقدر على أن يعطي الحياة لكل الأشياء. النار في عالم المحسوسات، فهل هذا غريب أو شيء لا يصدق أن الكلمة نفسه من الآب الذي بطبيعته الحياة، يعطي للجسد الذي اتحد به صفة الحياة فيصير جسداً محيياً؟! لأن هذا الجسد هو جسد الكلمة وليس جسد أحد آخر سواه من البشر. فإذا عُزل كلمة الله المحيي من الإتحاد السري والحقيقي بالجسد، وإذا فُصل الكلمة تماماً، فكيف يستطيع أن يرينا أن جسده لا يزال معطياً للحياة؟! ومن ذا الذي قال: "الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يمكث فيَّ وأنا أمكث فيه" (يوحنا ٦: ٥٦)؟ فإذا لم يكن كلمة الله قد جاء وصار مثلنا، فإن ما نقدمه ليس إلاَّ نوعاً من أكل لحوم البشر، والاشتراك في شيء مثل هذا بلا فائدة بالمرة. وأنا أسمع المسيح نفسه يقول: "الجسد لا يفيد الروح هو الذي يحيي" (يوحنا ٦: ٦٣)" (ضد نسطور ٤: ٥).

ومما لا شك فيه أن كيرلس عمود الدين يضع الإفخارستيا في نطاق موضوع إتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا يسوع المسيح؛ لأنه كما هو واضح أن كل حديث عن جسد ربنا يسوع بدون تأكيد الإتحاد يحوِّل ذلك السر المجيد والكريم (الإفخارستيا) إلى نوع من الافتراس وأكل لحم بشري ويخرجه تماماً من كل المعاني والاختبارات السامية المرتبطة به. ولعل هذه الحقيقة هي التي تجعل صلاة الاعتراف، وهي خاتمة القداس القبطي: "أؤمن واعترف إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحيي الذي لابنك الوحيد ... وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"، تؤكد على أن السر قائم على إتحاد اللاهوت بالناسوت. ولذلك، الإفخارستيا هي من الإيكونوميا، وكل حديث عن الكنيسة هو من الإيكونوميا؛ لأن الكنيسة هي جسد المسيح، وهي مرتبطة بالتدبير قائمة عليه تبشِّر به، بل هي الوجود

المنظور للمسيح في التاريخ وعلى الأرض ... والحديث عن الروح القدس يكشف علاقة الثيئولوجيا بالإيكونوميا؛ لأن الروح القدس يعمل في الأسرار ويبني الكنيسة، ويكمِّل ويعلن عمل الابن المتجسد، ولكن الروح القدس موضوع خاص بالثيئولوجيا، وهذا في حد ذاته يكشف لنا أن كل تقسيم في اللاهوت المسيحي يجب أن يؤخذ على أنه تنظيم لشرح العقيدة وليس فصلاً بين موضوعات غير مرتبطة كل منها بالآخر.